مطبوعات كتابي

يصدرها حلمي مراد

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

بيلا دونا

BELLA DONNA

للروائي الكبير "روبرت هيتشنز"

الجزء الثاني من القصة الشائقة



١٠٧

روبرت هيتشنز

بيلا دونا



BELLA DONNA

BY

ROBERT HICHENS

٢٠٠ صفحة
الثمن ١٠ قروش

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب الخامس والعشرون

بيللا دونا

الجزء الثانى

تأليف : روبرت هيتشنز

ترجمة : شمس الدين الغريانى

الادارة : عمارة الجندول – ١٤ شارع ٢٦ يوليو – بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن اثنان وستون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجرة البريد المسجل ، ما عدا العدد العاشر وثمنه عشرون قرشا ، والأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، أما الأعداد الستة الأولى فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها .

• الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والأردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وأمريكا وفرنسا وأستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة أجر البريد المسجل ، وفى المانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى .

• ملحوظة : ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه . واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بأن الكوبونات الدولية فئة الأربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الأبيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) ، الخطيئة الأولى ، أوديب ، مدام بوفارى (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأ للحب ، جين اير (ثلاثة أجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثأر للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، أسرار الجاسوسية ، بيللا دونا (جزء أول) . وثمن كل من الأول والرابع والسابع والتاسع عشر والثانى والعشرين ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والعشرون والحادى والعشرون والثالث والعشرون والرابع والعشرون ١٢ قرشا ، والثانى عشر ١٤ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص أجرة البريد المسجل) .

عزيزى القارىء ..

❖ قدمت لك فى العدد الماضى الجزء الأول من الترجمة « الكاملة » الأمينة لهذه القصة التى أحدثت ضجة خلال نصف القرن الاخير ، واجتذبت السياح من كافة أرجاء العالم ، وجعلت نساء الطبقة المترفة -فى أوربا وأمريكا -يحلمن بالشاب المصرى الاسمر ، وبنشوة الغرام على رمال الصحراء ، وتحت سماء مصر ، وعلى ضفاف النيل !

وكان غريبا ان تترجم هذه القصة الى جميع لغات العالم دون العربية ، لا لشىء الا لانها اشتملت بعض « الوخزات » التى يوحى التعصب الاستعمارى المقيت الى كتاب الغرب بأن يخزوا بها قوميتنا .. ولكن « مطبوعات كتابى » تعتز بان تنفض عن هذه القصة غبار النسيان ، لاننا - الى جانب اعجابنا بالقصة كتحفة أدبية رائعة - نؤمن بان الخير فى أن نعرف مايفتريه علينا المتجنون ، اذا شئنا ان نحسن الدفاع عن سمعتنا وكرامتنا .. ولاننا نقدر للمؤلف تلك الصورة الرائعة التى رسمها - خلال السطور - لفترة كانت مصر فى أثنائها نهبا بين قوتين غاشمتين تنهشان جسدها ، وتمتصان دماءها : قوة البقية المتخلفة من الاستعمار التركى ، ممثلة فى الاتراك الذين استوطنوا مصر، واستأثروا بخيراتها وبكل نفوذ فيها ، واستغلوا شرقيتهم وانتماءهم الى الاسلام للتغلغل فى أعماق البيئة المصرية ، حاملين جراثيم الفساد ومعاول الهدم -هدم القومية المصرية ، والقومية الاسلامية ، والقومية العربية - ثم قوة الاستعمار الانجليزى الذى حالف أتراك مصر لأنه كان يهدف الى عين أهدافهم ، وان راح - فى الوقت ذاته - يصارعهم ، رغبة فى الاستئثار بكل الخيرات ، وكل النفوذ !

كانت فترة دقيقة فى حياة مصر ، عرضها المؤلف ببراعة ، كصورة خلفية لموضوع القصة الاصلى الذى يروى قصة غانية انجليزية وضعتها الظروف بين حجرى الرحى : بين زوج انجليزى ، وعاشق مصرى أسمر غامض ، أذل كبرياءها وهى التى كان قومها يحاولون اذلال بلاده !.. وهى فى الوقت عينه قصة صراع الانسان - أو بالاحرى ، المرأة - ضد القضاء والقدر ، وصراع الخير ضد الشر .. الى آخر المعانى التى ينطوى عليها سياق القصة

ورغم حرصى على طبع أكثر من نصف القصة بالحروف الصغيرة ، تجنبا لتعدد الاجزاء بقدر ما فى وسعى ، فسوف تستغرق هذه الترجمة الكاملة لها جزءا ثالثا وأخيرا ، علاوة على هذا الجزء الذى بين يديك .. وما باليد حيلة !

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

هكذا بدأت القصة !

ملخص الجزء الأول

◆ شق الدكتور « ماير ايزاكسون » طريقه فى الحياة بشكل لا يتاح الا ليهودى عصرى يقيم فى لندن .. فقد أحاط حياته الخاصة بغموض تام ، وحرص على أن يقرن الطب بعلم النفس ، فكان يتغلغل الى اعماق نفس مريضه، مما أذاع صيته بين سيدات الطبقة الراقية فى لندن ، اللاتى يترددن على الاطباء لأتفه توعك ، ولو لم يكن بهن مرض !.. ويقال ان برجال اليهود بعضا من صفات الأنوثة الحقة ، لذلك استطاع الطبيب الشاب أن يفهم النساء بغريزته ، كما يفهمن بعضهن بعضا : كان كالنساء فى سرعة البديهة ، وصدق الالهام ، وفى حرارة الميل نحو الشىء أو النفور منه .. ومن هنا ندرك سر حكمه على « مسز تشبستو » حين زارته فى عيادته . فقد سبقتها سمعة وروايات وشائعات لم يكن يجهلها : كانت من أبدع ربات الجمال ، ولذلك أطلق عليها الناس اسم « بيللا دونا » ، أى « ست الحسن » ..وكانت من أسرة ارستقراطية مفلسة ، مما شجعها على أن تبيع نفسها ، اذ تزوجت - وهى فى الحادية والعشرين من عمرها - من تاجر خمور ثرى خلع عليها اسمه .. ثم فاجأها وهى تخونه مع رجل متزوج من رجال المجتمع المعروفين، فطلقها أمام القضاء

وكانت مسز تشبستو - عندما حاقت بها هذه الفضيحة - فى السادسة والعشرين ، وفى ذروة جمالها ، فتحدت المجتمع ، ولم تحفل بشىء سوى الوصول الى المال وتبديده على حبها للترف والبذخ .. وهكذا عاشت متحررة، غير مكترثة لما احاطها به المجتمع من شبهات . حتى اذا شارفت الاربعين من عمرها ، بدأت أضواء حسنها تخبو رويدا ، واصبحت ترى فى المجتمعات فى صحبة شبان صغار ، بل غلمان !.. وبدأ الناس يسخرون منها ويزدرونها.. وما لبث الكلال ان تسرب الى نفسها وجسدها . وهذا - بوجه خاص - ما أدركه الدكتور ايزاكسون حين زارته فى عيادته .. ولكنه أدرك ، من نظراتها وحديثها ، شيئا أهم .. أدرك قوة شخصيتها ، ودهاء أنوثتها ،ومدى تغلب حبها للمادة - فى نفسها - على كل مايمت للروح وللمبادىء الخلقية !

على ان الطبيب الشاب ازداد ادراكا لكل هذا ، عندما تبين أن الغانية قد

ألقت شباكها على صديق له كان الوارث الوحيـد للقب « لورد » ولأملاك شاسعة استأثر بها شقيقه الاكبر - حسب قانون الوراثة الانجليزى - ولكنه لم ينجب ولدا يخلفه ٠٠ وكان ذلك الصديق « نيجل ارماين » ، شـابا فى السادسة والثلاثين ، نقى القلب ، صافى العواطف ، يؤمن بالمثـل الروحية والمبادىء الخلقية ويقدمهـا على كل شىء ٠٠ وقد كرس جهوده لاستصلاح الأراضى فى صحراء (الفيوم) بمصر !

★ ★ ★

❖ ولم تجد جهود الدكتور « ايزاكسون » فى انقاذ « ارماين » من براثن الغانية ٠٠ فان سذاجة الشـاب وطيبة قلبه جعلتاه يشفق عليها من قسـوة المجتمع ، ويأخذ على عاتقه عبء حمايتها من هذه القسوة ، مبررا ذلك -لنفسه- بأنه كان يوقن ان الحب كفيل باصلاح النفوس ، ويؤمن بانتصار الخير على الشر ، وان زواجه من الارملة المفسودة ، التى كانت تكبره سنا ، سيوقظ الخير فى نفسها ، ويصلح من شخصيتها ، ويجعل منها امرأة طيبة صالحة !

وهكذا تزوج « نيجل » من « مسز تشبستو » - فاصبحت مسز ارماين - ورحل بها الى مصر ٠ وقبل ان يستقر بها المقام ، كانت قد كرهت البـلاد التى أقصتها عن المجتمع الانجليزى وأضـوائه ، وكانت قد بدأت تميل الى شاب أسمر التقت به على سطح الباخرة أثناء قدومها ، ثم قابلته فى الاقصر ، فعلمت انه من أب مصرى وأم يونانية ، وانه كان واسع الثراء ، يعيش فى بذخ مفرط

ولم تستطع روحانية الشرق ان تؤثر فى نفس « روبى » - مسز ارماين - ولكن جو مصر الحار أيقظ نزواتهـا وشهواتها ٠ ثم أقبل نبأ بأن شـقيق « نيجل » قد أنجب توأمين ذكرين ، وبذلك تبدد حلمها فى ان يفوز زوجهـا بلقب « اللورد » وبالثروة ، وهما السلاحان اللذان كانت تطمع فى ان تحارب بهما المجتمع اللندنى لتثأر لنفسها مما تمرغت فيه من هوان ٠٠ فايقظ هـذا النبأ - بدوره - جشعها المادى ٠ ومن ثم شرعت مسز ارماين توجه اهتمامها الى « محمود بارودى » - الشاب المصرى - طمعا فى أن تسيطر عليه ،فتستغل مكانته وثروته فى ارضاء مطامعها ، وفى اشباع نهمها الى الترف والبذخ !

وفى ذات يوم ، دعاها « بارودى » وزوجها لزيارة « دهبيته » النيلية -التى كان يدعوها « اللولية » - فبهرها ما شاهدت من خدم وأثاث ونعيم ٠٠ولفتت بصرها لوحة كتبت عليهـا آية قرآنية : « وكل انسـان ألزمناه طائره فى

عنقه » ، فراحت تحدق فى الكلمــات السحرية مبهوتة ٠٠ ثم رأت مخـدع « بارودي » ، وحجرة كان يخصصها لخلواته و « مزاجه » ، فتمنت ان تقضي في هــذه الحجرة فترة وهي وحيدة ، ومن ثم تركهـا زوجهـا ومضيفهما ، وأغلقا باب الحجرة ، فسادت الظلمة المكان ٠٠ واستلقت الغانية الانجليزية على أريكة وثيرة ، ثم تركت لخيالها العنان ، فصور لها انها امرأة شرقية ، تعيش فى حريم رجل ثرى ، يمتلكها روحا وجسدا ٠٠ لقد لبثت سنين طويلة تستعبد الرجال ، ولكنهـا تاقت اذ ذاك الى رجل يستعبدها !٠٠ الى « بارودى » بالذات !٠٠ وكانت توقن ان بارودى سيكون قاسيا فى غرامه ، وانه لن يخضع نفسه لامرأة ٠٠ ومع ذلك فان نفسها هفت الى أن تكون جاريته ، وان تعيش فى حريمه ، وتتقلب فى ثرائه ونعيمه !

والآن ٠٠ تعال نتابع معا قراءة هذه القصة الشيقة

بيلا دونا

للروائى الكبير "روبرت هيتشنز" مؤلف "حديقة الله"

الجزء الثانى



تتضمن هذه الطبعة الترجمة الكاملة الأمينة للقصة كما كتبها مؤلفها ، دون أى تصرف أو اختصار لأى سطر أو لفظ فيها !

المترجم

* * *

• **ترى** كم ظن بارودي أنها تبلغ من العمر ؟! ان العرب لا يعرفون أعمارهم البتة ، وقد اخبرها بذلك – ذات مرة – رجل .. جندى كانت تعرفه . أخبرها بأن العرب فى سن الستين يقولون أنهم فى الخامسة والعشرين ، لا تيها أو غرورا ، وانما لمجرد أنهم لا يعرفون لأعمارهم حسابا ! ولعل بارودى لا يرى فيها قط ما كان الانجليز يرونه فيها .. لعله لا يعنى البتة بعمرها ! فهى لم تر فى عينيه ما ينم عن النقد عندما كانتا تتفرسان فيها .. ولعله ، اذا كان قد فكر فى عمرها على الاطلاق ، حسب أنها ما تزال فى سن الشباب . ولكن الأرجح انه لم يفكر فى هذا الأمر مطلقا !

انها الآن فى دار بارودى الشرقية !.. وارتدت خواطرها الى الوراء : فعندما كانت تغادر لندن مع نيجل ، قادمين الى مصر ، تصورت انه اذا لم يقدر لها أن تسود لندن وتحكمها – لندن هذه التى كانت يوما ما تسجد لجمالها ! – فانها على الأقل ستحتقرها يوما وتزدريها بوصفها ليدى هارويتش !.. كانت تتدثر بهذه الرغبة ، وهذا الحلم ! كان كل تفكيرها مرتبطا بلندن ، وبالناس هناك .. فسوف يأتى يوم يقضى فيه اللورد هارويتش نحبه ، أو يصيب نفسه فى حادث يودى بحياته ، وعندئذ تتوارى « زوى هارويتش » – زوجته – وتنزوى قانعة بأن تصبح مجرد « الكونتس زوى هارويتش »، بينما تغدو هى – هى التى كانت ذات يوم « مسز تشبستو ذات السمعة المريبة ! » – سيدة قصر هارويتش فى (بارك لين) ، وقصر ايلنجتون بارك بالقرب من (اسكوت) ، وقصرجولدنى تشيز فى (دربى شاير) ، وقصر ثرلتون كاسل فى (اسكتلندا) ، وعدد لايحصى من اكواخ الصيد فى الريف ، ناهيك بالمنازل الأخرى فى (برايتون) و (نيوماركت) ! وقد يرفض المجتمع بعد ذلك أن

يستقبلها ، ولكنه سوف يحسدها حتما !.. ثم لعلها فى النهاية ـ اجل ، أليس كل شىء جائزا فى مجتمع اليوم ؟ ـ لعلها فى النهاية تفرض نفسها على هذا المجتمع فرضا ، فيضطر الى قبولها ثانية بسبب مركزها الرفيع !

لقد كانت تحس بأن براعتها ودهاءها وقوة ارادتها كفيلة بأن تجعل ذلك كله جائزا ، ممكنا ، ولكن رسالة اللورد هارويتش اكتسحت هذا الحلم ومحته محوا !..

اما الآن ـ وقد انقضت الصدمة الأولى نتيجة علمها بما جاء فى الرسالة ، وخف ذلك الشعور المحرق بالخطأ ، وليس بالغضب ، الكامن فى نفسها ـ فقد استعادت رباطة جأشها وراحت تعيد النظر فى أمر مستقبلها بذلك التدبير الدقيق الذى كان من صفاتها المميزة ! كانت قد دبرت خططها لهدف معين ، وخطت الخطوة الكبرى الأولى لتحقيق هذه الغاية ، ولكنها ألفت نفسها بغتة مع الكارثة وجها لوجه .. ومن ثم فان أفكارها الآن قد بدأت تتحول عن لندن . بل أخذت «خواطرها عن لندن» تلفظ أنفاسها الأخيرة مع « آمالها فى لندن » ! لم يعد كل ذلك مجديا الآن ! هذا ما كان يقوله عقلها فى مرارة ، ولكن فى عزم واصرار . **لقد نشأت مسز ارماين فى مدرسة الحياة المليئة بالتجارب المتنوعة ، فتعلمت درسا واحدا أجادته وأتقنته .. تعلمت كيف تعوض خسائرها ، فما الذى ينبغى ان تفعله لتعوض هذه الخسارة ؟!**

لقد كانت فى دار بارودى الشرقية ! لقد كانت ـ منذ ساعات قلائل ـ تنظر الى مصر والى كل ما هو مصرى ، نظرة المسافر الى عالم يجتازه فى قطار سريع .. عالم يراه لمدة وجيزة عابرة ، ولكن دون ان يكون له أى شأن مع أهله وساكنيه ، ودون أن يكون له أى دور فى حياته . لقد اضطرت الى ان تعيش فى مصر لمدة معينة ، ولكن رغباتها وآمالها ونواياها كانت تتركز

فى لندن .. فهناك تلعب دورها الرئيسي لتقرير مصيرها .. هناك ، وفى تلك البلاد التى كانت لندن قلبها النابض !.. هكذا كانت ، أما الآن فان عليها ان تركز رغباتها وآمالها ونواياها فى مكان آخر ، اذا كان ينبغى لها ان تركزها فى اى مكان على الاطلاق !.. كان يجب ان تركزها فى نيجل .. وفى الفيوم .. فى استنبات المحاصيل من الأراضى التى لم يكن فيها سوى الرمال وحدها .. فى الفيوم وفى مكان آخر معا .. أو فلتركزها فى ...

وراحت تتشمم الرائحة العطرية النفاذة ، وتتحسس الوسائد الحريرية بأصابعها الطويلة ، وتمد جسمها على الأريكة اللينة ، وتصغى الى همسات الفسقية .. تلك الهمسات السائلة !.. ان الدنيا مليئة بألوان مختلفة من الحياة ، ولقد مرت ــ هى نفسها ــ بالكثير من التجارب ، ولكن كم من التجارب لم تمر بها بعد ولم تتعرف عليها قط ؟ انها الآن لم تعد تحس بأنها كذلك المسافر فى قطار سريع يندفع فى بلاد لن تعرف عنها ــ ولا تعنى بأن تعرف عنها ــ شيئا !.. لقد بدأ القطار يخفف من سرعته ، فأصبحت ترى الأرض أكثر وضوحا ، وأخذت دقائق المنظر تتجلى لعينيها بما فيها من غرابة وحرارة تجعلانها مشتهاة تسر الناظرين !.. ولسوف يقف القطار وشيكا ، وما عليها الا ان تبارحه ، وتواجه هذا العالم الجديد ، وتواجه هذه الحياة الجديدة !.. وفجأة راحت تفتح خياشيمها وتستنشق الرائحة العطرية فى قوة . وشددت يداها الضغط على الوسائد الحريرية فى قبضة مليئة بالغضب ، بينما كان ثمة شىء ما فى أعماقها ــ ذلك الشىء الذى يحاول املاء أوامره من مكانه الخفى ــ يسوط خيالها ليرغمه على بذل جهود أشد عنفا .. فى الدار الشرقية لمحمود بارودى !

ــ روبى !.. روبى !

ودفع أحد البابين المنزلقين بغتة ، فانقض ضوء الشمس على الحجرة ، وقد خففت من حدته تلك المظلة التى كانت ممتدة فوق الشرفة ، ورأت روبى الكرة الصغيرة وهى تتراقص فى الفسقية ، وزوجها يتطلع اليها متسائلا ، وهو يقف فى وسط اطار الباب المستطيل : « ما الذى تفعلينه ، بحق السماء ! » . فأجابت وهى تجلس فى مكانها بحركة فجائية : « لا شيء لا شيء ! » .. فضحك قائلا : « أحسبك كنت فى اغفاءة ! » .. فنهضت من مجلسها وهى تقول : « بل كدت أنام .. ان شئت الحق ! »

ثم وقفت تتحسس قبعتها وشعرها . ومضت – فى حركة خفيفة بارعة – تسوى من وضع الجزء الأسفل لثوبها ، وقالت : « دعنى أخرج الى الهواء ! » ، فتنحى نيجل عن الباب . وخطت خارجة الى الشرفة ، حيث كان بارودى متكئا على السياج وهو يتأمل النيل الذى انعكست عليه أشعة الشمس الساطعة .. واستدار – فى بطء شديد وهدوء بالغ – ليستقبلها ، وفى حركاته تلك الرشاقة الرصينة المألوفة فى الرجل القوى الخفيف الحركة . ثم سحب مقعدا من مقاعد الخيزران ذات المسندين ، وراح يسوى لمجلسها وسادة صغيرة ، فى أدب جم يشوبه تراخ يقرب من عدم الاكتراث ، ثم قال – بينما كانت تستوى جالسة : « هل اعجبتك دارى الشرقية الصميمة ؟ » ، فأجابته متسائلة : « كيف تدير النافورة » . فبدأ ينطلق فى وصف فنى واضح ، ولكنه ما كاد ينطق بكلمات قليلة حتى قاطعته قائلة : « أرجوك ، لا تفعل ! فسوف تفسد بذلك الأثر الذى احدثته النافورة فى نفسى ، وما كان ينبغى لى ان اسألك ! » . وهنا قطع عليها نيجل الحديث قائلا : « ان بارودى رجل عملى جدا .. وشد ما أود لو انه كان مشرفا على زراعتى فى الفيوم ! » .. فأجاب بارودى : « يسرنى ان أقدم لك أية نصيحة تريدها ، فاني

أعرف كل ما يتصل بالزراعة فى بلدى »

واسندت مسز ارماين ظهرها الى المقعد ، وراحت تتطلع الى النهر العريض ، حيث كان عـدد من المراكب الشـعبية يزحف نحو الجنوب ناشرا قلوعه ، والى أعمدة معبد الاقصر العظيم ، وهى تستوى قائمة فى تشامخ على الضفة الشرقية ، والى تلك السحابة التى كانت تؤلفها فروع النخيل الممتدة صوب الشمال وراء القرية ، والى تلك المياه التى لا تبلغ العين مداها ، والى هذه التلال الجرداء الشديدة الانحدار التى تحمى صحراء ليبيا .. كانت تنظر الى هذه المناظر الطبيعية جميعا بعينين تبدوان جديدتين !

ـ تحدث الى زوجى عن الزراعة يا محمود بارودى .. ولينس كلاكما اننى هنا !

ـ ولكن ...

ـ دعنا من المجاملات ، فهذه هى الزيارة الاولى التى اقوم بها لاحدى « الدهبيات » ، كما ان نيلكم يجعلنى أستغرق فى الأحلام .. ولو ان الملاحين كانوا يغنون الآن ...

فهتف بارودى : « سيغنون فى الحال ! » . ثم ارتقى بعض الدرجات ، وتطلع الى السطح العلوى ، وهتف بـكلمات غير مفهومة ، فانبعث للتو ايقاع « الدربكة » ، وتلاه صـوت آخر يصيح منشدا : « الله » .. واذ ذاك قالت : « والآن .. تكلما عن الزراعة ! » .. فتحول بارودى الى نيجل ، وبدأ يتحدث اليه فى صوت خفيض ، بينما جلست مسز ارماين بلا حراك ، لا تنى عن تأمل النيل ، ولا عن الاصغاء الى غناء الملاحين . واحضرت معدات الشاى ، ومع ذلك فقد ظلت مسز ارماين فى استغراقها الـكامل اللذيذ ، وعلى شـفتيها ابتسامة لا تذوب . وقالت : « استمرا فى حديثكما ، فانكما لا تدركان مبلغ سعادتى ! » ، ثم التفتت الى زوجها واردفت : « اننى أشرب ماء النيل اليوم ! » . فبدت فى وجهه لمحة

قوية من السرور حركت حاسة السخرية فى أعماقها !.. ولم يقل لها شيئا ، ولكنه بعد لحظة وجيزة عاود حديثه مع بارودى فى حمية ونشاط ، وفى حرارة امدته بها عن عمد ، خبثا منها ـ من ناحية ـ ورغبة فى ان تهيىء لنفسها أطول فترة من الهدوء ، من ناحية أخرى .. اذ كانت ـ كما قالت حقا ـ تشرب ماء النيل ، وتود لو جرعت منه المزيد ، تعبه عبا !

كان النهر أشبه بالحلم ، فيما تراه .. وكانت المراكب العظيمة ـ بقلوعها المثلثة والجماعات الرصينة من رجالها السمر الصامتين ـ تزحف على سطح النهر دون ما جلبة او ضوضاء ، اشبه بالمراكب التى تمر فى الحلم ، لا يسمع لها صوت !.. وعلى جوانب « اللولية » كانت تسمع مياه النيل تهمس فى رفق .. تهمس اليها وحدها بلا شك ولا ريب ! بينما كانت تختلط بغناء الملاحين النوبيين المرتفع ، الأخن ، تلك الأغنيات الضارية الحزينة التى كانت ترتفع من الشاطىء القريب .. من عقائر الفلاحين الذين كانوا يديرون الشواديف .. يالله ! كم فى هذا العالم من أنواع الحياة وألوانها !

* * *

• كانت اللطمة التى أصابت مسز ارماين قد جعلتها فى حالة غير عادية من الامعان فى التفكير ، ومن التامل والتنقيب فى أعماق نفسها ومشاعرها ، ومن الحساسية البالغة لكل المؤثرات الخارجية .. كانت قد خلفتها تهتز فى رعدة كأوتار الآلة الموسيقية اذا هوت عليها ـ فى قوة ـ يد قاسية لا تلين !.. وكانت عاصفة الغضب التى زعزعت كيانها قد حركت مشاعرها نحو حياة ضارية مليئة بالعنف ، واثارت كل قوى الطاقة الخفية فى طباعها وارادتها ، وايقظت كل ما فيها من نهم الى ان تستخلص من الحياة خير ما فيها ، وأن تعتصر الرحيق الذهبى من

كل واحـدة من سنى حيـاتها الزائلة ، حتى الجفاف !...
« اعمل لدنياك كأنك تموت غدا » !.. ان الذين يؤمنون بهذه الحكمة ـ كما تؤمن هى ـ يرغبون فى الاستمتاع بالعيش فى الحياة الدنيا ، الى درجة لا تتسنى لأولئك الذين يؤمنون بامتداد حياتهم الى عالم آخر .. وما شعرت قط من قبل بتلك الرغبة النهمة كما كانت تشعر بها اليوم .. كانت تشعر بها وهى مستغرقة فى أحلام التفكير ، كما يحس صريع الألم الحاد بذلك الألم ، دون أن يتعذب بفضل تأثير حقنة من «المورفين» !.. واذا لم يكن فى وسعها ان تحصل على الحياة التى كانت ترجوها من وراء الانتصار فى انجلترا ، فلابد لها من أن تنال ـ بدلا عنها ـ حياة اخرى توافق ميولها **الخاصة .. حياة أخرى تستجيب فيها الى ذلك النداء المنبعث من أعماقها نحو اشباع ميولها المادية ، ونحو المباهج الجسدية القوية ، ونحو اللذات التى يسعى وراءها الوثنى الكافر ، عندما يعتزم أن يستخلص أكثر ما يستطيع خلال الفترة القصيرة التى تستغرقها الحياة البشرية على الأرض !**

ولكن كيف تحصل على هذه الحياة الأخرى مع نيجل؟.. انه لن يصبح لورد هارويتش قط .. لن يصبح قط شيئا آخر سوى نيجل أرماين ، رجل محدود الموارد ، يهتم بشئون الزراعة المصرية ، ويمتلك ارضا يسىء استغلالها فى انجلترا ، ورقعة من الصحراء فى الفيوم ! انه لن يصبح قط شيئا غير ذلك ، وغير انه زوجها .. الرجل الذى «غرر بها»! ومن عجب أن عقلها لم يضف الى هـذه القائمة الضئيلة : والرجل الذى أحبها !

وظلت مدة طويلة جالسة بلا حراك ، تسند رأسها الى الوسادة ، وتستمع الى أصوات الغناء والصياح وهمسات الماء السرمدية على جوانب « اللولية » ، وتتأمل النيل المتألق ، والمراكب التى تزحف فوقه متجهة صوب الجنـــوب ..

واستيقظت فى أعماقها ـ للمرة الأولى ـ الرغبة فى أن تتبع هذه المراكب مصعدة فى النهر ، وأن تبحر هى الأخرى الى الجنـــوب الذهبى .. وبدلا من ذلك الحنين الى انجلترا والسيطرة عليها ، نشأت تلك الرغبة فى أن تقصى انجلترا عن حياتها ، وان تركلها بقدمها فى ازدراء ، وأن تكف عن الاهتمام بها الى الأبد .. وما دامت لن تستطيع السيطرة على انجلترا البتة ، فانها غدت تشعر بمقت بالغ لانجلترا !

ـ فى الصيف ؟ اننى أقضى الصيف فى انجلترا دائما !

وفطنت الى نيجل وهو ينطق بهذه العبارة فى مرح . واذ ذاك بدأت تنتبه الى حديثه مع بارودى ، ولكنها ظلت تنظر الى النيل ، دون أن تغير من وضـعها .. كانا يتكلمان عن الزراعة حقا ، فىاستغراق ظاهر .. ومضى نيجل يشرح تفصيلات جهوده فى الفيوم ، ثم راحا يتناقشان عن محاريث الرمال ، وهو وان كان موضوعا مملا ، الا أنهما تناولاه فى حرارة ، وكأنهما وجدا فيه طلاوة غريبة .. حتى « بارودى » كان يبدى اهتماما عميقا بمحاريث الرمال !.. وهنا نسيت مسز ارماين النيل وانصرفت عنه الى حديثهما .. ولم تكن تهتم بمحاريث الرمال على الاطلاق ، ولكنها كانت شـديدة الاهتمام بهذا الجانب الآخر فى « بارودى » .. الجانب العملى، الذى أخذ الآن يتكشف امامها فى جلاء . وسرعان ما تبينت أنه كان فى جميع التفصيلات الخاصة بالأرض وزراعتها ومبلغ الربح الذى يمكن أن تنتجه وتغله ومدى احتمالات الربحالذى يمكن استخلاصه منها فى المستقبل البعيد .. كان فى كل هذه الموضوعات أستاذا خبيرا ، وكان نيجل يتحدث اليه ويصغى له ، كما يتحدث التلميذ الى أستاذه ويصغى له ! **وكان الجانب الجشع فى مسز ارماين عمليا الى أبعد الحدود ـ كما استطاع ماير ايزاكسون أن يتبينه** ـ ومن **ثم كانت أهلا لأن تقدر الجانب العملى من « بارودى » حق التقدير** ، وشعرت بأن

أمامها رجلا يعرف تماما كيف وأين يطرق الجداول التى يجرى ماؤها ذهبا ! .. وكما يستهوى الحب الشاعرى كثيرا من النساء ، فان تلك المقدرة الهائلة على كسب المال كانت تستهويها وتسحرها وتتمشى مع طباعها ، أو مع شطر عظيم منها .. كانت هذه المقدرة فى بارودى قد خلبت لبها ، ولكنها غدت الآن أكثر افتتانا بها ، بعد أن رأت الطريقة البارعة الماكرة التى كان يستغل بها هذه المقدرة وذلك الاستعداد الغريزى .. فقد كان بارودى يستثير فى نيجل ، عن عمد وتدبير ، مطامعه المتصلة بالعمل ، ويستحثه على بذل الهمة والنشاط ، ويوقظ فيه — ازاء مجرد التفكير فى حياة الدعة والراحة التى كان يحياها — شعورا كذلك الخزى الذى يشعر به الرجال المتعطلون عن العمل ، كان بارودى يفعل ذلك كله عن عمد وتدبير ، ولكن بطريقة ظاهرها عدم الاكتراث وقلة المبالاة .. طريقة خداعة ماكرة .. كان يفعل ذلك عن طريق الحديث عن نفسه ، وعن نشاطه الشخصى ، وعن نجاحه ، لا فى خيلاء أو غرور ، بل فى بساطة بالغة ، وفى سياق حديثه عن خطط نيجل ورغباته !

لماذا كان يفعل ذلك ؟ هل كان يريد أن يبعث بنيجل ليقضى أيام الشتاء فى الفيوم ؟ وهل كان يعلم أن نيجل يعتزم أن « يهيىء شيئا صالحا » لسكناها معه فى الفيوم ؟ .. وشرعت تتساءل ، وهى تمعن فى التفكير العميق : لماذا كان بارودى يستثير حماس نيجل نحو العمل ؟

.. كان يبدو أن الرجلين فى تلك اللحظة قد نسيا تماما وجودها معهما .. نسيا أن فى العالم «ظاهرة» تسمى المرأة ! .. وكانت تحس بذلك الاحساس اللذيذ الذى يستشعره من يسترق السمع خلال ثقب المفتاح ، وهو بمأمن من المفاجأة ! .. كانت تشتهى عادة أن تسترعى أنظار كل رجل يكون على مقربة منها .. ولكنها تود اليوم لو استطال الحديث بين

زوجها وبارودى الى ما لا نهاية ، فقد بدأ يتسلل اليها شعور غريب من الدعة ، والهدوء .. شعور أشبه بالترياق ، بعد ذلك الانفعال ، والغضب المرير الذى قلب كيانها وأثار حفيظتها . وخيل اليها وكأنما استقرت فوقها – فى تلك اللحظة من الراحة القصوى والاستغراق ، التى قضتها فى ظلام الحجرة بالقرب من النافورة – يد منوم مغناطيسى ، فلم ترفع عنها بعد .. على أن الواقع أنها كانت قد وقعت أسيرة سحر « الدهبية » ، وان لم تدر ذلك .. فان الدهبية موطن الأحلام والشعور بالراحة الجسمانية العميقة الهادئة ! ..

وكانت مسز ارماين امرأة شديدة الحساسية ، مرهفة الشعور والاستجابة لكل مؤثرات الحواس ، ومن ثم فانها راحت – بينما كان زوجها يتحدث فى حرارة وحماس عن حياة العمل والنشاط – تتلقى من النيل هبته العجيبة : الخمول والجمود البدنى ! فلم يتحرك جسمها قط ، بل أنها لم تشعر بالرغبة فى التحرك من المقعد العميق الملىء بالوسائد .. كانت أشبه بجسم أنهكه المورفين ! على أن عقلها كان يقظا متحفزا ، يقارن بين مقدرتى هذين الرجلين وكفاءتيهما ، ويبحث دائما – فى الوقت ذاته – عن جواب لتساؤلها : « لماذا كان بارودى يفعل ذلك ؟ »

وأخيرا سمعت نيجل يهتف قائلا : « مهما يكن من أمر فان فى نيتى أن أرحل بقطار الليل غدا . وأنت .. متى تعتزم الرحيل الى الجنوب ؟ » .. فأجاب بارودى : « ان لدى لنشا يقطر الدهبية ، وسأرحل الليلة » ، فتساءل نيجل : « الى ارمنت ؟ » . وكان جواب بارودى : « الى أرمنت لبضعة أيام ، ثم أستمر فى رحلتى نحو الجنوب ، فان لدى بعض الأعمال فى (كوم امبو) .. وسوف أتغيب بعض الوقت ، ثم أعود بعد ذلك الى أسيوط ، اذ لم يعد لى أى عمل هنا »

– وهل لك مصالح فى أسيوط أيضا ؟

ــ آه ، نعم . ان لدى فى أسيوط الكثير منها ، كما أن لدى بعضا منها على مقربة من هنا .. الى الجنوب قليلا ، على الضفة الغربية

فتساءل نيجل : « أهى أراض ؟ » .. فأجاب بارودى : « ان لى بعض بساتين البرتقال هناك » .. واذ ذاك صاح نيجل : « شدما أعجب كيف تستطيع أن تشرف على ذلك كله : السكر والقطن والمحاجر والعقارات والمصانع ؟ لعمرى أن ذلك يدير رأس المرء !.. وهل تشرف على كل شىء بنفسك ؟ » .. وكان جواب الرجل : « عندما تغفل عين السيد عن النظر ، فان بصر الخادم يتحول بعيدا .. الم تدرك ذلك فى الفيوم ؟ » .. فرد نيجل قائلا : « هذا ما سوف أدركه بعد يومين أو ثلاثة!»

والتفت نيجل فجأة نحو زوجتـــه ، فقالت فى بطء : « اننى أسمعكما .. لقد نسيتما كل شىء عن وجودى ، ولكنى كنت أصغى اليكما » . وتحركت فى مقعدها ، وجلســـت منتصبة الظهر ، وهى تضع كلتا يديها على مسندى المقعـد فوق الوسائد ، ثم أردفت : « وكنت أتلقى درسا » . فهتف زوجها : « درسا ياروبى ؟ » .. فكان جوابها : « أجل .. درسا فى التواضع ! »

وحاول كل من الرجلين أن يحملها على أن تفسر ماكانت تعنيه بجلاء ، فأبت أن تشبع فضولهما .. وكان كل ما قالته : « ان لديكما من العقل ما يكفى للحدس والتخمين ! ينبغى أن نذهب يا نيجل . انظر ! ان الشمس موشكة على المغيب ، وعما قريب يتحول النهر الى مجرى من الذهب » .. ورمقت بارودى ، وهى تنطق بالكلمة الأخيرة وتتلكأ فى لفظها كما لو كانت الكلمة حبيبة الى نفسها ، فقال : « هلا انتظرت حتى تشــاهدى الغروب من هنا يا سيدتى ؟ »

ــ اننى واثقة أن لديك الكثير من العمل ، فقد كنت مصغية الى بعض الحديث ، وعلمت أنك من رجال الأعمال ، ولا يتسع

وقتك لمثل هذا الهراء الاجتماعى الذى يشغل أفكار النساء .. بل اننى أكاد أشعر بالذنب الذى أتيناه اذ ضيعنا هذه الساعة من وقتك !

وخيل الى نيجل أن فى صوتها نبرة خفيفة تنم عن ألم عميق . أما بارودى فقد أجاب ببعض ما يقتضيه المقام ، فى أدب جم ، وبطريقته العجيبة المنطوية على عدم اكتراث وعلى هدوء .. ولكنه لم يلح عليهما ثانية فى البقاء ، فأيقن نيجل أن لديه الكثير مما كان يبغى عمله .. ولعله كان يود التفرغ لاعداد تدابير سفره فى تلك الليلة ، **فهو ــ على وجه التحقيق ــ ليس بالرجل الذى يهتم بالنساء أو تهتم له النساء ، وانما هو رجل أعمال حاذق مكافح ، يحب الكد والنشاط فى الحياة ، ويعرف كيف يعامل الناس !**

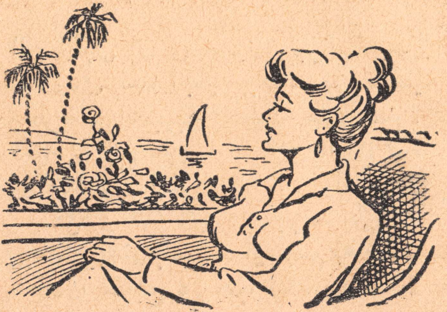
ووقف بارودى يودعهما على السطح الأسفل المخصص للبحارة . وبينما كانت مسز ارماين تهم بالانتقال الى « الفلوكة » التى كانت تنتظرهما ، حولت رأسها وراحت تحدق فى الكتابة العربية الغريبة المموهة بالذهب ، والمنقوشة فوق الباب الذى كانت ــ اذ ذاك ــ تجتازه للمرة الثانية ، وكأنما كان يستحثها الى ذلك دافع لا قبل لها برده ومقاومته:

« وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه »

وكان بارودي يتابع أنظارها ، فتلاعبت على شفتيه الغليظتين ابتسامة باهتة سرعان ما غاضت عنهما تاركة وراءها رصانة جامدة ..

وفى تلك الليلة ، بينما كان القمر يستهل طلعته فوق الأفق ، مرت الدهبية أمام حديقة « فيلا اندرود » ، تختال بأنوارها الكثيرة .. وما لبثت أن اختفت بين أطواء الليل ، فى طريقها الى الجنوب ! .. وفى المساء التالى رحل نيجل ــ بالقطار السريع المتجه الى القاهرة ــ فى طريقه الى الفيوم

الفصل السادس عشر



◆ غابت « اللولية » عن رقعة النهر التى كانت تحتويها العين من حديقة « فيللا اندرود » ، وغاب نيجل عن المنزل الذى تحيط به تلك الحديقة ، فامتدت أمام مسز ارماين أيام ذهبية من الوحدة المطلقة ، والفراغ الشامل . واذ فطنت الى هذه الحقيقة ، ووضعتها بين غيرها من الحقائق فى لغز حياتها المحير ، جعلت تتطلع الى هذا الفراغ وتسائل نفسها عما تفعله فيه !.. وكانت قد أقبلت على حجرة الجلوس ، فى ثوب ومعطف خفيفين يصلحان للركوب . وللسير على الأقدام ، وللجلوس بين الآثار والخرائب ، ولفلاحة البساتين ، ولكل ما يحتاج لخفة الحركة من الشواغل الأخرى .. ومع ذلك فان فكرها لم يكن قد استقر على خطة معينة . كل ما فى الامر أنها كانت يومئذ فى حرية مطلقة ، فاذا خطرت لها أية رغبة فى عمل ، فلن يكون ثمة ما يحول دون اتيانها اياه ! والى أن يحدث ذلك .. الى أن تخطر لها رغبة معينة ، فقد اكتفت بالجلوس فى الشرفة وراحت تجيل بصرها فى أرجاء الحديقة ..

وكانت ـ من حيث جلست ـ لا ترى فى الحديقة أحدا .. كان البستانى المصرى منصرفا الى عمله ، أو الى راحته ، فى مكان متوار ، وكانت الحديقة بأسرها مخلدة الى السكون والهدوء . وكان اليوم ذهبيا ، صافيا ، وضاءا الى درجة لا يكاد يصدقها العقل .. يوما ينبض بالحياة ، والنور ، والنشوة الدافقة . فقد كانت تنعم بالحرية فى عالم غريب من الذهب .. تلك هى أولى الحقائق التى احست بها احساسا قويا . كان نيجل اذ ذاك فى القاهرة ، ولن يلبث أن يكون ـ فى المساء ـ فى الفيوم ، تلك الأسطورة التى طالما سمعت

عنها الكثير ، حتى أصبحت بالنسبة لها رمزا معنويا : فى الفيوم يشدو الناى المصرى بجوار المياه ٠٠ فى الفيوم ، تسكن الطبيعة الثائرة - وكأنها فى احضان صدر فسيح حنون - وقد تحررت من أغلال الحضارة !٠٠ وفى الفيوم سوف يبدأ نيجل غدا فى اعداد معدات استقبالها وايوائها ، تلك المعدات الحارة المتلهفة الى اخذها « الى أحضان الطبيعة مباشرة » ، كما قال لها ذات مرة !

وعندما بلغ تفكيرها هذا الحد ، تحسست وجنتيها اللتين زادتهما المساحيق بياضا ، بأناملها ذات الأظافر المصقولة فى عناية ، وراحت تعجب من الحظوظ والمقادير فى الحياة البشرية ! أى جنى ذلك الذى يمسك بها من يدها ، ليقودها الى خيمة فى الفيوم ، كى تعيش فيها مع رجل ملء بتلك الروح المتحمسة للأخلاق الى حد يكاد يكون صوفيا !٠٠ انها ، على وجه التحقيق ، سوف تكون أكثر راحة وشعورا بأنها فى مكانها الطبيعى ، اذا ما استلقت على فراش من الحرير المطرز ، وحولها أكداس من الوسائد اللينة ، وقد أفعمت خياشيمها بعبق ذلك العطر الشرقى القوى ، وامتلأت أذناها بهمسات المياه المتراقصة ، واتصل عقلها ، أو روحها ، أو نفسها ، أو كيفما كان اسم ذلك الشيء ، بشيء آخر - لم تكن تدرك كنهه - به نيران متأججة لا تضيئه ولا تدفئه ٠٠ ولعلها كانت تلفحها بشواظها ، ولكنها لم تكن تستطيع أن تطهرها البتة !

يا له من يوم ذهبى رائع ! انها لتحس هذا الصباح بالتأثير الجميل لهذا الجو الساحر ، على نحو أكثر عمقا مما أحست به قط من قبل ٠٠ فلم كان ذلك ؟ ألأن نيجل كان غائبا ، أم لسبب آخر ؟٠٠ وعلى الرغم من انها القت على نفسها هذا السؤال ، فانها لم تحاول الاجابة عليه !٠٠ كان الجو يضفى عليها خدرا لذيذا من قلة الاكتراث ٠٠ كان يغدق عليها تلك السكينة الذهبية المنبعثة من كلمة « معلهش » !٠٠ ولقد كانت وهى تهصر الوسائد الحريرية بأصابعها فى دار بارودى الشرقية ، تحس بشيء ما فى أعماقها يهتف بها : « ينبغى أن أعتصر كل قطرة من الرحيق الذهبى فى كل واحدة من سنى حياتى الآفلة » !٠٠ وفى ذلك اليوم كانت تحس بأن هناك بعض قطرات من ذلك الرحيق الذهبى ٠٠ بعض قطرات يجب أن تعتصرها ، وتود شفتاها الظامئتان أن ترشفاها ٠ فان الأعوام تمضى واحدا بعد الآخر ، وسوف يأتى ذلك اليوم الاسود الابدى ! ومن ثم فلا بد لها من أن توجه عنايتها كلها نحو المتع التى يمكن أن تنالها فى الفترة القصيرة التى بقيت أمامها للاستمتاع ٠٠ الفترة القصيرة ؟! نعم ، فقد كانت امرأة ٠٠ وفوق الأربعين !

خيمة فى الفيوم مع نيجل ! لا أحد غير نيجل ! أيام تلو أيام فى عزلة مع نيجل ! مع الرجل الذى « غرر بها » ! بينما الحياة تمضى عنها ، لا فى خطى متسللة ، وانما فى اندفاع صاخب ، وجلبة جوفاء !

لقد فكرت فى ذلك ، وواجهته ·· وقد استنكرته روحها كمصير مزر لا يليق بها ، ومع ذلك فانها لم تشعر - فى أعماق نفسها - بقلق ، ولم تتزعزع ·· كانت كمياه البحر ، فى اعماقها هدوء وسكينة على الرغم من اضطراب سطحها ! ·· هذا الطقس لن يعترضه شىء أو يعارضه ، وهذا المناخ لن يكف عن السير فى طريقه ، وهذا المزيج من الزرقة ، والذهب ، والدفء ، والشعور بالحرية الكاملة ، لا يمكن أن تقهره الأفكار السوداء أو الخوف ·· وقد خيل اليها لحظة أنها تناضل حتى تشعر بالغضب ، أو تحس بالشقاء ·· ولكن خيل اليها بالمثل ان هذا النضال كان عبثا عقيما !·· لقد كانت حرة تماما فى هذا العالم من الذهب ، فماذا عساها فاعلة بهذه الحرية ؟!

وعندئذ بلغ مسامعها - فى ذلك السكون الذهبى للحديقة - حفيف ثوب ، فالتفتت حولها ، ورأت ابراهيم يتقدم نحوها متمهلا ، مبتسما ، وقد مال رأسه ذو الشعر المجعد الى الناحية اليسرى قليلا ·· وكان يضع وردة خلف كل من أذنيه ، ويمسك بأخرى فى يده ، مع سيجارة غير مشتعلة · فقالت مسز ارماين فى تراخ : « ما الذى ترانا فاعلين فى يومنا يا ابراهيم ؟ » ·· فدنا منها حتى وقف بجانبها ، وهو يغض ببصره الى الارض على طريقته الرقيقة التى تفرد بها ، ثم قال بصوته العميق الخافت : « سوف نذهب الى الضفة الاخرى للنهر يا سيدتى » ، فهتفت : « أحقا ؟! » · فاستطرد قائلا : « وسنأخذ غداءنا معنا ·· سوف نقضى اليوم كله خارج المنزل ! » ·· واذ ذاك قالت : « آه ! وماذا نفعل بالشاى ؟ » · فكان جوابه : « لسوف نأخذه معنا فى تلك الزجاجة التى تبدو كأنما صنعت من الفضة الخالصة ! » ·· فغمغمت تقول : « الفضة ! والذهب ! »

وأخذت تتطلع الى الفضاء المتألق ، حيث كانت (طيبة) ترقد فى مهدها بين ذراعى اله الشمس ·· ثم قالت : « ومتى نذهب يا ابراهيم ؟ » · فنظر اليها ، ثم انفرجت شفتاه الرقيقتان الشاحبتان السمراوان ، فكشفتا عن أسنانه البراقة ·· وأجاب : « عندما تستعدين للذهاب يا سيدتى »

ورفعت عينيها تتطلع الى وجهه ·· كان ابراهيم فى العشرين من عمره ، ولكنه لم يكن أكثر من غلام على الرغم من طوله الفارع ومن كفاءته وخبرته كترجمان مدرب !·· كان كل شىء فيه يوحى بالغلام أكثر مما يوحى بالشاب ، وكان جسمه الفارع النحيل اللدن ، وعنقه الأسمر الطويل ، ورأسه الصغير - يعلوه ذلك الشعر الأسود الكثيف التجاعيد - وتعبيرات عينيه الدائمتى الابتسام ، وحتى حركاته الوئيدة الرصينة ، وأوضاعه الحالمة ، ومشيته المتخطرة وطريقته فى الجلوس والقيام ·· كلها كانت توحى ، أو تبدو كأنها توحى - للمحيطين به - بأنه فى الحقيقة لم يكن الا غلاما !·· وكان ثمة شىء شديد الجاذبية فى

يفاعته الواضحة ·· شيء يوحى على نحو ما بالثقة والطمانينة · وقالت مسز ارماين فى بطء ، وهى لا تنى عن النظر الى ابراهيم : « أرانى مستعدة الآن ! » ·· ثم استطردت قائلة : « هل هناك فلوكة لتعبر بنا النهر ؟ »

ـ بعد أربع دقائق أو خمس يا سيدتى

ـ نادنى من هنا عندما يتم اعدادها ·· وانى أدع لك عمل كل الترتيبات الخاصة بالغداء والشاى

ـ كل ما تريدينه يجب أن تناليه يا سيدتى !

أكانت هذه عبارة تقليدية يقولها ابراهيم دائما ؟ لقد بدا اليوم كما لو كان ينطق بهذه الكلمات عن يقين واقتناع غير عاديين ، وكأن لها معنى خفيا غريبا ، فالى أى حد كان هذا الفتى « غلاما » حقا ؟·· وأخذت تعجب من أمره وهى ترقى الدرج الى الطابق العلوى !

لقد قال لها نيجل : « انك تزدهرين هنا » ، وقال لها : « أنت جميلة ولكنك لا تثقين بجمالك » ، ولعل ذلك كان حقا ·· وهى ستكون اليوم وحيدة تماما مع ابراهيم والمصريين ·· ستكون فى حرية تامة كاملة !·· لقد كانت تقلب هذه الأفكار فى بالها ، وهى جالسة فى الشرفة ، واذا بفكرة مباغتة توحى اليها بأن تشغل نفسها ـ فى الفترة التى تنقضى قبل حضور « الفلوكة » ـ بازالة الطلاء عن وجهها ، ومن ثم صعدت الى مخدعها · وما لبث ابراهيم أن صاح ـ بعد حوالى عشر دقائق ـ من الشرفة السفلى : « ان الفلوكة على استعداد يا سيدتى » ·· ثم دار حول المنزل ووقف تحت شرفة مخدعها يصيح بالعبارة نفسها ، فاجابته : « سأنزل بعد لحظة » ·· ولكن عشر دقائق اخرى انقضت قبل أن تظهر فى الحديقة ، وقد أمسكت بيدها مذبة (منشة) من العاج ، وغطت وجهها بخمار أبيض · وتساءلت : « هل أعددت كل شيء يا ابراهيم ؟» ·· فأجابها : « كل شيء ! »

★ ★ ★

◆ ومضيا الى الفلوكة ، فعبرت النهر بهما · وعند بقعة من الضفة الغربية غلبت على أرضها التربة الرملية ، كان حمزه ، المكارى التقى ، ينتظر فى هدوء وسكينة ، ومعه حماران كبيران جهزا بمعدات فاخرة · وخطت مسز ارماين من الفلوكة الى البر بمعاونة ابراهيم ، وسرعان ما انطلقت الفلوكة عائدة من حيث أتت ـ عبر النيل ـ وملاحوها يغنون بأصوات عميقة حزينة ، وهم يشقون النهر بمجاديفهم الضخمة ، حتى تلاشت اصواتهم · وكانت مسز ارماين قد مكثت واقفة عند حافة النهر تنصت الى غنائهم وهو يخفت شيئا فشيئا ، حتى اذا ما انتهى الى غمغمة رتيبة لا تكاد تستبين منها شيئا ، استدارت على عقبيها وهى

تتنهد، وقدانتابها شعورغريب بأن الحلقة الاخيرة التي كانت تربطها بالمدنية والحضارة قد انفصمت ، وأنها قد غدت بغتة في قبضتي مصر الجافتين الحارتين ! فلما استدارت ، ألفت نفسها وجها لوجه مع حمزة ، الذى كان يقف أمامها جامدا كالتمثال ، وقد استقرت عيناه الكبيرتان - الشبيهتان بثمار اللوز - عليها ، دون أن تطرفا أو تبتسما !

« نهارك سعيد ! » . نطق حمزة بهذه التحية العربية - أخيرا - في رصانة ودعة ، فحيته مسز ارماين بالانجليزية ، وهى تسائل نفسها : لماذا أصبحت تحس فجأة ، في ذلك اليوم ، بأنها ترتمي في أحضان مصر الحارة ؟.. لماذا تحس - احساسا صادقا ، وللمرة الأولى - بما لهذه البلاد من سحر وادع ودود .. تحس به في الدفء الذى هفا بأعصابها ، وفي نعومة الرمل تحت قدميها ، وفي النسمة الرقيقة التى كانت تمر بها كالفراشة الطائرة ، وفي كلمات حمزة ، وفي وقفته ، وفي نظرته ، وفي صمته .. لماذا ؟.. أفكان هذا كله لأنها لم تعد مقيدة بصحبة نيجل ؟.. لقد أشار نيجل يوم وصولها الى حمزة وأراها اياه مع معالم الاقصر .. ولقد رأته بعد ذلك عرضا بين الحين والآخر ، ولكنها لم تنظر اليه قط من قبل في امعان ، بعيني المرأة التى تنظر وتتأمل وتقدر ! كان حمزة من طراز يختلف كل الاختلاف عن ابراهيم . كان نحيلا بالغ النحول يكاد يكون هشا ، لين العظام ، رقيق اليدين والقدمين ، ضيق الكتفين ، صغير الرأس ، ذا وجه كأنه وجه تمثال جميل من البرونز ، رصين ، جامد ، غامض ، يكاد لايشبه وجوه البشر في هدوئه الشامل ، وترقبه وتيقظه ! وجه يخيل اليك أنه خليق بأن يأخذ كل شيء ولا يعطى شيئا البتة !.. واذ كانت مسز أرماين تنظر اليه ، ذكرت الصفة الذى لصقت به والتى كانت تميزه عن سائر أهالي الاقصر : لقد كان « المكارى المصلى » .. سائق الحمير الورع !

ثم لماذا استخدمه ابراهيم في رحلتهما اليوم ؟ انها لم تلحقه بخدمتها من قبل !.. وفي صوت خافت ، ألقت على ابراهيم هذا السؤال ، فأجاب : « انه مكارى بارع جدا ، ولكن سيدى أرمينيجل لايحب استخدامه ! » .. فعجبت مسز أرماين من السبب في ذلك ، ولكنها لم تسأل شيئا آخر .. فقد كانت في يومها ذاك تشعر بأنها في قبضتي مصر ، وان ابراهيم وحمزة جزء من مصر ، وان عليها أن تتخذ لنفسها موقفا سلبيا اذا شاءت أن تستمتع بيومها الى أقصى مدى !.. وخيل اليها أن شيئا ما في قرارة نفسها ينبئها بأن ابراهيم - في كل مايفعله - انما كان مسوقا نحو هدف معين !

وساعدها الفتى على امتطاء الحمار . وكانت على الدابة الأخرى التى سيمتطيها سلتان كبيرتان معلقتان على جانبيها . أما حمزة - ذلك الفتى الرقيق اللين ، والذى كان جسمه مع ذلك في قوة الدرع ومرونتها - فقد كان عليه

أن يجرى بجانبهما ، الى الابد ، اذا ما دعا الامر٠٠ حافى القدمين !٠٠وتساءلت مسز ارماين : « الى أين نحن ذاهبون ياابراهيم ؟ » ، فأجاب : « سننطلق فى هذا الطريق ياسيدتى » ٠٠ وأطلق من حلقه صوتا عاليــا ، لاهثا ، أشبه بالتنهد : « حا ! » ، فاندفع حماره الى الامام للتو ، تتبعه الدابة التي امتطتها مسز أرماين ، وقد خلفا النهر العريض وراءهما ووليا وجهيهما شطر جبال ليبيا الجرداء ٠ وكان ابراهيم يسير فى المقدمة دائما ، يقود الركب ، وقد دفع طربوشه الى مؤخرة رأسه المجعد الشعر ، بينما مال الى الوراء فوق دابتـه ، وتباعدت ساقاه الطويلتان عن جانبيها ، وتهدل جورباه الى اسفل كاشفين عن بشرته السمراء الداكنة ٠ وشرع « يدندن » فى صوت خافت رتيب ، ويقطع غناءه بين الحين والحين بذلك التنهد اللاهث المرتفع الذى كان يستحث به حماره على السير ٠ وكان حمزة يجرى خلفه فى خفـة الى جانب مسز أرماين ، وقد ارتدى ثوبا أبيض ، ووضع على رأسه عمامة بيضاء ، وقبض بيـده اليمنى على قطعة طويلة من قصب السكر ٠٠ وظل ـ وهو يعدو ـ محتفظا بقامته المنتصبة، جامد الوجه لم تتبدل أساريره قط ، ولم تتحول نظراته عن جبال ليبيا التى استقرت عليها منذ البداية ٠٠

وكانت المحصولات النامية منبثة فوق الأراضى الشاسعة الممتدة بين النيل وأطلال (طيبة) ، فى خضرة يانعة ، فكأنها رقعة من الطلاء الصارخ على لوحة جميلة ٠ وهنا وهناك ، كانت الغـابات المصفرة من شجيرات الذرة تستوى ساكنة تحت أشعة الشمس الساطعة ، وكانت حقول قصب السـكر المتكاثفة مرتعا للهداهد المتوجة تحوم فوقها ، وللقنابر تصيح وهى ترفرف بأجنحتهـا الصغيرة وكأنما انتابتها نشـوة عصبية !٠٠ وعلى الرغم من أن الوقت كان شتاء ، وقد اقترب عيد ميلاد المسيح ، فان النسمات الرقيقة كانت تبدو كما لو كانت تهمس برسائل عذبة من الربيع الدافىء الدائم الابتسام فوق البلاد الشرقية !٠٠ كانت هذه دنيا من النشوة الفتية ، لا فى استغراق وتبلد ، وانما فى فيض من الطرب واللذة ٠٠ وكانت الاشياء كلهـا ـ النابضة بالحياة أو الجامدة ـ تصدح بأناشيد الحب ، فى غير جهد أو عنـاء ، اذ كان غناء يفيض من قرارة قلب لم يعرف الحزن اليه سبيلا قط !

« انك تزدهرين هنـا » ٠٠ لقد قال نيجل ذلك لمسز أرماين ، وقد راحت تفكر فى كلماته ، وتحس بأنها اليوم تطابق الحق تماما ! ترى الى أين هى ذاهبة؟ انها لاتبالى ٠٠ كل ماتعرفه أنها تمضى تحت هذه السماء الصداحة ، وتمشى فوق هذه الأرض الصداحة ، وتخترق هذا الضياء الذى تصدح به الشمس ، وفى هذا الكفاية كل الكفاية !٠٠ ونظرت الى حمزة مرة او اثنتين ، فلمـا لاحظت أنه لم يكن ينظر اليها البتة ، حاولت أن تتحدث اليه ، فأبدت ملاحظة عن الجو

بالانجليزية • واذ ذاك أدار رأسه نحوها ، وحدجها بأنظاره الجامدة ، ثم قال: « نعم » ، واشاح بوجهه ثانية • وألقت عليه سؤالا يتطلب الاجابة بكلمة « لا » ، ولكنه فى هذه المرة قال « نعم » ، دون أن ينظر اليها !•• كان يمضى فى عدوه كتمثال حى من البرونز ، فى خفة ونشاط وجلد ، نحو الجبال ذات الألوان الشبيهة بجلد النمر •• وفجأة ، بدا على حمزة شىء جعل مسز أرماين تتساءل : الى أين هم ذاهبون !•• لقد سبق لها أن شاهدت الاطلال والآثار القائمة على ضفة النيل الغربية ، وألفت مدينة (حابو) و (دير البحرى) و (القرنة) و (الرامسيوم) ومقابر الملوك والملكات • وقد نزلوا فى موضع يقع الى الجنوب من (طيبة) ، وبدا أنهم كانوا يتجهون نحو مدينة (حابو) •• وعندئذ سألت المكارى: « الى أين نحن ذاهبون ياحمزة ؟ » • فكان جوابه: « نعم ! »

وظل فى عدوه ، ممسكا بقطعة من قصب السكر ، وكأنه أحد حملة المشاعل فى موكب دينى !•• وتوقف ابراهيم عن الغناء ليتنهد ثانية ، ثم ضرب حماره برفق تحت أذنه اليمنى ، فجعله يعرج الى اليسار دفعة واحدة •• ورأت مسز ارماين معبد مدينة (حابو) العظيم على مبعدة منهم ، ولكن المعبد لم يكن الوجهة التى كانوا يقصدونها ، فقد خلفوه الى يمينهم ، وعاد ابراهيم يضرب حماره من جديد ، فمضت الجماعة سريعا نحو الجبال الليبية • وكانت الحرارة تزداد شدة كلما أمعن النهار فى سيره نحو الظهيرة ، ولكنها لم تبال بها ! بل أنها كانت - فى الواقع - تشتهى أن تزداد الحرارة شدة واستعارا !•• ورأت قطرات العرق تتفصد على وجه التمثال الحى الذى كان يجرى الى جوارها • وكف ابراهيم عن الغناء •• ترى هل ختم اقتراب « الزوال الذهبى » على شفتيه بخاتم من السحر ؟

•• وانطلقوا يسيرون •• ويسيرون •• ويمعنون فى السير !

★ ★ ★

• « هذا هو مكان الغداء ياسيدتى ! » • وكان ابراهيم قد جذب عنان حماره أخيرا ، وانحدر من فوق ظهره وهو يضم «جلابيته» (١) بيديه السمراوين، بينما انبعث من حمزة صوت يشبه الفحيح : « هس •• هس •• هس ! » ، فوقف حمار مسز أرماين دفعة واحدة ، وعندئذ وثبت من فوقه واستوت على قدميها • كانت ، أو أنها - بالأحرى - أحست كما لو كانت فى صميم أحشاء

---

(١) استعمل المؤلف هذه الالفاظ المصرية العامية كما ينطق بها المصريون

الجبال ! في مكان يتقد نارا ، بين الوهاد ذات الحواف البـــارزة الصفراء أو الصفراء المشوبة بالحمرة والسمرة ، وبين الصخور المكدسة التى بدت كانهـا السنة من اللهب غريبة الأشكال ، قد جمدتها ظاهرة قاسية خفية !٠٠ وكانت تشعر بحرارة الأرض تحت قدميها وهى تقف ساكنة تجيل بصرها حواليها ٠٠ كان الأثر الأول ، الذى ألم بها ، شعورا بالانفعال الشديد ٠٠ فقد أهاجها ذلك المكان الخاوى المقفر ، كما تهيج النفس جلبة عالية ، وحشية ، ضارية ! اذ كان منظره يوحى بالضوضاء !٠٠ وقد ظلت واقفة لحظة ٠٠ ومع أنها كانت -فى الواقع- تحدق فيما أمامها فقط ، الا أنها أحستكما لو انهاكانت تنصت ٠٠ تنصت الى الصلابة والقسوة ، والى الحرارة والوهج ، التى كانت كلهـا تصيح بها معا !

وأنزل حمزة السلتين ، بعد أن وضع « عصاه السحرية » - (عودالقصب) - فوق الارض المحرقة

« لماذا أحضرتمانى الى هنا ؟ » ٠٠ طاف هذا السؤال بخاطرها ، ولكن مسز أرماين لم تنطق به ولم توجهه الى أحد ما ، بل رفعت يديها فازاحت خمارها ، وتركت أشعة الشمس تنصب فوق وجههـا الخالى من المساحيق والدهانات ، ولكن ذلك لم يستمر أكثر من لحظة واحدة ٠٠ فقد أسدلت خمـارها ثانية ، وقالت لابراهيم : « عليـك أن تبحث لى عن رقعـة من الظل ياابراهيم » ٠٠ فهتف : « تعالى معى ياسيدتى » ٠ وشرع يرتقى الطريق الضيق ، الذى كان أشبه بشريط أصفر يتدلى من الشمس ٠ وتبعته مسز أرماين حول صخرةكبيرة كانت بارزة وكأنها وضعت لتسد الطريق ، ثم الى رقعة مسطحة أشبه برف كبير ، كان الجبل يميل فوقها ويحتضنها ٠٠ وكان الظل يمتد فوق تلك الرقعة طولا وعرضا، بينماكان الجدار الطبيعىخلفها مجوفابشكليوحىبالراحة والدعة!٠٠ فلما أشرفت مسز أرماين على تلك البقعة ورأت الظل المنتشر فوقهـا ، ندت عنهـا صيحة دهشة بالغة ٠٠ فقد استندت الى الصخرة كومة من الوسـائد الحريرية بينما نشرت فوق جزء من الهضبة الصغيرة سجادة ثمينة ٠ وكانت المفاجأة عند مرأى هذه الأشياء - التى توحى بالرغد والرفاهية ووجود الناس فى هذا المكان الحار الوحشى المقفر - خليقة بأن تثير فى نفسها قلقا يصل الى درجة الفزع ، فراحت تتلفت حولها فى حدة وهى تزيح خمـارها من جديد ، ولكنها لم تر حولها غير صخور لامعة صفراء وعنبرية وحمراء ، وغير خصلات وضاءة من الرمل تتخللها ، ووهاد كانت تبدو أشبه بجنادل متحجرة من النار ٠٠ وخيل اليها من جديد أنها تستمع الى الصلابة والحرارة والوهج وهى تصيح بها جميعا فى وقت معا !

« هذا هو مكان الغداء ياسيدتى » ٠٠ وكان ابراهيم ينظر الى الأرض حيث

نشرت السجادة الرائعة ، فتساءلت : « ولكن ٠٠ لمن كل هذه الأشياء ؟ » ٠ وكان جوابه : « لك بالطبع ! » ، فعادت تسأله : « هل وضعت هنا من أجلى ؟ » ، فأجاب : « بالتأكيد ! » ٠٠ وكان يبدو دائما كغلام لطيف وادع ، فراحت مسز أرماين تتفرس فيه لحظة لتستشف ما كان يخفيه ٠ ومالبثت ـ يحدوها حافز فجائى ـ ان مضت نحو حافة الصخرة العظيمة التى كانت تخفى حمزة والحمارين عنها ، وتطلعت نحو الطريق الضيق الذى قدمت منه ، فرأت حمزة ساجدا فوقه ، وقد وضع جبهته على الأرض ٠٠ ثم رأته يرفع رأسه وقد أغمض عينيه فى قوة ، وهو يتمتم ويتمتم بصلواته ٠ ثم رأته يسجد مرة أخرى ٠ ويضع رأسه على الأرض ، فارتدت مسز أرماين الى الوراء ٠٠ ولم تدر السبب فى ذلك تماما ، ولكنها احست للحظة بقشعريرة باردة تسرى فى جسمها تحت أشعة الشمس المحرقة ٠ وقالت لابراهيم الذى كان يقف فى هدوء بجانب السجادة : « ان حمزة يصلى ! »

ـ بالتأكيد ، فان حمزة يصلى اذا ماوقف ٠٠ ان حمزة مكارى صالح جدا !

ولم تلق مسز ارماين أسئلة أخرى ، بل جلست فوق السجادة واستندت الى الوسائد ، فأصبحت بمنجى من وهج الشمس الضارى ٠ وكانت تشرف فى يسر ـ وكأنها فى مقصورة بمسرح ـ على ذلك العرض الملتهب الذى كانت الطبيعة تؤديه أمام ناظريها ، بينما كان ابراهيم يروح ويغدو فى جلبابه القصبى ـ فوق الأرض الصفراء ـ وهو يحضر لها الطعام والماء ممزوجا بعصيرالليمون٠ وعندما أتم ترتيب كل شىء فى عناية وحذق ، قال : « هل من شىء آخر ياسيدتى ؟ » ٠٠ فهزت مسز ارماين رأسها وقالت : « كلا يا ابراهيم ، ان لدى كل ماأريده ٠٠ اننى فى راحة تامة هنا ! » ٠٠ فأردف قائلا : « ان كل ماتريدينه سوف تحصلين عليه اليوم ياسيدتى ! » ٠٠ ورمقها بنظرة ، ثم مضى مبتعدا حتى أخفته الصخرة عن أنظارها ٠ وخيل اليها أن تعبيرا غريبا ، مليئا بالمعانى ، وليس صبيانيا فى شىء ، قد أومض ـ ثم خبا ـ فى عينيه !

وتناولت قليلا من الطعام فى تمهل ، ثم رشفت الماء والليمون

ولم يرجع ابراهيم ، كما أنها لم تسمع صوته ولا صوت حمزة ٠ وكانت تعلم أن الفتيين المصريين قريبان منها ، خلف الصخرة ، ولكنها ـ مع ذلك ـ لم تكن تراهما أو تسمعهما ، فبدأت تشعر كما لو كانت وحدها تماما بين الجبال ٠ وجذبت احدى الوسائد المسندة الى الصخرة خلفها ، فوضعت يدها عليها وتركتها مستقرة فوقها ٠٠ وبدا الاحساس الذى أرسله لمس الحرير فى أناملها كما لو كان يحملها ثانية الى دار بارودى الشرقية !٠٠ وأتمت تناول طعامها ، ثم وضعت القدح الفارغ على السجادة ، وأغمضت عينيها واخذت تتحسس الوسائد ٠ وفيما كانت تتحسسها ، خيل اليها أنها ترى حمزة ثانية،

بوجهه الجميل الصارم ، وهو يصلى فوق الارض الصفراء

حمزة ، ابراهيم ، بارودى ! كانوا جميعا من ذوى الدم الشرقي ، وكانوا جميعا يعتنقون دينا واحدا ٠٠ ذلك الدين الذى انبثقت من أعماقه تلك الكلمات التى رأتها منقوشة على باب «اللولبية» : « وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه » !٠٠ كل انسان ؟ هل هو كل رجل ؟ وماذا عن طائر « الانسانة » ؟ ماذا عن القدر المكتوب على المرأة ؟!

وفتحت عينيها ، واذا بها ترى بارودى واقفا عن كثب منها ، وقد استند الى احدى الصخور ، وأخذ يرمقها بنظرات ثابتة !٠٠ وظلت لحظة لاتدرى أأذهلها مرآه وأفزعها أم لا ٠٠ فقد لاح أنهـا كانت تشعر بذاتين مختلفتين : الذات الواعية ، والذات الباطنة ٠٠ وكانت تدرك أنهما فى نضال حاد قوامه الاحاسيس! وبسبب هذا النضال ، لم يكن في وسعها أن تقرر – حتى بينها وبين نفسها – هذا أو ذاك : ان ذاتها الواعية لم تكن تتوقع البتة أن ترى بارودى هنا ، أما ذاتها الباطنة فمن المحقق أنها كانت تعلم حق العـلم أنه سوف يأتى الى هـذه البقعة الصفراء النارية القاسية ، لينفرد بها !٠٠ وألفت نفسها تقول : « شكرا جزيلا ٠٠ بشأن السجادة والوسائد »

وهكذا انتصرت ذاتها الباطنة !٠٠ كلا ، انها لم تذهل ولم تدهش لحضوره !

★ ★ ★

◆ وتحول بارودى عن الصخرة ، متقدما نحوها فى بطء – دون أن يفتر ثغره عن ابتسامة – فوق تلك الارض المتألقة التى بدت تحت وهج الشمس وكأنها ذات عقل واع !٠٠ وكان الرجل يرتدى بدلة من التيل الأبيض ، وحذاءين أبيضين ، ويضع الطربوش فوق رأسه ٠ وما لبث أن قال بالفرنسية : « أما وزوجك ليس معنا ، فلنتحدث بالفرنسية » ٠ فأجابت باللغة نفسها : « كما تشاء ! » ٠ولم تفكر فى أن تسأله عن سر ايثاره الحديث بالفرنسـية ، اذ كان ثمـة عدد من « لماذا » قد تجمع بينها وبين ذلك الرجل الذى كانت لا تكاد تعرفه ! ومضيا يتحدثان بالفرنسية ٠ وظل بارودى فى بادىء الأمر واقفا فى الشمس ، بينمـا كانت هى تتطلع اليه فى رزانة وسكينة من مكانها الظليل ٠٠ ثم قالت : « هل أرمنت فى هذه البقاع ؟ »

– لست أزعم ذلك ٠٠ ولكنها ليست بعيدة كالفيوم

– يجب أن تغفر لى جهلى ٠٠ فلست أعرف الا القليل عن مصر !

– ستعرفين المزيد عن بلدى يوما ما ٠٠ أكثر من الانجليزيات الأخريات بكثير!

وكان يتكلم فى رصانة واعتداد لايخلوان من خشونة ٠ ولاحظت أنه لم يعد يختم عباراته بكلمة « ياسيدتى » !٠٠ وكانت عيناه الواسعتان ترمقانها فى ثبات ،

وتصوبان نحوها نظرات سديدة لاتقل فى حدتها عن نظرات طائر جارح ٠٠ ولقد كانت نظراته تخترق خطوط دفاعها عادة ، ولكنها اليوم لم تمكنها - فى مقابل ذلك - من أن تخترق خطوط دفاعه هو ، أو تتوغل فى مناطق تفكيره او أحاسيسه! وتذكرت عيني ماير ايزاكسون ٠٠ لقد كانتا - هما الأخريان - قاسيتين فى توغلهما ، ولكن ٠٠ بينما كانت عينا ايزاكسون تكشفان بوضوح وجلاء عما يشغل عقله ، فان عيني بارودى كانتا - فى هذه المرة - تخفيان ماكان يدور فى عقله وهما تتفرسان متغلغلتين الى ماكان يشتغل به عقلها !٠٠ وهذا الامتزاج بين المنع من ناحية والسطو من ناحية أخرى ، حمل - فى أنانيته الصارخة - الى نفسها شعورا غير عادى بمدى قوته !٠٠ لقد ظلت أعواما بأكملها تسيطر على الرجال ، أما هذا الرجل فكان قادرا على أن يسيطر عليها ، وكان يعرف ذلك حقا ٠٠ بل كان دائما يعرفه ، منذ اللحظة الأولى التى استقرت فيها عيناه عليها ! أفكان الشطر اليونانى منه ، أم هو الشطر المصرى ، الذى استطاع أن يقهرها ؟! أهو ذلك الجانب العملى النشيط الحاذق ، أم هذا الجانب الغامض المؤمن بالقضاء والقدر ؟! أم لعل لديه اغراء مزدوجا لجانبى نفسها وفطرتها !

وقالت تجيبه : « أتظن ذلك ؟ اننى أشك فيه ، فما أرانى واثقة من أننى سأمضى شتاء آخر فى مصر » ٠٠ فازدادت عيناه كآبة وعتامة ٠٠ بل لاح كأن وزنهما المادى قد ازداد ثقلا ! وقال : « هذا أمر معلوم ، ولكنك لم تؤتى علمه!» ٠٠ فأجابت فى حدة مفاجئة ، مليئة بعزة الأنوثة التى تلاحظ فى المرأة العصرية: « ولا أنت ! » ٠٠ وبحركة سريعة مرنة ألفته الى جانبها ، يستلقى بطوله على الارض فى ظل الجبل ٠٠ وانقلب قليلا على أحد جانبيه - وهو يرفع نفسه مستندا الى ذراعه القوية - وظل محتفظا بهذا الوضع دون أن يبدو عليه أنه كان يبذل فى ذلك أى جهد ٠ واستطردت تقول وهى ترفع الوسائد الى جوار الصخرة خلفها : « واننى لأرجو ألا تحاول أن تمارس معى ألاعيب التنويم المغناطيسى القديمة التى يستخدمها فقراء الهنود يابارودى ! اننى أعلم أن عددا من النساء الأوروبيات يدفعهن الهوس الى ارتكاب الحماقات والظهور بمظهر شائن هنا ، ولكنى لست مخبولة ولا متهوسة ٠٠ وأؤكد لك ذلك ! »

- كلا ، بل أنت عملية ٠٠ مثلى ! وأنت شيء آخر ٠٠ مثلى أيضا !

ومال برأسه قليلا الى الوراء ، فكشفت لها هذه الحركة عن عنقه الجميل الذى بدا كأنه يظهر كل القوى المركزة التى كانت فى هذا الرجل ٠٠ قوى هادئة ونارية معا ، تشبه قوة الصخور ، وتشبه ألسنة اللهب المتحجرة التى كانت تحيط بهما ! وتساءلت : « شيء آخر ؟ ماهو ؟ » ٠ فقال : « لماذا تكثر النساء من الأسئلة وهن يعرفن الاجابة عليها ؟ هاهو ذا ابراهيم يحمل القهوة الينا » وفى تلك اللحظة ظهر ابراهيم بالفعل ، وهو يسير ببطء - مقبلا من وراء الحاجز

الصخرى ـ حاملا صحفة عليها قدحان للقهوة ووعاء للسكر وابريق من النحاس كان البخار يتصاعد منه ٠٠ ووضع الصحفة على الارض فى رفق ، دون ان يفوه بكلمة واحدة ، وملأ القدحين فقدمهما لمسز ارماين وبارودى ، ثم انسحب فى هدوء ٠٠ وفى خلال ذلك كله لم يلق على مسز أرماين نظرة واحدة ، وهى التى كانت تظن أن ابراهيم ليس الا غلاما ساذجا لطيفا ودودا !

أنى استطاعة هؤلاء الناس جميعا أن يقرأوا أفكارها ويقتفوا أثر ماتأنف منه وماترغب فيه ؟ حتى التراجمة والمكاريين ٠٠ سائقى الحمير ؟!٠٠ وخيل اليها ـ للحظة من الزمن ـ أن الانجليز الأقوياء الجبابرة ، أبناء ذلك الجنس الحاكم الذى تعرفه حق المعرفة ، ليسوا سوى أطفال ـ أطفال قصار النظر باردى الحس ! ـ وأن هؤلاء المصريين الخاضعين المستسلمين : بارودى وابراهيم وحمزة المصلى ، كانوا رجالا دهاة تتدفق الدماء الحارة فى عروقهم ، وقد أوتوا القدرة على التنبؤ واستطلاع الغيب !

وناولها بارودى القدح وهو يقول : « هاك قهوتك ! » ٠ فرشفت قليلا منها، ثم وضعت القدح على الأرض ، وقالت : « فى الليلة الأولى لوجودنا فى فيللا أندرود ، جاء ملاحوك النوبيون مصعدين فى النيل ، ومضوا يغنون وينشدون تحت جسر الحديقة تماما ٠٠ فلماذا فعلوا ذلك ؟ » ٠ فقال : « لأنهم رجالى ، وقد أمرتهم بأن يغنوا لك» ٠٠فتساءلت: « وابراهيم ٠٠وحمزة ؟» ٠ وكان جوابه: « لقد أمرتهما بأن يأتيا بك الى هنا » ٠٠ وقالت : « أجل » ، ثم التزمت الصمت لحظة ، وعادت تقول : « نعم ، لقد كانا ينفذان أمرك طبعا ! »

وفيما كانت تنطق بهذه الكلمات ، خيل اليها أن موجة حارة من الرضى العميق قد غمرت كيانها كله ٠٠ فلقد حرص هذا الرجل على أن يبعث اليها ـ وهو فى الاسكندرية ـ بتحيته ، فى الليلة الاولى لحياتها الجديدة بجوار النيل ٠٠ حرص على أن يحييها اذ ذاك ، وهاهو ذا يهينها الآن بالفعل ٠٠ اذ اعترف فى هدوء بأنه عاملها كأنها قطعة من الأثاث ! وأعجبها ذلك وأحبته !٠٠ لقد كان يحييها فى تلك الليلة الاولى بأنشودة عن الله ٠ ورسا عقلها ـ بعد جولته السريعة من فكرة الى فكرة ـ عند هذه الذكرى ، وسرعان ما ذكرت حمزة وصلواته ، وراحت تتساءل فى عجب عن مدى قوة الايمان بالله لدى ذلك المخلوق القاسى القلب الذى كان مستلقيا بجوارها !واستطردت تقول فى تمهل : « لقد كانوا يتغنون بأنشودة عن الله ٠٠ و «الله» هى الكلمة الوحيدة التى استطعت أن أفهمها !»

ورفع بارودى نفسه قليلا ٠ وبينما كان يحدجها بنظراته ، انفرجت شفتاه ، وراح يغنى ـ بصوت مرتفع حزين ـ تلك الانشودة القوية الرتيبة التى يحبها الملاحون النوبيون ٠ وكانت الصخور الحارة الصفراء التى تحيط

بهما تؤلف مجال الصوت بالنسبة اليه ٠٠ أما قوة صوته فكانت خارقة حقا ، أحدثت فى نفسها - مع أساريره الجامدة التى لم تكن اذ ذاك تعبر عن شىء ما - تأثيرا مؤلما ٠٠ ومع ذلك فانه كان يغريها ويغويها !٠٠ فلما انتهى من الغناء ، غمغمت تقول : « نعم ، هذه هى الأغنية ! » ٠ ولم يقل شيئا ، كما ان صمته المطبق ، الذى تلا غناءه القوى ، كان يشدد من قبضة غرابته عليها ٠ ولقد أحست - بل وادركت - منذ لحظة وجيزه فقط ، انها وبارودى قد فهم كل منهما الآخر كما لم تستطع هى ونيجل أن يفهم أحدهما الآخر ! ولكنها لم تلبث ان احست فجأة بأن فى بارودى سرا أشد عمقا وأعظم استغلاقا من اى سر يمكن ان يكمن فى نيجل ، وكان هذا السر يبدو لها وثيق الصلة بايمانه فى اله قادر جبار ٠٠ فى «كائن» ما خارج نطاق هذه الدنيا ، يتحكم فى مصائرها ، ويملى ارادته على الأقدار التى تحويها !٠٠ كانت عقيدة زوجها - كما حدستها وكما تحس بها فى وضوح قوى - تثير فيها شعورا من السخرية ، كذلك الشعور الذى يحسه الشخص الساخر المتجرد من المشاعر الرقيقة عند سماعه التصريحات الساذجة التى تصدر عن طفل غرير ! أما دين بارودى فكان يسحرها ، ويدفعها نحو الشعور بما يشبه الرهبة والخوف ٠٠ كان أشبه بنار أحرقتها ، وأشبه بباب من الحديد أغلق دونها !

ومع ذلك فانه لم يتحدث قط عن دينه من قبل ٠٠ ولا تحدث عنه الآن ، ولكنه كان يتغنى بأنشودة بلاد النوبة !

وقالت : « هل انت الذى اخبرت ابراهيم بأن يختار حمزة سائقا لحمارى اليوم ؟ » ٠٠ كانت لا تزال فى شغل شاغل ، تتمثل حمزة وهو يعدو بجوارها صوب الجبال ، ثم وهو يصلى بين الصخور ٠ وواتاها جواب بارودى : « نعم » ، فسألته : « لماذا ؟ » ، فقال : « لأن حمزة مكارى صالح جدا ! »

وفى تلك اللحظة بدأت مسز ارماين تشعر بالخوف من حمزة ، بل وبالخوف من صلواته ! وكانت تعلم ما فى ذلك من سخف غريب ، لأنها لم تكن تؤمن بشىء البتة ! وكان بارودى قد استرخى قليلا ، وأراح خده على يده ٠٠ كان قد تعلم - فى مكان ما - أسرار أوضاع الجسم الأوروبية ! لقد كانت فى غنائه أعماق بعيدة الغور من الغرابة ، وها هى ذى ترى الآن أعماقا أخرى من الغرابة فى مسلكه ٠٠ كان يحييها من النيل - فى جنح الليل - وهو بعيد فى الاسكندرية ، وها هو ذا قد أمر ابراهيم وحمزة بأن يحضراها الى هذا المكان المقفر ٠٠ ثم ها هو ذا الآن يضطجع بجانبها ، بجسده القوى ، فى اطمئنان واسترخاء ، بينما سرح عقله - على مابدا - فى بعض الأحلام الضالة ! ٠٠ فهو بذلك لم يكن يكترث بها ، ولا يبذل اى جهد لارضائها وادخال السرور الى نفسها ، بل انه - فيما كان يخيل اليها اذ ذاك - لم يكن يفكر فى

أمرها ! فلماذا لم تشعر بوخز هذا التجاهل ، ولم تحس بحنق أو غيظ منه ؟ بل لماذا تجد نفسها مأخوذة بسحر تجاهله وعدم مبالاته ؟!

ولم تكن قد سألت نفسها عن سبب ذلك ، وكأنما أصابتها منه عدوى هذه الحال التى لم تمر بها قط من قبل ! ولبثا وقتا طويلا على هذه الحال ، جنبا الى جنب ، بلا حراك البتة ، يظللهما صمت مطبق .. وكانت هذه الفترة من السكون والجمود بالنسبة لمسز ارماين أعجب فترة مرت بها فى حياتها المليئة بالحوادث والاحداث . كانت فى ذلك السكون تمر بتجربة تروضها .. كانت فى السكون تصهر وتصاغ من جديد .. كانت تنتزع من نفسها !.. فما هذا الشىء الذى كان نشيطا فى السكون ، وكيف كان نشيطا ؟! ما الذى كان يتكلم فى السكون ؟.. لم تكن ثمة أصداء تتردد ، بأصواتها المسحورة ، بين الصخور المتألقة فى هذه الجبال الليبية .. ومع ذلك فان شيئا ما قد رفع صوتا وصاح عاليا .. ولقد جاء الجواب ، ولكنه لم يكن رجع الصدى : فى الراحة تجديدا !

وعندما عادا الى الحديث ، كانت الرغبة الجشعة التى ساورت مسز ارماين نحو استخلاص أكبر قدر من المتعة فى السنوات التى بقيت أمامها ، قد غدت أشد قوة وعنفا فى نفسها ! كما ولدت فى أعماقها واحدة من تلك العقائد العجيبة التى لا تهبط - فيما يبدو - الا على نفوس النساء فحسب .. ولد فى اعماقها الايمان بأن الأيام قد ادخرت لها ثأرا من القدر الذى سلبها احتمال الحصول على كل ما كانت تصبو الى الحصول عليه من زوجها نيجل .. الايمان بأنه سيغدو فى وسعها ان تتم هذا الانتقام بوساطة الرجل الذى كان يرقد بجانبها !

الفصل السابع عشر

• **عندما** خطت مسز ارماين - فى مساء ذلك اليوم - منتقلة من « الفلوكة » الى حديقة « فيلا اندرود » ، لم تنتظر حتى يساعدها ابراهيم فى الصعود الى الشاطىء ، وانما أسرعت مهرعة وحدها ، فاجتازت الحديقة والشرفة ، وانطلقت الى مخدعها حيث أوصدت الباب ، ثم أشعلت الشموع على جانبى المرآة الطويلة بحجرة الزينة ، ورفعت خمارها ، وراحت تتطلع فى لهفة الى وجهها العاطل عن الزينة،



فى المرآة : ترى هل كانت فيما صنعته مجانبة للصواب والعقل الى حد بعيد ؟! لقد خالجها مرات عديدة خلال ذلك اليوم ــ بينما كانت مع بارودى ــ شعور يكاد يشبه الفزع والهلع مما فعلته بنفسها .. أما الآن وقد أصبحت وحدها فى أمن وطمأنينة ، فقد مضت تتساءل عما اذا كانت حمقاء حين أطاعت ايعاز نيجل واعتمدت على جمالها المجرد من كل زينة !.. وراحت تتفرس فى المرآة ، ثم نزعت قبعتها وعادت تتفرس من جديد فى قوة وامعان ، يكادان أن يكونا قاسيين !

وسمعت طرقة حادة على الباب ، فهتفت : « من هناك ؟ » .. وواتاها صوت وصيفتها : « أنا ياسيدتى » . فمضت مسز ارماين الى الباب وفتحته ، وقالت فى خشونة : « تعالى هنا يا مارى ! خبرينى بالحقيقة ــ فلست أريد منك أى ملق أو مداهنة ــ هل تظنين انى أبدو أصغر سنا وأحسن منظرا اذا ما وضعت شيئا على وجهى ، أو اذا ما تركته هكذا خاليا من الزينة ؟ » .. وأدنت وجهها من ضوء الشموع ووقفت ساكنة بلا حراك ، بينما راحت مارى تتفحصها فى انتباه شديد .. ثم قالت أخيرا : **« ان السيدة تبدو هنا أصغر سنا بكثير ، فقد تغيرت السيدة تغيرا كبيرا منذ أن حضرنا الى**

مصر ! لست أدرى حقا ، ولكننى أظن أن السيدة ربما كان فى وسعها أن تستغنى عن أى شىء الا اذا كانت ستلتقى ببعض الفرنسيين طبعا ! أما اذا كانت السيدة ستقضى أوقات طويلة فى الشمس ، فعليها أثناء الليل أن تحرص على وضع .. » ، وانطلقت الوصيفة ، سعيدة هانئة ، توغل فى الحديث فى موضوع يروق لها ويلائم طبيعتها !

وتناولت مسز ارماين طعام العشاء وحدها فى عجلة . وكانت الساعة قد تجاوزت التاسعة عندما فرغت منه ، فخرجت لتجلس فى الشرفة ولتدخن سيجارتها وترشف قهوتها . ولم تكن أثناء عودتها من الجبال قد خاطبت ابراهيم الا نادرا ، كما أنها لم توجه كلمة الى حمزة الا عندما تمنت له ليلة سعيدة على ضفة النيل .. وتذكرت ذلك التعبير الذى ارتسم فى عينيه الشبيهتين بثمرة اللوز ، عندما رد تحيتها .. **كان تعبيرا غامضا بعيد الأغوار ، يفيض بادراك قاس فى صراحته ، جرد طبيعتها من كل ما كانت تستتر وراءه من وسائل التنكر والاستخفاء ، وتركها عارية كما هى ليراها جميع الرجال فى هذه البلاد ! .. وما كانت عينا ابراهيم تلوحان قط مثل عينى حمزة ، ومع ذلك فما هو الاختلاف الحقيقى بين ابراهيم وحمزة ؟**

وفجأة قالت لنفسها : « لماذا ينبغى أن أشغل رأسى بهؤلاء الناس : خادم وسائق حمير ؟ » .. انها لم تكن تعنى البتة فى انجلترا بما يظنه فيها أولئك الذين فى خدمتها .. ولكن الأمور كانت تبدو هنا — فى مصر — شديدة الاختلاف ، وقد أخذها ابراهيم وحمزة الى المكان الذى كان بارودى ينتظر فيه لقاءها .. كانا ماجورين لبارودى ، وهذه هى الحقيقة اللاذعة .. الحقيقة التى راحت تفكر فيها وهى تجلس وحدها ، ترشف القهوة التركية التى أعدها لها حسن ، وتدخن سيجارتها . كانت تقول لنفسها انه لم يكن لها أن

تغضب لما حدث .. ولكنها كانت تعلم كل العلم أنها لم تغضب فى الواقع ! .. كانت تعلم أنها كانت جد مسرورة لأن بارودى اشترى ابراهيم وحمزة ، فقد ولد الشرقيون وفى دمائهم شهوة للدسائس والمكائد ، والسير فى الخفاء ، والزحف فى الممرات المنحرفة الملتوية .. فلماذا كان ينبغى على هؤلاء الذين يحيطون بها أن ينبذوا طبيعتهم وغريزتهم ؟!

وانتقلت اذ ذاك الى التفكير فى نيجل .. لكم كانت مع بارودى أكثر راحة وانسياقا لسجيتها منها مع نيجل فى أى يوم من الأيام ! .. لم يكن فى وسعها قط أن تتيح لنيجل ما كان ينشده .. وربما استطاعت أن تتظاهر بتوفيره له ، ولكن انخداع نيجل ما كان ليغير من الحقيقة شيئا ، رغم أن نيجل كان أهلا لأن ينساق للخداع ولأن يضلل ! .. **أما بارودى ، فكان فى وسعها أن تهبه ما كان راغبا فيه ، بل لقد خيل اليها – فى تلك الليلة – أنها قد خلقت لتهبه ما يرغب فيه حقا ، فما كانت لتجهل حقيقة نفسها ! كما أنه قادر على أن يهب لها كل ما تريده تماما ! هكذا أصبحت تعتقد ، فلقد بدا لها – بعد ذلك اليوم الطويل بين الجبال – أن أطماعها القديمة قد ماتت .. قد قتلت !** .. ومع هذا الموت ، نما فجأة فى أعماقها – على نحو أشد ضراوة ووحشية ! – ذلك الحب المسيطر ، وذلك النهم المتسلط نحو الأشياء المادية .. نحو النقود ، والحلى ، والتحف الجميلة .. نحو كل ما يمكن تلخيصه فى كلمة « الترف » ! .. ولقد كان بارودى ذا ثراء فاحش ، وكانت ثروته تزداد يوما بعد يوم ، وأنها لتعرف كيف تضع الرجل فى الميزان فلا تخطىء وزنه !.. وعلى الرغم مما كان فى بارودى من غموض وخفاء – حتى بالنسبة اليها – فانها كانت قادرة على أن تكون حكما صائبا عن مقدرته العملية ، وعن مقدرته على الكسب والربح ! .. ولكنه كان قادرا على أن يهب لها ما هو أكثر من « الترف » .. ما هو

أكثر من « الترف » بكثير !

وفيما كانت تقرر لنفسها هذه الحقيقة ، تسلل الى قلب مسز ارماين ساكن جديد .. وكان هذا الساكن هو **الخوف!** كانت تعلم انها وجدت فى بارودى رجـلا يمكن أن يسيطر عليها .. بل لقد كان فى وسعه أن يدمرها ، لأنها وجدت فيه رجلا يمكن أن تحبه ، لا ذلك الحب الروحى السامى ــ فما كانت قادرة على أن تحب أى رجل على هذا النحو ! ــ ولكن بتلك القوة الخطرة ، وتلك الرغبة والعاطفة البدنية الغيور ، وذلك التركيز المرير الذى يبدو انه ينمو فى طراز معين من النساء عندما يخلفن الشباب وراءهن ! .. كانت تعلم ذلك ، وكانت خائفة كما لم تخف قط من قبل !

وفى تلك الليلة لم تذق طعم النوم الا قليلا .. وقد سمعت مرتين أو ثلاثا ، وهى ترقد يقظى فى الظلام ، أصواتا بعيدة تغنى فى مكان ما على النيل ، فكانت تتململ فى فراشها ، وهى تتوق للخروج الى بهمة الليل لتزداد دنوا من هذه الأصوات .. كانت تخال أنها انما جاءت من أجلها ، وانها تدعوها اليها ، بل انها اعادت الى ذاكرتها صوت بارودى ــ عندما رفع جسمه قليلا ، وراح يحدق فى وجهها ــ وهو يغنى تلك الأنشودة عن « الله » .. أنشودة الملاحين النوبيين !.. وعندئذ تمثلته أمامها فى الظلام ، فى وضوح قاس اليم ، وكانما كانت تضيئه أشعة الشمس الحارقة : لماذا التقت بهذا الرجل بعد أن اتخذت خطوتها الحيوية نحو زواجها الثانى مباشرة ؟ **لقد لبثت أعواما طويلة حرة من كل قيد .. حرة كما يمكن أن يكون المنبوذ عن المجتمع حرا .. ذلك الذى يجد نفسه مساقا رغم أنفه الى خارج المجتمع ، الى حرية فظيعة !.. لقد كانت ــ خلال كل هذه** الأعوام من الحرية ــ تستغل الرجال وتستخدمهم دون أن تحب واحدا منهم .. وبعدئذ ، وأخيرا ، قيدت نفسها مرة أخرى ، واتخذت ما خيل اليها انه الخطوة الحاسمة نحـو

مستقبل موفور الاحترام والكرامة ، وربما نحو مركز اجتماعى تتطاول اليه الأعناق !.. وما كادت تفعل ذلك ، حتى ألقت المصادفة فى طريقها بالرجل الذى كان يستطيع أن يمسك بها ويرفعها ويفى بكل ما لطبيعتها من احتياجات ! .. وهذه الكلمات من القرآن .. أليست صادقة كل الصدق بالنسبة اليها ؟!.. ان قدرها وطائرها قد ربطا الى عنقها بلا ريب .. بيد من ؟.. انها لتعرف ما سيقوله بارودى ، لو أنها سألته.. ويا للعجب ! **حتى الدين الذى يعتنقه كان يسحرها ويأسرها، مع أنها كانت تضحك فى قرارة نفسها من عقيدة نيجل .. كان دين بارودى يبدو منطويا على قوة صلبة .. قوة ضارية قاسية !** (١) ولقد كانت تحس بأنه — حتى بالنسبة لدينه ! — كان لصا قاطع طريق ، يحاول أن يمسك بين يديه الشرعتين ، فى هذه الدنيا ، بالمباهج والملاذ الموعودة فى عالم آخر ! كان موطد العزم على ألا يفـــوته شىء أو ينكر عليه أمر يرغب فيه حقا !

وراحت تتقلب فوق الحشيات من جديد ، وهى تخرج ذراعيهـــا خارج الغطاء الخفيف الذى كانت تتدثر به ، ثم وضعت يديها فوق وجهها ، فوجدت وجنتيها تلتهبان نارا . وعندئذ ذكرت كيف أنها منذ عهد بعيد — عندما كانت شابة حديثة الزواج — رقدت مسهدة ذات ليلة ، وتحسست بيديها وجنتيها الملتهبتين .. كان ذلك على أثر التقائها بالرجل الذى من أجله طلقت من زوجها .. الرجل الذى دمر حياتها فى المجتمع . ترى هل يعيد التاريخ نفسه ؟ وهل تعود الحياة على أعقابها ؟ انها تذكر المباهج العنيفة لهذا الحب المستتر

---

(١) يقصد المؤلف هنا ان الدين يقسو على الانسان اذ يحمله تبعات مسلكه فى الحياة الدنيا ، ثم يحاسبه عليها فى الآخرة ، مع انها مفروضة عليه فى حياته بحكم القدر .. وهو الجدل الذى يدور دائما حول « القضاء والقدر »

الذى ألقى به ـ فيما بعد ـ فى التراب ، لتحدجه الدنيا كلها بأنظارها .. ترى هل قدر لها أن تحس بمثل هذه المباهج مرة أخرى ؟ وهل من الممكن أن تتهيأ لها معرفتها من جديد ؟ ثم هل لديها القدرة على تذوقها بعد كل ما مرت به من أحداث ؟! .. انها تعلم أن لديها هذه القدرة !.. **وعندئذ اختلط الخوف فى نفسها باحساس من الانتصار .. فقد شعرت بأن مرور الأعوام لم ينقص من مقدرتها على الاستمتاع بما كان بالنسبة اليها بهجة وسرورا ، بل انه زادها .. وهذا الشعور بازدياد مقدرتها على الاستمتاع أوجد فى نفسها شعورا آخر زاخرا بالشباب !**

حتى نيجل قال لها : « انك تزدهرين هنا » ! .. حتى هو ـ هو الذى خدعته وضللته بهذه السهولة خداعا تاما كاملا ـ قد رأى الحقيقة فيها بوضوح وجلاء .. ولكن ماذا يكون من أمرها عندما يعود من الفيوم ليبقى معها ثانية ، أو ـ وهو الأرجح ـ ليحملها معه بعيدا ؟

وكانت الأصوات التى بلغت مسامعها من بعيد قد خفتت .. فقد سيطر الليل أخيرا على المنشدين ، فاستغرقوا فى النوم تحت دثار من سكون الليل وصمته . ولكن مسز ارماين ظلت ترقد مستيقظة ، شاعرة بأن انقطاع الغناء قد جعلها أقل استعدادا للنوم . عندما يعود نيجل ليأخذها بعيدا ، الى خيمة فى الفيوم .. ماذا اذن ؟ .. انها لن تفكر فى هذا الأمر ، ولكنها سوف تطيع ما توحى اليها به طبيعتها .. ان لديها اسبوعين من الحرية ، هى التى قضت كل هذه الأعوام الطويلة من الحرية .. **ان أمامها أسبوعين فقط ، وعليها اذن أن تستغل هذين الأسبوعين وأن تستمتع بهما الى غاية ما يسعها الاستمتاع .. وليس عليها أن تفكر فى شىء الا فى لحظتها الحاضرة .. وعليها أن تعتصر ، ثم تعتصر ، ذلك الرحيق الذهبى الذى تحويه هذه اللحظات التى تمتد**

أمامها مباشرة !

والخيمة التى فى الفيوم ؟.. لعلها لن تراها البتة ! لعلها لن تخرج قط مع نيجل فى حلكة الليل لتصغى الى الأرغول المصرى بجوار الماء .. ولكنها ستسمع بارودى حتما وهو يغنى ثانية فى الغد ! وسوف ترقبه حتما ، فى الغد أيضا ، وهو يغنى !

ودست ذراعيها داخل الفراش ، وجذبت الغطاء فى انفعال حتى بلغ ذقنها .. يجب أن تنام ، والا نم وجهها غدا عن سهادها ! وقد كان بارودى يتفرس فى وجهها وهو يغنى !

وعاد الخوف من جديد يقبض عليها بأصابع لا تلين !

الفصل الثامن عشر



• فى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى ، استيقظت مع مسز ارماين – وفى كيانها – امرأة كانت قد قضت بعض الوقت ترقد فى سكون أشبه بسكون الموت ! امرأة تعرضت للدمار منذ سنين مضت ، فى سبيل عاطفة كانت جسدية أكثر منها روحية مثالية ، فلما حاق بها الدمار فعلا ، تركت الجانب البشع من طبيعتها ينطلق حرا ، مرسل الزمام ،

يتحدى العالم بما فيه .. ولم تدرك تمام الادراك ــ قبل هذا اليوم الجديد الذى استيقظت عليه ــ مدى ذلك الجهـــد الطويل الذى كانت تبذله ، وكيف أتعب أعصابها ومزاجها وأثارهما ، اذ فازت بزوجها بأن لعبت عليه دورا ، وقد مضت ممعنة ــ منذ أن فازت به ــ فى تمثيل هذا الدور ! .. ولم تعد ترى هذا التمثيل منذ ذلك الحين أمرا بالغ الصعوبة ، على الرغم من أنها مرت بلحظات كانت تحن فيها حنينا قويا الى أن تظهر نفسها على حقيقتها ! .. **أما الآن وقد أمضت بضع ساعات فقط مع رجل استطاع أن يستشف حقيقتها ويجيد قراءة ما كانت تهجس به نفسـها ، ولا يتطلب منها جمالا روحيا ، أو نضالا فى سبيل الفضيلة ، أو أسفا مريرا على أية أفعال أتتها فى الماضى ، فقد تبينت فداحة النير الذى كانت تحمله على عاتقها ، وامتلأت نفسها برغبة جامحة فى أن تنال ما يعوضها الجزاء الأوفى !.. لقد شعرت كأن الأقدار مدينة لها بدين ثقيل ، فاستقر عزمها على أن تسـتوفى هذا الدين حتى آخر قطرة منه !**

أما وقد تحررت من القيود التى كان يفرضها عليها وجود زوجها ، ومن الحمل الذى كان يثقل به كاهلها ببحثه الدؤوب ــ رغم استتاره ــ عن الجزاء الأدبى الذى لم يكن فى وسعها البتة أن تهبه اياه ، فان كيانها كله وطبيعتها كلها أصـبحا يبدوان كما لو كانا قد أصيبا برد فعل عنيف ! وفى خـلال الأيام التى تلت ذلك مباشرة ، كانت تشعر أحيانا بأنها على سجيتها وطبيعتها ، شعورا أتم وأوفى وأكثر قوة مما أحست به فى أى يوم من قبل .. وكانت غالبا ماتدرك سر ذلك الارتياح العجيب ، الذى يكاد يكون وحشيا ، والذى يحسه الغرب أحيانا عندما يتصل عن كثب ببداوة الشرق الحارة الماكرة .. الشرق الذى لا يعنى بالقاء الأسئلة ، والذى حـذف كلمة « لماذا » من قاموسه !

كان بارودى مجردا تماما من مبادىء الضمير العادية بقدر ما كان الرجل الانجليزى المهـذب مليئا بها !! (١) كان له ــ بلا ريب ــ قانونه الخاص الذى يهتدى بهديه فى مسلكه حيال اخوانه فى الدين ، ولكن هذا القانون ــ فيما يبدو ــ كان غير ذى تأثير على الاطلاق عندما تنشأ صلة بينه وبين أولئك الذين ينتمون الى جنس آخر ودين آخر ! .. وكانت مسز ارماين امرأة ، ومن ثم فقد كانت فى ناظريه أقل منه مرتبة!..

وقد كان بين الصفات التى اجتذبت مسز ارماين اليه ــ ومن المؤكد أنها لم تكن أقلها شأنا ــ افتقاره الى احترام النسـاء بوصفهن نساء ! .. ومن المسلم به كحقيقة ثابتة عن المرأة ، انها تكن فى أعماقها ــ مهما يبلغ عمق الهوة التى تنحدر اليها ــ لهفة خفية الى احترام الرجل لها .. وسواء أكانت مسز ارماين تشاطر النساء هذه اللهفة الخفية أم لا ، فان شيئا واحدا كان محققا .. **كان زوجها يحترمها ، فكانت تحمل هذا الاحترام كسلسلة من حـديد ، وكان بارودى لا يحترمها ، فكانت تحمل خلوه من الاحترام نحوها كزهرة تتزين بها !**

وعندما زارت مسز ارماين « اللولية » ، وقرأت ــ كما تفعل النساء غالبا ــ أخلاق الرجل من الأشياء التى يعمد الى احاطة نفسه بها ، تبينت للتو بعض حقائق معينة فيه ، لم يجشم نفسه ــ أثناء مخالطته لها ــ عناء اخفائها .. فالى جانب بصيرته الثاقبة ، ودهائه المطواع ، وتجرده الواضح من مبادىء الضمير ، وجرأته الناعمة المصقولة الباردة كالبرونز ، كانت به بداوة (غشومية) ساذجة ، وبساطة أشبه ببساطة تلاميذ المدارس ، وطيبة فطرية تبعث على الدهشة ، ولكنها مع ذلك تثير الاعجاب لأنها لم تكن متوقعة منه ! .. فالرجل

---

(١) يبدو ان المؤلف هنا أخطأ فهم مبادىء الشرق ، بنفس القدر الذى أخطأ به فهم مبادىء الغرب ، الذى ينتمى اليه « السادة الانجليز المهذبون » !!

الذى اشترى الساعات الصداحة ، والزهريات الرخيصة ، والذى جعل الكرة المذهبة تتراقص فوق نافورة الفسقية ، والذى حطم تناسق الألوان القاتمة فى حجرة استراحته بذلك اللون البرتقالى الصارخ الذى أقحمه عليها ، فبدا وكأنه كان يعكس الأضواء البدائية الوحشية المنبعثة من أعماق طبيعته .. هذا الرجل كان يسير جنبا الى جنب مع صانع المال البارع ، والباحث المقدام عن الملذات ، والحالم الشهوانى ، والديبلوماسى المحنك ! كان المزيج لاذعا مثيرا ، ولو أنه لم يكن غير عادى فى الأقطار ذات الشمس الساطعة ! .. **وكان هذا يروق لمسز ارماين ، ويلائم شغفها الجامح بالتجديد ، ويجعلها تحس بأنها — على الرغم من خبرتها الواسعة بالحيـاة فيما يتعلق بالرجال — لا تزال تجد ((أراضى مجهولة)) يمكن أن ترتادها وتكتشفها !** .. ومع أنها لم تكن تهتم بصفة خاصـة بالأطفال ، ولم تحس البتة بحنين الى أن يكون لها طفل من دمها ، الا أنها أدركت أنها قد تحب — بين الحين والحين — أن تلهو بالطفل الذى ينطوى عليه هذا الرجل ، وأن تدلله ، وتضحك منه ، وتشعر بسموها عليه ، وتحس بالحنان نحوه ، كما يمكن أن تحس أشد النساء صلابة بالحنان نحو ما يوقظ فيها مقدرة المرأة المزدوجة : مقدرتها على العاطفة ، ومقدرتها على الأمومة ! .. كانت تخشى بارودى ، وتبتسم ، بل تضحك منه ، فى وقت واحد ! .. وكانت فى عجب من أمره فى الوقت الذى كانت تستشف ما ينطوى عليه .. فهو فى لحظة يبدو أمامها شفافا كالزجاج ، وفى أخرى يواجهها كصخرة أحاطت بها الظلمات فى ليلة لا يخترق حجبها بصر ! .. أما هو فلم يبال قط بما اذا كانت تنظر خلال الزجاج ، أم تحدق فى الصخرة مشدوهة حائرة ! فما كان ليبدو مكترثا لحظة — عندما يكون معها — لملاحظتها اياه ، أو متلهفا على معرفة رأيها فيه ، أو حتى معنيا بذلك ! ولقد كان من جراء اكتمال

انانيته أن بدأت أنانيتها تحترمه وتقدره ، فاضطرت الى الاعتراف بأنه يملك بعضا من صفاتها المميزة ، ولكن شيئا ما فى طبيعته غالى فيها وأبرزها وجعلها لامعة وغامضة معا .. شيئا كانت هي محرومة منه ، ولعله كان من خواص جنسه ، ومن ثم فلن يقدر لها أن تحصل عليه قط !

★ ★ ★

• **وكان** حمزة ، المكارى المصلى ، ينتظرها كل يوم فى موضع يحدد من قبل — على الضفة الغربية للنهر — بينما كان ابراهيم يرافقها الى هناك فى « الفلوكة » وهو يبتسم فى رقة كطفل ساذج ، ويضع وردة بين أسنانه . وكانت « اللولية » ترسو فى النهر ، بعيدا الى الجنوب ، بين بساتين البرتقال التى يملكها بارودى ، وبين (أرمنت) ، فكان فى كل يوم يقبل على النيل فى زورقه الأبيض ، ليقابل المرأة الأوروبية ، لا يصحبه غير تابع واحد .. نوبى ضخم الجثة يدعى أيوب . وكان السياح الذين يأتون الى (الأقصر) قلما يذهبون الى أبعد من بقاع معينة محددة ، فهم يقضون أيامهم اما عابرين للنهر على مرمى البصر من القرية ومن (طيبة) ، أو بين المعابد والقبور على الضفة الغربية ، أو فى الكرنك ، أو معبد الأقصر أو حوانيت العاديات ، أو فى ظلال أحراش النخيل التى تحيط مباشرة بمنازل الكرنك الرمادية ، ومآذن الأقصر . أما الرجل الذى يذهب شمالا الى ما وراء (القرنة) ، أو جنوبا الى ما وراء مدينة حابو ، أو شرقا الى سفوح الجبال التى تزركش صحراء العرب ، فانه يكون بمنجاة من أنظارهم ومن ضجيج القيل والقال بينهم .. ومن ثم كان بارودى ومسز ارماين يلتقيان فى المنطقة الجنوبية ، بين الصف الثانى من الجبال ، أو فى السهل الفسيح ، أو تحت الظلال الخفاقة لأشجار البرتقال المزروعة صفوفا متقاربة أو على مسافات متساوية

فى دقة بالغة .

وكانت مسز ارماين ، عندما تبرح ضفة النهر الممتدة تحت سور الحديقة فى كل صباح ، لا تسأل ابراهيم الى أين هى ذاهبة .. ولم تكن بالمثل تلقى أية أسئلة على حمزة وهى تمتطى ظهر حمارها ، بل كانت تستسلم فقط — دون كلمة واحدة — الى رعاية هذين الاثنين ، فتتركهما يأخذانها الى حيث أمرا بأخذها ، والى حيث كانا قد تقاضيا الأجر لأخذها .. كما حدث فى اليوم الأول من أيام حريتها !.. **ومالبثت أن راحت تسائل نفسها : ألم يكن فى العقيدة الاسلامية ما يصدق على هؤلاء الذين لاينضوون تحت لوائها .. او لم يكن كل كائن حى — الى أن ينفخ اسرافيل فى الصور — حبيسا فى سجن القدر الذى سبق أن كتب له !** .. ولكنها فى قدرتها على أن تكون قصيرة النظر أحيانا — مع أنها فى اللحظات الحالكة الظلام من الليل تغدو بعيدة النظر متوجسة — كانت غالبا ما تستسلم للاحساس بحرية مطلقة خالية من القيود ، مطمئنة الى المسافات الشاسعة التى كانت تفصل بينها وبين (الفيوم) .. فهى لم تعد ترى هاتين العينين — عينى نيجل — اللتين كانتا تسألانها عطاء ، ولم تعد تسمع هذا الصوت الذى يرجو ويستجدى افضالا لا تستطيع أن تهبها مطلقا ، وأن كان فى وسعها أن تتظاهر بمنحها !

وهكذا كانت أحيانا تضم الى صدرها طيف الحرية الكاملة ، فى مطالع الأيام الصافية المشرقة ، عندما كان ابراهيم يأتى اليها ليخبرها بأن الوقت قد حان للذهاب ، وعندما كانت تسمع شدو الملاحين الخافت فى الفلوكة . واذا كان قدرها قد كتب عليها وألزم عنقها ، فقد كانت تمر بها لحظات لاتدرك فيها ذلك ادراكا كاملا .. لحظات كان يخالجها فيها احساس — بهيج متوثب ! — بالقوة والشباب ، وتتمثل خلالها تلك المرأة التى جلست ذات يوم فى عيادة « ماير ايزاكسون »،

وكأنها امرأة غريبة مكدودة لم يعد لها أى شأن بها !

على أنه برغم ما كان يمر بمسز ارماين من لحظات الانطلاق والمرح فى هذه الأيام - التى كانت غالبا ما تقول لنفسها أنها أيام حريتها - فانها كانت تمر أيضا بالكثير من لحظات التوجس والانقباض والحيرة فى شأن المستقبل .. لحظات أخذت تزداد كثرة عندما بدأت تزداد ادراكا بحقيقة طبيعتها التى كانت تتكشف الآن فى ضراوة ! .. قط ما كانت لتتصور أنه ما زال باقيا فى أعماقها مثل هذا الاستعداد القوى للتأثر بالعاطفة .. لم تكن تتصور على الاطلاق احتمال استطاعتها أن تحب اى رجل مرة ثانية .. تحب ، بتلك الحرارة المشبوبة ، وبتلك القوة التى تجلب فى أعقابها القلق والاضطراب ، والرغبة القاسية فى الاستئثار ، وفى الدفاع عن العرين ، وفى التملك .. لا بدافع من الزهو النسائى أو الجشع النسائى ، وانما بدافع من شيء يستقر بعيدا فى الأعماق بين ينابيع النفس البشرية !.. **لم تكن تحسب على الاطلاق أن من الممكن أن يشرق فى عماقها - فى تلك الحقبة الوسطى من حياتها - مثل هذا البعث الذى سرعان ما بدأت تحس بوجوده فى قلق ولهفة .. فان ذلك الكلال ، وذلك الركود الشبيه بجمود الموت ، اللذين كثيرا ماكانا يحاصرانها ويضيقان عليها الخناق ، اختفيا فجأة كما تختفى الأشياء التى تسقط فى بحر بعيد القرار ! كان جسمها وعقلها قد تيقظا فى تحفز وحرارة ، كأنما أصابتهما الحمى معا !**

وكانت تقول لنفسها أحيانا - وهى تحاول ان تخادع هذه النفس - أن اللوم ، او المسئولية على الأقل ، عن هذا التغيير ، يجب أن يلقى على كتفى (مصر) .. ولعلها كانت اذ ذاك تنظر الى كتفى بارودى ! وكان هو يلمح هذه النظرة ، فيفهم حقيقة نفسها اكثر مما كانت تزعمه - لنفسها - من أنها كانت تفهم

هذه النفس ! .. ومع ذلك فانها كانت قد قضت سنين عديدة وهى بمنأى عن أن تكون ممن يحاولن أن يمارسن خداع نفوسهن .. ولكن هذا الرجل استطاع أن يتجاوز بتأثيره الناحية الجسدية ، وان يفرض سلطانه كذلك على تلك الناحية التى أبت ان تستجيب الى المحاولات الرفيقة للتأثير عليها ودفعها نحو الخير ، ونحو مثل أدبية رفيعة .. أجل ، تلك الناحية التى كانت موجودة فعلا ، كشعلة حيوية ، روحانية .. ذلك الشىء الرائع الغريب الحبيس فى قفص جسدها الملتهب !

ومحمود بارودى ؟ هل كانت ثمة مسرحية تمثل وراء ذلك المظهر القوى ، الملىء بالألغاز .. المظهر الذى كان يعرضه للنظرات المتفحصة التى يصوبها اليه هذا العالم وتلك المرأة ؟!. لكم كانت مسز ارماين تعجب وتحار فى أمره أحيانا ، دون أن تستطيع أن تستقر على رأى . والواقع أنها كانت لا تعلم الا القليل عنه ، فعلى الرغم من أنه كان يبدو غالبا وكأنه يكشف نفسه — فى غير اهتمام أو اكتراث — الا أنها كانت تعود الى « الفيللا » ، بعد نهاية كل لقاء بينهما ، ورأسها مازال مليئا بالأسئلة .. وكانت غالبا ماتشعر براحة غريبة معه ، لأنه لم يكن يسألها ما لا قبل لها بمنحه ، ولذلك استطاعت أن تكون على سجيتها معه . ولكن الرجل الشرقى لا يسكب أسراره فى أذن المرأة الغربية ، وليست أساليبه فى التفكير كأساليب الرجل الغربى .. فلم تعرف مسز ارماين قط حتى الآن ألفة سرية — بل أية ألفة — كهذه ، كانت الرشوة سبيلها ، ومن ثم فانها كانت تسير حتما بخطى حثيثة نحو خاتمة سريعة حاسمة !.. ولابد ان بارودى كان قد دبر خططه لرؤيتها — كما كان يراها الآن — وهو بعد على ظهر السفينة « هوهنزلرن » .. انه لم يخبرها بذلك ، ولكنها عرفته وأدركته . **أو لم تكن تعرفه وهى**

على ظهر السفينة ؟ ألم تكن نظراتهما المتبادلة مليئة بما يقال والرد على ما يقال ؟

وعلى الرغم من المعرفة التى مرت بها فى حياتها ، فانها أصبحت تقول لنفسها أنها لم تكن تعرف شيئا .. فقد كان فى رأس بارودى الكثير ـ حتى فيما له علاقة بها هى ـ مما لم يكن بوسعها أن تعرفه .. ومع ذلك فانها استطاعت أن تكتشف شيئا عنه : كان والد بارودى من أثرياء الأتراك المصريين ، وكانت أمه يونانية جميلة ، اعتنقت الاسلام عندما شغف أبوه حبا بها ، وعرض عليها أن يتزوج منها ، فقبلت العرض ، واختفت عن العالم خلف أسوار الحريم .. وفى الحريم قضت نحبها ، تاركة وراءها هذا الابن الوحيد . والأتراك المصريون ـ كقاعدة عامة ـ اجرأ وأوفر نشاطا ، وأقوى نفوذا ، ولعلهم أيضا أشد جشعا ، من المصرين ذوى الدم المصرى الخالص .. وكانوا ـ فى الأيام التى سبقت الحماية الانجليزية ـ يتولون الكثير من المناصب الهامة بين الطبقات الحاكمة فى مصر (١) .. **كانوا يحشون جيوبهم بالمال ويسلبون اولئك الذين تحت سلطتهم بتلك القسوة التى هى من خصائص الخلق الشرقى !..**

وجاء الانجليز ، فوضعوا حدا لجمعهم المال بهذه الوسائل الشريرة ، ومن ثم فان حب الانجليز لا يزال حتى اليوم أقل انتشارا من كراهيتهم فى قلب كل تركى فى مصر .. ومع ذلك فان فى طبيعة التركى المصرى غالبا ، ماهو اكثر تجانسا مع طبيعة الانجليزى القح مما يمكن أن يوجد فى اى مصرى صميم ومن المحتمل أن التركى المصرى كان يزداد اذكاء لحقده على الانجليزى ، كلما رأى فى هذا ماكان يمكن أن يكونه هو ، لو لم

---

(١) هذا الجزء يشتمل على تحليل طريف لنوعين من اللصوص تنافسا على الاستئثار بخيرات مصر وحرياتها

ترده عن ذلك بعض أخلاق الشرق . فقد يصدر الرجال فى كراهيتهم عن جهل ، ولكنهم كذلك قد يكرهون عن فهم وادراك !

* * *

• **ولقد** نشأ بارودى فى جو من خشية الانجليز وكراهيتهم .. فان والده ، رغم ثرائه العريض ، فقد مركزه وسلطته بسبب الانجليز .. اذ كان له نفوذ على الكثيرين من مواطنيه يوما ما ، ولكن هذا النفوذ لم يعد له ، ولن يكون له البتة .. وقد تسربت من يديه — فى هدوء — فرصة السلب والنهب اذ أخذها الرجال الذين يلبسون الخوذة بدلا من الطربوش ، والذين قد يعترفون بأن « لا اله الا الله » ولكنهم ينكرون أن « محمدا » كان « رسول الله » ! .. **كان الأب يكره الانجليز ، وقد علم ابنه — نصف اليونانى ! — ان يكرههم ، ولكن فى غير جلبة او تفاخر ! وحفظ بارودى الدرس عن أبيه بسرعة ، وعن ظهر قلب ، فشب على بغض الانجليز . ومع ذلك — وفى تناقض مستتر — فانه كان ينمى طبيعته على بعض الميزات وبعض الكفايات وبعض الميول التى يشاطرها الانجليز !**

لم يكن شرقيا خاملا (١) ، غير عملى ، ولكنه مع ذلك كان ماكرا مراوغا ، لا يفكر البتة فى الغد ، خياليا فيما لا طائل وراءه ، مستكينا ، على استعداد للتذلل حتى يصل الى السلطة ثم يتحول ليركل الرجل الذى رفعه على كتفيه !.. ولم يكن كالغدير الراكد ، لا تلوح على سطحه الا ألوان الفساد والتعفن ،

---

(١) يبدو ان انسياق المؤلف الى المقارنة بين قومه كمستعمرين ، وبين المستعمرين السابقين — الأتراك — قد أثار نعرته وتعصبه ، فنسى مهمة الروائى لينساق لتيار قوميته الخبيث . ترى ماذا كان يقول لو انه كتب روايته اليوم ، وصفعات المارد الشرقى تنهال على وجوه قومه ؟!

وانما كان رجلا بمعنى الكلمــة ، كمـــا يفهم الانجليز معنى الرجولة !.. كانت لديه الغريزة الحقة نحو الرياضة ، والمقدرة الصادقة التى يؤتاها الرياضى الأصيل .. وكان نشيطا كدودا ، فى أعماقه تلك الموهبة الآمرة المسيطرة ، وتلك القدرة على الادارة والتنظيم . وكانت لديه ـ كانجليزى ـ تلك المثابرة التى تؤدى بأى عمل يشرع فيه الى خاتمة ناجحة .. كان لديه من قوة الارادة قدرما كان لديه من المكر والدهاء . ومن الاصرار والثبات مثلما كان له من نفاذ البصيرة وعمقها .. وقد ورث عن أبيه غرائز الجنس الفاتح المنتصر ، وهى ـ لذلك ـ مشابهة لغرائز الانجليز .. وورث عن والدته ، التى وثبت من بين الطبقات الوضيعة ، تلك المقدرة الخارقة على الاقتناء والتملك ، وذلك النشاط غير المحدود ، الذى لا يحفل بالمصاعب فى جريه وراء الربح .. النشـــاط الذى يعد من مميزات اليونانى العصرى فى مصر ! .. **ولكن كانت فى أعماقه أيضا نزعة خفية ، عريقة فى القدم ، نحو التعصـب ، ورضاء غامض ، قاس ، غريب ، بالقضاء والقدر ، وتجرد من قيود الضمير ـ لعله كان خليقا بأن يثير أى انجليزى يقدر له أن يفهمه ! ـ وصبيانية عارضة كانت أقرب الى خلق المصريين منها الى خلق الأتراك المصريين .. ودهاء حاضر غريزى لم يأت من أية بلاد غير بلاد الشمس المشرقة !**

كان يصلى ، وكان شهوانيا ! وكان يصوم ، ويحب حياة الرغد والرفاهية ! كان يستطيع أن يسيطر على رغباته ، ثم يطوح بضبط النفس الى الرياح !.. ولكنه ، فى كل ما كان يفعله وما لم يكن يفعله ، كان يحتفظ بروح الرجل الذى يستطيع المثابرة فى نبذ الشىء أو الجد فى ملاحقته سواء بسواء ، وكان وجود هذه الروح لديه هو الذى جعل منه رجلا قويا !

اما انه كان رجلا قويا ـ لا تقتصر قوته على الناحية الجسدية فحسب ! ـ فذلك أمر سرعان ما تحققت مسز ارماين منه ..

وقد حدثها عن ابيه وأمه ، ولكنه لم يحدثها عن الجو الذى نشأ فيه .. اخبرها عن ثروة أبيه الطائلة ، وأراضيه الواسعة ، وعن خططه هو ، وما درته عليه ، وما يحتمل أن تدر عليه فى المستقبل ، وعن بعض الصفقات الرائعة التى حققها ببيعه بعضا من قطع الأرض الزراعية التى كان يمتلكها فى ضواحى القاهرة — عندما بلغت فورة البناء الجنونية ذروتها — أثناء التضخم المالى الذى حدث فى سنة ١٩٠٦ . ولكنه لم يحدثها عن عامل مسيطر فى حياته ، تمثل فى كراهيته المتوارية العميقة للانجليز .. الكراهية التى نبتت فى نفسه عن طريق أبيه ، ثم نمت وترعرعت بفضل بعض الحوادث التى مرت به فى تجاربه الخاصة .. لا ولم يحدثها ، فى اسهاب ، عما أشار اليه تلميحا — فى ذلك المساء الذى اصطحبه فيه نيجل الى الفيللا — من أن بعض المصريين لم يكونوا يقتصرون على ارضاء غرورهم ونزواتهم فحسب ، وانما كانوا يعنون أيضا بارضاء كراهيتهم المستترة لأولئك الذين كانوا يسيطرون على بلادهم ، ومن ثم كانوا يحرصون على ان يوجهوا الى هؤلاء أبشع وأقسى ألوان الغدر ، كلما سنحت لهم الفرصة ! .. لا ، ولم يخبرها بارودى **بأنه مذ كان غلاما ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى لدى الانجليز ، كان — ككثير من أقرانه الفتيان الوجهاء ، أنصاف المتعلمين ، الذين امتازوا بالرزانة وبالجاذبية البدينة — يتيه زهوا بالانتصارات التى كان يحرزها فى جولاته بين النساء الغربيات اللائى كن يفدن على مصر زرافات لقضاء الشتاء فى القاهرة ، او على ضفاف النيل .. وكان يزيده تيها واختيالا أنه كان يرى فى كل انتصار يحرزه ، لطمة عنيفة يوجهها للرجل الغربى الذى كان يحسبه طفلا ، وغير أهل للحكم ، والذى كان يحكمه ليستغله ، وفى الوقت ذاته يزدريه ويحتقره فى صمت !**

ولعل بارودى خشى أن تحدس مسز ارماين تلك الحقيقة المريرة — فى طبعه — فتنفر منه ، بالرغم مما كانت تجده فيه من جاذبية قوية ، وبالرغم من تحررها من قيود الضمير ، وبالرغم من النظرة الساخرة — بل القاسية — التى كانت تنظر بها الى الرجل العادى . ومهما يكن من أمر ، فان بارودى أخلد الى الصمت ! .. وأوشكت هى ان تنسى الشبح الذى انبعث من الظلمات ومثل أمامها فى شرفات « فيللا اندرود » .. شبح حقيقة هذا الرجل !.. ولعله كان يقض راحة ضميرها لو أنها تذكرته ، ولكنه ما كان ليردها عن الانحدار الذى شرعت فيه .. فان حياتها الماضية أثلمت شعورها ، وخشنت طبيعتها . وما أكثر ما اتبعت الدوافع الخسيسة ، وما أكثر ما استسلمت للأهواء والنزوات ، بحيث لم تعد تحس بسعادة الانصياع للخير ، أو تسمح لأى اعتزاز بقوميتها ان يضع يدها فى يد الفضيلة !

وكانت تقول لنفسها ان عينى بارودى حين تحدثتا اليها — على ظهر الباخرة — انما فعلتا ذلك استجابة لنداء جمالها وفتنتها ، لا لأى شىء آخر . واى سبب عدا ذلك كان يحتمل أن يخطر ببال امرأة من هذا الطراز ؟.. ومع ذلك ، كانت تمر بها لحظات ينطلق خلالها الهامها النسوى بحثا عن سبب آخر ، ثم يقنع بعجزه عندما لا يجد !.. أما بارودى ، فلم يكن بحاجة الى البحث فى شخصها عن أسباب غير تلك التى كانت تبدو واضحة لعينيه .. ولقد ألف — مذ كان فى السادسة عشرة من عمره — ذلك التأثير الذى كان لثقته بنفسه وقوته البدنية الفائقة على النساء الغربيات !.. وهكذا ، مضى ابراهيم وحمزة يصطحبان هذه المرأة الغربية — فى كل صباح — الى المكان الذى يكون قد حدده لهما بارودى مقدما ، والذى كان يسبقها اليه دائما . وكان بارودى يحب السرية والتكتم ، فلم يكن لمسز

ارماين ـ فى حاضرها ـ حاجة الى ان تخشى افتضاح سرهما .. لم يكن ثمة مايدعوها الى الخوف من شىء كهذا ، من ناحية بارودى !

على انه كانت ثمة عينان حاسدتان فى « الفيللا » .. عينان كانتا ترقبانها فى ذهابها ـ كل صباح ـ وتحييانها عند عودتها فى المساء بنظرات الفضول . ولقد عاشت مسز ارماين أعواما طويلة لم يخطر ببالها ـ خلالها ـ ان تحفل بتعرف رأى وصيفتها فيها . أما الآن ، فكان خليقا بها ان تحفل ، اذ ان الالتزامات تتوالى فى أعقاب الزواج !.. وما كانت مارى تدرى شيئا ، بل ولم يكن لديها ـ فى الواقع ـ أى سبب يدعوها للارتياب فى شىء ، ولكن درايتها بشخصية مخدومتها كانت كافية لأن تثير فى نفسها كل مايمكن ان ترتاب فيه فتاة فرنسية اكتسبت فى باريس خبرة ومعرفة !.. وبينما كانت مسز ارماين تؤمن بخبث ابراهيم وحمزة ـ وتطمئن الى وجوده ـ فانها لم تكن تظن اطلاقا ان مارى على شىء من الخبث .. ثم ان « اللولية » كانت قد اختفت تماما من الاقصر مع صاحبها . كذلك كان من الطبيعى ـ وقد بقيت مسز ارماين بمفردها لفترة قصيرة ـ ان تقضى وقتها ، كسائر السياح فى حوض النيل ، فى مشاهدة معالم البلدة وضواحيها .. وكانت تتناول الغداء فى الخارج كما كان يفعل كل امرىء تقريبا . فلم يكن ثمة مايدعو مارى للشك والريبة !

ولكن ، لا ! كان هناك سبب كاف .. ذلك هو ماكانت عليه مسز ارماين من قبل ، وما اصبحت تفعله فى الوقت الحاضر . فالحقيقة غالبا ماتعلن عن نفسها ، دون ان يدرى أحد كيف يتسنى لها ذلك ! وكانت مسز ارماين تدرك ذلك فى المساء عندما ترى عينى وصيفتها ، فتتمنى لو أنها احضرت معها وصيفة انجليزية عاطلا عن الذكاء !

وفيما عدا ذلك ، كان ثمة ظل يستلقى عليها من الفيوم .. ظل زوجها !

★ ★ ★

• **بعد** ثمانية أيام من لقاء مسز ارماين بارودى بين الصخور ذات الألوان النارية ، صحبها ابراهيم وحمزة الى بساتين البرتقال التى كانت جنوبى الاقصر ، والتى تحدث بارودى عنها الى نيجل .. وكانت تقوم على ضفة النيل الغربية بين (الاقصر) و (ارمنت) ، وعلى مسافة كبيرة من أولاهما . ولكن المصادفة شاءت ان تكون الريح قوية نوعا ما ، وان تهب فى سرعة غير مألوفة من ناحية الشمال ، فنشر الملاحون أشرعة «الفلوكه» المثلثة العظيمة . وكانت المياه ذات الخضرة السمراء تتموج وتتهامس حول مقدمة القارب ، بينما كانت مآذن الاقصر تتراجع فى سرعة عن عينى مسز ارماين ، وكأنها كانت تفر منها وقد استبدت بها الرغبة فى الاختفاء بين أشجار النخيل ! واذ راح القارب يمعن فى انطلاقه ، ويخلف وراءه مرحلة بعد مرحلة ، بدأت مسز ارماين تعجب من امر هذه الرحلة .. وما لبثت ان سألت ابراهيم : « الى اين نحن ذاهبون ؟ » ، فأجاب فى رصانة : « الى مكان جديد .. الى مكان جميل جدا .. مكان لطيف جدا ! » .. فقالت فى شىء من الارتياب : «ينبغى ان لا نذهب بعيدا ، اذ يجب ألا أتأخر كثيرا فى العودة»

وكانت فى تلك اللحظة تفكر ـ حانقة ـ فى مارى ! ألا ليت مارى لم تكن موجودة فى فيللا « اندرود » !.. ولم تكن مسز ارماين تخشى شيئا من ناحية الخدم النوبيين ، فهم جميعا يتفانون فى الوفاء لها ، وقد بدأت تعتبرهم « عبيدا » لهـا ، لا لنيجل !.. أما تلك الفتاة الفرنسية الصغيرة ، الفظيعة ، الذكية ، فلا سبيل الى الثقة بها ! .. وكأنما قرأ ابراهيم أفكارها ،

اذ قال : « لقد قلت للآنسة الفرنسية اننا ذاهبان لمشاهدة معبد بين الجبال .. معبد رائع حقا ، كله ملىء بتماثيل رمسيس وقلت لها أننا قد نتأخر فى العودة ! » .. فحدقت مسز ارماين فى عينى الغلام الرقيقتين اللامعتين وقالت : « فليكن ! ومع ذلك فمن الواجب أن نعود فى موعد مناسب » .. وكانت نفسها تتأجج غيظا بسبب هذا الالتزام الصغير ، وهى التى ألفت الحرية الجديدة بعيدا عن نطاق التقاليد . وبغتة ، استقر عزمها على أمر : لسوف تتخلص من مارى ، فتعيدها الى أوروبا ! ترى كيف تدبر أمرها بغير وصيفة ؟ .. انها لا تستطيع أن تتصور ذلك ، ولكنها فى هذه اللحظة لم تبال ولا اكترثت .. **لسوف تتخلص من مارى و .. وتلاعبت الابتسامة على شفتيها فجأة ، فسألها ابراهيم : « لماذا تضحكين ؟ » .. فأجابته : « لأن الجو بديع .. وأنا سعيدة ! »**

ولكنها فى الواقع انما ابتسمت اذ طاف بخاطرها ذلك التبرير الذى ستقدمه الى تيجل : « لست أريد وصيفة هنا .. أريد ان أتعلم البساطة ، وان أتعلم كيف أخدم نفسى بنفسى ! ثم كيف يمكن لى ان آخذها الى الفيوم ؟ » .. ولسوف يطرب تيجل لذلك ، وتهتز أعطافه جذلا .. ولكن كيف تكون الاقامة فى الفيوم بغير وصيفة ؟.. على أنها مالبثت ان نحت هذا الخاطر عن فكرها فى عزم قوى .. لسوف تعيش ليومها الراهن .. يومها هذا فوق صفحة النيل ! ومالت فوق حافة القارب ، وراحت ترسل النظر ناحية الجنوب ، عبر ذلك الفيض العظيم من المياه المتألقة تحت أشعة الشمس الذهبية . وفيما كانت ممعنة فى التحديق ، تحول القارب وأخذ يقترب من الشاطىء . وعلى قمة الضفة العالية السمراء — حيث كان ثمة رجال عراة سمر الأجسام ينحنون ويتغنون بجوار **الشادوف — رأت اذنى الحمار الطويلتين ، ثم ثوبا أبيض**

مستقيما ، ثم خيالا كخيال تمثال من البرونز ، ثم عصا منتصبة كأنها الرمح المشرع نحو الشمس !

كان حمزة فى انتظارها .. كان ينتظرها وكأنه قضاء محتوم !

الفصل التاسع عشر



◆ سار ركب مسز ارماين فى بطء محاذيا لضفة النهر ، فلم يحول حمزة رأس الحمار نحو جبال ليبيا • وبدت مقابر طيبة وهياكلها بعيدة غاية البعد ، فتساءلت المرأة فى نفسها : الى أين كانت تقاد وتؤخذ ؟ ولكنها لم تسأل أحدا .. كانت تستمتع بهذا الاحساس الجديد ، اذ تجد نفسها محكومة من بعيد ! وذكرت الجهد الذى بذله خيالها عندما جبست نفسها فى ظلام «اللولية» العطرى ، وخالت نفسها جارية ، مثلما كانت الزوجات الشرقيات جوارى من الرقيق !.. ونظرت الى ابراهيم وحمزة فسرح خاطرها الى أولئك «الاغوات» الذين كانوا غالبا ما يصاحبون نساء الطبقة الرفيعة من الشرقيات عندما يخرجن محجبات الى العالم الخارجى ، وعندئذ لمست خمارها الهفاف وابتسمت، تماما كما كانت تداعب خواطرها الشريدة .. لقد كانت هذه الحياة المصرية حريفة لاذعة ، لفرط ما بها من توابل التجديد !

ورأت أمامها ، على مسافة قريبة ، سياجا عظيما أخضر – من الأشجار الممتدة من ضفة النهر الى الداخل – مستوى الحدود ، غير متعرج الاطراف .. سياجا رسمته يد الانسان فلم تترك للطبيعة عملا فيه ! ولم تكن الاشجار ذات فروع طويلة كالنخيل ، ومن ثم أخذت مسز ارماين تنظر اليها فى امعان ، فما

لبثت أن عرفتها ٠٠ وعندئذ قالت لابراهيم : « هذه بساتين البرتقال التى يمتلكها محمود بارودى ! » ٠٠ وكان جوابه : « بالتأكيد ! » ، وأخذ يتطلع نحو الاشجار ٠ وما لبث أن أردف بعد لحظة : « انها رائعة الجمال حقا ! » ٠٠ ثم تحول يخاطب حمزة فى سرعة ، بالعربيــــة ، فراح حمزة يجيبه فى طلاقة غريبة ٠٠ كان عندما يتحدث الى قومه يبدو وكأنه انقلب مخلوقا آخر ٠٠كان جموده القاسى ، الشبيه بجمود التمثال ، يذوب ويتلاشى ، وكان وجهـه يفىء بالتعبير ، وكانت تتدفق منه حياة متنوعة الاشكال ، كما تتدفق المياه عندما تطلق فى مجراها فجأة ! أما اذا ما خاطبته مسز ارماين ، فقد كان يستعيد جموده وهدوءه سريعا ، ويقتصر فى الاجابة على : « نعم » ، ثم تغـدو عيناه الشبيهتان بثمرتى اللوز ، كالحجب الكثيفة لا يمكن اختراقهـا أو استشفاف ما وراءها !

وفيما كانت مسز ارماين تسمعهما يتحدثان ، أخذت تسائل نفسها : «ماهى حقيقتهما ؟ » ٠٠ ولم يكن بوسعها ان تجيب عن هذا السؤال ، ولكنها كانت تستطيع أن تشم ـ على الاقل ـ فى هذا الجو ، رائحة التوابل ٠٠ عبيرا يفتح الشهية !٠٠ ولقد كانت يوما ، وربما عادت ثانية ، امرأة طائشة لا تقدر عواقب الامور ! الا انها كانت تحب تلك النكهة ، لانها كانت تجعلهـا تشعر ـ رغم التجارب العديدة التى مرت بها ـ وكأنهـا قد ظلت دواما فى عزلة ، تجرى حياتها على وتيرة واحدة ٠٠ كما لو انها كانت قد عرفت من الحيـاة أقل كثيرا مما كانت تظن حتى الآن انها تعرفه !

وبلغوا طرف بساتين البرتقال ، ثم مروا بينها وبين النيـل ، وما لبثوا أن انتهوا الى طريق عريض غير مرصوف يؤدى الى اليمين ، فراحوا يسيرون فيه حتى وصلوا الى منزل صغير يقع فى قلب البستان ، تضمه وحدة عذبة وهدوء رقيق ٠٠ وكانت تمتد منه ـ الى جميع النواحى المحيطة به ـ صفوف بالغة الانتظام من الاشجار الصغيرة الظليلة المحملة بالثمار٠٠أشجار غير باسقة الطول، ذات سيقان نحيلة وأغصـان متشعبة وأوراق لامعة ، انتشرت بينهـا الثمار ككرات صغيرة ، بعضها أخضر اللون ، وبعضـها فى الطريق الى ذلك اللون الذهبى ، وقليل منهـا قد غدا ذهبى اللون بالفعـل ٠٠ وكانت تتدلى فى مجموعات تبدو كأنها مجموعات من الثمار الصناعية ، اذ كانت بهية المنظر الى حد عجيب ٠ وكأنما كان النسيم الذى ملأ قلوع الفلوكة قد فقد الحياة ، أو لعله كان ملكا خالصا للنهر فقط ٠٠ فقد كان الركود يسود الجو فى هـذه البقعة ٠ وفى هذا السكون الدافىء ، كانت الثمار تنضج لتأتى بالذهب الى جيوب بارودى !٠٠ وكانت الارض المتغضنة تحت الاشجار ذات لون سنجابى داكن فى الظل ، بينما كانت فاقعة اللون تمتزج فيها السمرة الباهتة بالصفرة

الترابية حيثما تقع عليها أشعة الشمس

وترجلت مسز ارماين أمام المنزل ، الذى كان مطليا بلون وردى خفيف ، يكاد اللون الابيض أن ينبثق من خلاله ٠٠ وكان ذا طابق واحد ، وفى واجهته باب من خشب النخيل يؤدى اليه سلمان منخفضان ينحدران ذات اليمين وذات اليسار من شرفة صغيرة ٠ وكان بارودى قد ظهر عند الباب ، مرتديا حلةمن الفانلا ، وعلى رأسه الطربوش ، وفى يده مروحة كبيرة من سعف النخيل ٠ وابتعد حمزة بالحمار ، متجها به الى خلف المنزل ، وفى أثره ابراهيم ٠٠ أما مسز ارماين فقد مضت تصعد الدرج فى بطء ، حتى لحقت ببارودى فوق الشرفة ٠ ولم ينبس بكلمة ، فوقفت الى جواره فى صمت - لحظة من الزمن - وهى تتأمل بساتين البرتقال : كانت الدنيا تبدو كأنما غرست جميعها بالاشجار الصغيرة الجميلة ، التى كادت ان تكون - بين فصيلتها - غادات مدللة ، مزوقة ، حظيت بخير تنشئة وتربية ! وقد بعث نظامها ومظهر العناية البادى عليها - والذى كان شديد الروعة حقا - رجفة من النشوة فى ناحية ما من أعماق مسز ارماين !٠٠ كانت تلك الاشجار تبدو وكأنها عنيت بهندامها وأتقنت زينتها ٠٠ وكذلك كانت مسز بارودى ، منذ اليوم الذى التقت فيه ببارودى بين الجبال - أول مرة - فقد عادت الى عنايتها بطلاء وجهها ، اذ خشيت أن تكون مارى مخطئة فى رأيها عن جمالها ، ولو ان بارودى لم يكن فرنسيا ٠ وكانت مسز ارماين فى ذلك اليوم شديدة الابتهاج ، لانها لمتثق فى الطبيعة ثقة كاملة ٠٠ ففى وسط أشجار البرتقال هذه ، كانت تشعربأنها ليست غريبة ولا متطفلة !

وعندئذ ، رفعت خمارها وخاطبت بارودى قائلة : « ماذا تسمى هذا المكان ؟ ٠٠ هل له اسم معين ؟ » ٠ فأجاب : « هذه فيلا « ليلة الذهب » ! وانى أستعمل كلمة « فيلا » بمعناها الايطالى » ٠٠ فقالت : « نعم ، بلا شك ٠٠ ليلة الذهب ! ولكن لماذا تستعمل كلمة : ليلة ؟ » ٠ فأجاب : « لان الاشجار تضفى نوعا من الظلمة حول المنزل » ٠٠ وهنا قالت معقبة : « أما لقب : الذهب ، فانى أفهم معناه ! » ٠٠ فقال معلقا : « أجل ٠٠ انك تفهمين معنى الذهب ! » ٠٠ وحملق فى وجهها وهو يستطرد مبتسما : « انك تفهمينه ، كما أفهمه أنا الآخر ، ولكن ٠٠ ربما بطريقة مختلفة ! » ٠٠ فقالت : « أحسبنا نفهم معظم الاشياء وان اختلفت طريقتانا ! »

وكانا يتكلمان بالفرنسية - اذ أصبحا يتكلمان دائما بالفرنسية كلما كانا معا - وكانت مسز ارماين تفضل ذلك ٠ فقد كانت ، على نحو ما ، لا تبالى كثيرا بهذا الرجل « مترجما » الى الانجليزية !٠٠ وكانت تود لو استطاعت التفاهم معه بالعربية ، ولكنها كانت أكسل من ان تحاول تعلمها ٠ وما لبثت

ان أضافت : « ألا ترى ذلك ؟ » . فأجاب بهـدوء : « أظن ان طريقتى فى فهمك خير من طريقة مستر ارماين ! » . ثم أشعل سيجارة وأردف يقول : « أما طريقتك فى فهمى ، فلست أعرفها ! » ، فقالت : « وهـل أنا أفهمك على الاطلاق ؟.. هل تود منى ان أفهمك ؟ »

وخالت فجأة انها تواجه صخرة صلبة ، فانتابها شعور حاد من الانفعال والاستفزاز ، تلاه شعور آخر أشد رزانة وأكثر عزما وتصميما .. فما زال أمامها اليوم بطوله ، كما انها كانت فى عزلة مع هذا الرجل .. كانت قد ظلت أعواما برمتها تتخذ من فهم الرجال شغلها الشاغل ، اذ ما قيمة الجمال اذا لم تكن فى خدمته وصيفات من العقل والحكمة ؟!.. ولقد استطاعت بفهمها الرجال أن تكسب ثروات طائلة ، بددتها كلها .. كذلك استطاعت - بفهمها الرجال - أن تضمن لنفسها زوجا ، عندما ألمت بحياتها لحظة حرجة !..لذلك كان من السخف أن يأتى رجل ، هو على الاقل أشبه بطفل غرير - وهنـا تذكرت الساعات الصداحة والكرة المذهبة الراقصة - فيغرر بها ويراوغها ! .. ولو انها استعانت بقواها فلا بد انها قادرة على أن تقلبه باطنا ظاهراكما تقلب واحدا من قفازاتهـا ! ولسوف تفعل ذلك اليوم !.. ومن ثم فانهـا أشاحت عنه - قبل ان يجيب على سؤالها - واستطردت تقول : « منذا الذى يهتم بمثل هذه الاشياء على ضفاف النيل ؟ » .. وضحكت وهى تردف قائلة: « وعلى الاقل ، من من النساء الغربيات يمكن ان تهتم به ؟.. اننى شخصيا لا أبالى ، فقـد ثملت من شمسكم بمـا يكفينى ! » .. ثم رمقته بنظرة ، واستتلت تسأله : « هل سنتخذ مجلسنا فى الداخـل أم فى الخارج ؟ فى المنزل أم فى بساتين البرتقال ؟ » . فقال : « أيهما تشائين ! »

ولكنه تحول متجها الى الخارج ، فتبعته . وفيما كانا يهبطان الدرج ، بلغ مسامعهما صوت رجل من العاكفين على الشادوف ، قادما من مكان بعيد على النيل ، ليذكر المرأة بالنهر العظيم - الذى كان يبدو انه سـوف يفيض الى الابد فى حياتها بمصر - ويذكرها بضيق رقعـة الوجه القبلى ، ذلك الممشى الضيق بين جبال ليبيا وصحراء العرب . ووقفت ساكنة فى أسـفل الدرج تنصت الى الغناء . وكانت هنـاك فترة من الصمت ، ارتفـع على أثرها ذلك الصوت القوى من جـديد ، قادما اليهما عنيفا ، خـلال الممرات المنسقة بين الاشجار الصغيرة الجميلة . وتذكرت ان المرة الاولى التى رأت فيها الرجـل الذى طلقت بسببه ، كانت فى دار الاوبرا بلندن .. وان المسرحيـة التى كانت تمثل فى تلك الليلة - التى كتبها القدر لها - هى أوبرا « عايدة »، بأنغامها الشرقية ، ومناظرها على ضفاف النيل . وخيل اليهـا لحظة ان ذلك المصرى المتوارى عن أنظارها - والذى كان يدير الشادوف - كان يهتف بهما من مسرح لم تكن هذه الحديقة من البرتقال الا منظرا من مناظره الزخرفيـة

الرائعة (الديكور) !.. ولكن الخيال كان أتم وأوفى من أن يستطيع المسرح تصويره .. فقد انبثقت فيه الواقعية بلمساتها الغليظة الهائلة التى لايمكن دحضها أو تكذيبها ، حتى أحست بأنها كانت تمضى فى شىء كانت لحقيقته غرابة ذلك العجب المجرد ، الذى يخالطه الفزع أحيانا .. بل لعلها كانت غرابة أشد مما يمكن أن يوجد فى أعظم الفنون اتقانا !

ومع ذلك فانها كانت تمشى فى « فيلا ليلة الذهب » ، وهو اسم من الواضح أن « الطفل » صاحب الكرة المذهبة هو الذى أطلقه على ذلك الجزء من ممتلكاته .. اسم يمكن ان يتخذ له مكانا على أشد المسارح اغراقا فى التمثيل !.. كانت تدرك ذلك ، وتحس به ، وتسخر منه ، ومع ذلك فان عقلها كان يحتضن الاسم ويحتضن تلك الحاسة الكامنة فى بارودى ، والتى بحثت عن هذا الاسم وانتقته !.. وقالت أخيرا : « ما أكثر هذه المئات من أشجار البرتقال ! لسوف نضل بينها ! » .. وكان المنزل الصغير قد اختفى عن الانظار بين الاشجار .. فما لبثت ان أضافت : « الى أين نحن ذاهبان ؟ » . وكان جوابه : « اصبرى لحظة ، فسوف ترين ! »

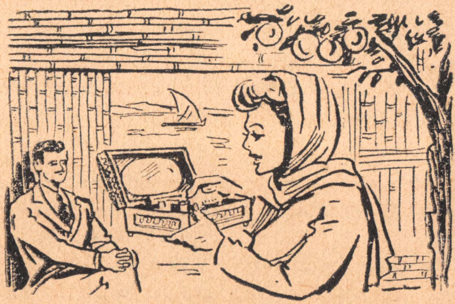
★ ★ ★

◆ ومضى يسير فى بطء بمشيته السهلة الثابتة ، التى كانت فى خفتها تنبىء عن قوة أحسن تدريبها .. ثم قال : « والآن ، الى اليمين ! » . وكان يسير الى يسارها ، فأطاعت اشارته . واذ استدارت فى اتجاه النيل ، رأت أمامها « تكعيبة » مرتفعة من الغاب (البوص) ، يحيط بها سياج من نبات الجيرانيوم البرى .. وكانت فتحة التكعيبة فى اتجاه النيل ، فلما وجتها ، لمحت بعيدا عنها - فى نهاية ممر بين أشجار البرتقال - ضفة النهر المتعرجة ، غير المستوية .. وكانت الارض الممتدة تحت بصرها متغضنة ، بينما كان خط الشاطىء يميل وينخفض . وعلى الرغم من انها لم تكن ترى المياه ، فان القلوع المثلثة العالية للمراكب الوطنية المتجهة صوب الجنوب كانت - فى أشعة الشمس - تتراءى لها على نحو غريب ، خلف الثغرات التى كانت تتخلل أوراق الشجر !

ونهض هدهد من مجثمه ، عند اقترابها ، فانطلق طائرا فوق الاشجار ، بينما كانت احدى القنابر « تصوصو » فى مكان ما . وعلى أرض التكعيبة ، فرشت سجادة صلاة ثمينة ، كما كان ثمة مقعد منخفض أعد خصيصا لها ، وأمامه وسادة لتضع قدميها عليها . واستقرت على منضدة أقداح القهوة التركية .. كما كانت على المنضدة علب من الفضة للسجاير والثقاب وبعض الحلوى اللينة المغطاة بمسحوق السكر - وقد بدت من خلال ألوانها الوردية

والعنبرية والخضراء الزمردية - (الملبن) ٠ وكان على حافة المنضدة ، تجاه المكان الذى وضع فيه المقعد ، صندوق جميل من الفضة المذهبة ، ذو غطاء كان عبارة عن مرآة ، فتناولته للتو قائلة : « ما الذى يوجد بداخل هذا ؟ » ٠٠ ففتح بارودى غطاء الصندوق ، وأراها فى رصانة ناثرة للبودرة ،وبعض المساحيق ، والكحل - مع أداة صغيرة من العاج تستعمل فى مصر لوضعه (مرود) - ثم زجاجة من ماء الورد ، وعجينة من الحناء ، وأخرى من سناج المصابيح (الهباب) ممزوجا بالزيت والجير الحى ، وغير ذلك من المستحضرات التى تستعمل فى الشرق عامة لزينة النساء ٠٠ فراحت تفحصها بدقة وامعان، ثم تطلعت اليه وهى تبتسم ، ذاكرة احتجاج نيجل الرقيق الحار !٠٠ نعم ، انها تستطيع أن تكون على سجيتها الى حد غريب مع بارودى ، ولكن عليها الآن أن تقلب هذا القفاز الطويل بطنا لظهر !

واتخذت مجلسها على المقعد ، ووضعت قدمها على الوسادة ٠ وكان بارودى قد تربع على السجادة ٠٠ ومن الطبيعى ان شكله بدا سخيفا - بل مضحكا - وهو يتخذ هذه الجلسة وقد ارتدى تلك الثياب الأوربية ! وجال هذا بخاطرها وهى تتفرس فيه من عل ، وقد أدركت انه كان فى الوضع الصحيح تماما ، شاعرا بالراحة والارتياح ٠٠ بل كان - على نحو ما - رشيقا فى جلسته ٠ واذ أدركت ذلك ، أحست بالسر الغامض فى كيانه الشرقى ، كما كانت فى بعض الأحيان تحس بالسر الغامض فى عقليته !٠٠ وقال أخيرا : « هل لك فى تناول القهوة بعد عناء الركوب طوال هذه المدة ؟ » ٠٠ فقالت : « أجل ، ولكن لا تنهض من مكانك ، فسأصبها بنفسى وأقدم لك قدحك » ٠٠ وقد فعلت ذلك بتلك الابتسامة الرشيقة التى أثرت فى نيجل ، بل وأثرت فى ماير ايزاكسون ٠٠ ثم رفعت خمارها ، وتناولت الصندوق المذهب فتطلعت الى صورتها فى



المرآة فى امعان وتفحص ، وأخذت نافرة البودرة وراحت تستعملها فى حذق وبراعة .. فلما ارتاحت الى هيئتها ، وضعت الصندوق جانبا ، ثم قالت وهى تمسه فى موضعه بجوار قدحها : « انه بديع » ، فقال : « هو لك ! » . واذ ذاك قالت : « اذن فسوف آخذه معى هذا المساء » .. وكانت تتمنى ان تكون فى مكان ما بجوفه ، ماسة كبيرة ، أو زمردة عظيمة .. فقد اضطرت الى بيع معظم حليها الثمينة عندما حلت بها الأيام السوداء فى انجلترا !

وقالت : « لا بد لى من سيجارة » .. وكانت كل من القهـوة والسيجارة لذيذة ممتعة . وكان دفء الجو يحيط ببدنها كغلالة من الحرير الناعم المصقول . وبلغ سمعها صوت خافت لين ، واذا ببرتقالة قد سقطت من أحد الفروع وسط زهور الجرانيوم القرمزية المتكاثفة . وما لبثت المرأة ان قالت لبارودى : « لم لا تتكلم ؟ » .. ولكنها قالت ذلك فى تراخ وقلة اكتراث . ترى هل كان غرضها قد بدأ يفتر فى هذا الصباح الذى خلق للاستمتاع بالأحلام ، فى هذه العزلة المترفة ، مع الرجل الصامت الذى لم يكف عن ان يرقبها فى امعان ؟!.. وما لبث ان أجاب عن سؤالها : « ولماذا ينبغى ان أتحدث اليك ؟ اننى لست كأولئك الذين يثيرون الضجيج دواما ، سواء أكانت فى سرائرهم كلمات تقال أم لم تكن ! ثم ما الذى تريدين ان أقوله لك ؟ »

وشرعت تقول : « حسنا .. » ، ثم أمسكت ، وتناولت المروحة المصنوعة من سعف النخيل ، والتى كان قد وضعها على المنضدة . وأردفت : «دعنى أفكر !» .. ترى كيف تنفذ اليه ؟ وما الطريقة المثلى ؟.. انها ـ لأمر ما ـ لم تكن تشعر بميل الى التخابث معه .. فكما انها أصلحت زينة وجهها أمامه ، كذلك كان فى وسـعها ان تضع الكحل فى أجفانها ، كما كان فى وسـعها ان تكون صريحة فى الحديث معه !.. يا لها من راحة ، بل يا لها من لذة حسية ، ان تفعل ذلك !.. ولقد حققتها فجأة ، وعلى أتم وجه ، اذ قالت : « من أى نوع أنت ؟ اننى أود ان أعرف » . وأخـذت تحرك المروحة فى رفق أو فى تراخ بالغ ، أماما وخلفا .. بينما أجاب هو : « ولكن فى وسعك أنت ان تخبرينى ، لأنك ترينني طول الوقت .. أما أنا فلا أستطيع ان أرى نفسى ، الا اذا نظرت فى المرآة ! » .. فقالت : « اننى لا أعنى ظاهرك يا بارودى ، بل باطنك » .. وبدت كما لو كانت تخاطب طفلا غريرا !

ـ ان الرجل الذى يطلع امرأة على كل ما فيه لا يكون ذكيا !
ـ ولكن الأذكياء غالبا ما يفعلون ذلك ، دون ان يدركوا انهم يفعلونه
ـ انك تفكرين فى رجالك الانجليز !

قال ذلك دون ان يبدو ساخرا هازئا .. فذكرت أول حديث تبادلاه منفردين ، فابتسمت وغمغمت : « الرجال الرفيعو المقام .. الحكام ! » . ولم يجب على

ابتسامتها ، بل استطرد يقول : « ان رجالك الانجليز يظهرون ما هم عليه دون ان يعنوا باخفاء شيء ٠٠ فاذا حدث ولم يرق لأحد ما هم عليه ، فذنبه على جنبه !٠٠ ان جزاءه ركلة بالقدم ، ولن ينال قرشا واحدا ! وهم مع النساء بالمثل ، كلا ٠٠ ليس هذا بصحيح » ٠ واستطرد كأنما يراجع نفسه : « انهم مع الرجال ، رجال مستعدون للركل ٠٠ ولكنهم مع النساء مجرد غلمان ! والمرأة تمسك بالغلام من أذنه » ٠٠ ومد يده اليسرى فوق رأسه حتى أمسك بأذنه اليمنى من أعلاها ، واستطرد : « هكذا ! ثم تقوده الى حيث تشاء ٠ وهكذا تقود المرأة الرجل الانجليزى ! ولكننا لسنا كذلك ! »

وكانت تحدق فى يده السمراء وهى تمسك بأذنه ٠٠ وبدا لها هذا العمل منه شاذا خارقا للمألوف ٠ لا مراء فى انه كان فى كل شيء على نقيض ما اعتادته وما ألفته !٠٠ ورفع يده عن اذنه ، بينما كانت تساله : « كم مرة رحلت فيها عن مصر ؟ » ٠٠ فأجاب : « انها ليست كثيرة ٠٠ ذهبت ثلاث مرات الى (نابولى) عند اشتداد الحر ، اذ كان والدى يقتنى فيلا فى (بوزيليبو) ٠٠ وذهبت مع والدى الى (فيشى) ، كما اننى ذهبت أربع مرات الى (باريس) ٠ كذلك ذهبت الى القسطنطينية ، وقمت برحلات الى سوريا »٠٠فسألته : «وهل ذهبت الى فلسطين ؟ » ٠٠ فأجاب : «الى القدس؟٠٠ لا ، فنحن لا نحج اليها » ٠٠ وكان يتكلم فى تحفظ ٠ وما لبث ان أضاف فى نوع من الزهو الهادىء ، وفى كثير من الاعتزاز والفخار : « ولقد ذهبت الى مكة ٠٠ طبعا ! »

فطاف بفكرها هذا الخاطر : « هل تظهر حقيقة الرجل خلال الدين الذى يعتنقه ؟ » ٠٠ ومن جديد شعرت ـ هى دون النساء جميعا ! ألا ما أعجب ذلك ! ـ بما فى دينه من سحر ٠٠ وقالت متعجبة : « الى مكة ؟ » ٠٠ لقدكان الرجال يجتازون الكثير من الصحارى حتى يصلوا الى الأماكن المقدسة ، فقد حدثها نيجل ـ ذات مساء ـ بشيء عن هذه الرحلة ، وكانت تشعر بالسأم والضجر من حديثه ٠ أما الآن ، وهى تنظر الى واحد من الحجاج ، ذهب مع « الكسوة الشريفة » ، فانها لم تعد تشعر بشيء من هذا الضجر ٠٠ بل استطردت تسأله فيما بدا انه خروج عن الموضوع ، وان لم يكن فى الواقع خروجا حقيقيا : « وحمزة ؟ هل هو خادمك ؟ » ٠٠ فأجاب : « انه مكارى من أبناء الاقصر ! »

ـ نعم ٠٠ ولكنى لم أكن أستخدم حماره من قبل ٠ انه لم يتول قيادة حمارى الا منذ ٠٠ منذ ان رحل زوجى ٠ وهم يقولون فى الاقصر انه من الدراويش حقا !

ـ انهم فى الاقصر يقولون أشياء كثيرة

ـ وهم يسمونه المكارى المصلى ٠ هل ذهب ، هو أيضا ، الى مكة ؟

فتغير وجهه قليلا • وضاقت عيناه ، واقترب طرفا حاجبيه •• ولكنه بعد لحظة قصيرة من الصمت أجابها قائلا : « لقد ذهب الى مكة ، معى •• على نفقتى ! » •• ولم تكن تعرف الكثير عن المسلمين ، ولكنها كانت تعرف ما يكفى لكى تدرك ان حمزة لم يكن خليقا بأن ينسى هذه المكرمة • ولقد اختار بارودى حمزة ليكون مكاريا لها •• واذ ذاك شعرت كما لو ان يدى الاسلام استقرتا عليها !•• وقالت فى بطء : « لا بد وان يكون حمزة حافظا لصنيعك هذا ! » •• ولكن بارودى لم يجب قط •• فحولت أنظارها فوق زهور الجيرانيوم البرية ـ على امتداد الدرب الذى كان يتخلل الأشجار ـ نحو الثغرة المفضية الى ضفة النهر ، فرأت شراعا مثلثا ينزلق جانبـا ثم يختفى وراء الأشجار ، متجها الى الجنوب •• وفى لحظة ، تلاه ثان وثالث ثم رابع •• وكان الرابع برتقالى اللون، فظلت تتبعه ببصرها هنيهة ، من وراء أوراق أشجار البرتقال •• الا ما أكثر المراكب المتجهة نحو الجنوب !•• وقالت : « ان المراكب كلها تتجه نحو الجنوب اليوم ! » •• فأجاب فى غير اهتمام : « لان النسيم يهب من الشمال »

ـ كم أود ان أذهب فى النيل جنوبا ••

ـ اذا ذهبت فلا بد لك من ان تستقل دهبية !

ـ مثل « اللولية » ؟•• ولكنى واثقة من ان « اللولية » لا مثيل لها على النيل !

ـ هل تظنين انك قد تحبين ان تعيشى بعض الوقت على ظهر « اللولية » ؟

فأومأت برأسها دون ان تتكلم • وتوالى المزيد من الأشرعة المثلثة ، كأنهـا الأجنحة • وكان تأثيرها عجيبا ، وهى تراها بهذا الشكل من مبعدة ، دون ان تتبين الأجسام التى كانت مثبتة فيها •• لقد كانت تبدو غامضة ، وكانت مسز ارماين شاعرة بغموضها • انها مع بارودى تشعر بالغـــرابة ، والغموض ، والخيال •• وهى أشياء اما انها كانت جاهلة لها ـ عادة ـ واما انهـا كانت تسخر منها صراحة خلال سنوات عديدة من حياتها •• فهل كانت تشعر بهـا لأنه كان يشعر بها بالمثل ؟!•• كان لا بد لهذا السؤال ان يظل بلا جواب ، حتى تعرف المزيد مما كان يشعر به !•• وقال أخيرا : « قد يكون الامر كذلك •• ربما عشت بعض الوقت على ظهر اللوليـــة ! » •• فتساءلت : « وكيف أستطيع ذلك ؟ ومتى ؟ »

ـ اننا نفعل فى حياتنا كثيرا من الأشياء التى اعتدنا ان نقول لأنفسنا اننا لن نفعلهـا قط •• ونحن غالبا ما نفعلها فى نفس الأوقات التى كنـا نظنها مستحيلة الوقوع !

فقالت : « ولكنك ترسم الخطط مقدما » •• فتساءل : «أو أفعل هذا حقا ؟» •• فأجابت : « نعم ! فهل رسمت خطة بشأن اللولية ؟ » •• وكانت تشعر

اذ ذاك بانه قد فعل .. بل كانت تشعر بانها حبيسة هذه الخطة ، كالفراشة فى شبكة الصائد !

ومر شراع برتقالى آخر . ترى هل يقدر لها يوما ان تبحر الى الجنوب على ظهر « اللولية » ؟.. وقال بارودى : « هلا ذقت هذا الملبن المصنوع من أوراق الورد ؟ » .. ودون ان يمس الأرض بيديه ، استوى قائما ووقف بجوار المنضدة .. فقالت : « بلى .. اعطنى قليلا منه .. قليلا فقط ! » .. فأخرج من أحد جيوبه مطواة صغيرة من الفضة ، ثم دفعها برفق واحكام دقيق ، فى الحلوى ذات اللون الوردى ، واقتطع منها جزءا أمسكه بين أصابعه السمراء ، ثم قدمه لمسز ارماين التى كانت ترقبه فى انتباه عميق .. ذلك الانتباه الذى توليه المرأة ـ فقط ـ لجميع الافعال التى يأتيها رجل يهتف جسمه بدعوة حارة لجسمها !.. وأخذت قطعة « الملبن » فوضعتها فى فمها

وفيما كانت تلوكها أغمضت عينيها . وما عتمت ان قالت : « والآن خبرنى: هل دبرت خطة ما بشأن اللولية ؟ » .. وكان وجهه ، وهو يتطلع اليها ، ينم عن اعراض عن الاجابة على سؤالها ، ولكنه كذلك لم يكن ينم عن انكار لما تسأل عنه . وقال : « عش يومك ، ولا تفكر فى غدك ! » .. فقالت : « هذه فلسفتى فى الحياة أيضا .. ولكن متى تفكر فى الغد اذن ؟ »

وعادت ـ من جديد ـ تفكر فى حمزة ، فخيل اليها انها ترى هذين الاثنين: بارودى وحمزة ، يرحلان معا للحج الأكبر ، ويعودان منه ـ ولعلهما عادا أشد ايمانا أو أكثر تعصبا ـ ليخطوا فى حياتها !.. واستطردت تقول : « أتعلم ان أحدكما ـ أنت أو مصر ـ له .. له .. » . ولم تتم عبارتها ، فقال فى غير اكتراث ظاهر : « ماذا ؟ » .. فكان جوابها : « له فى نفسى تأثير عجيب غير مفهوم ! » .. وضحكت فى تكلف ، ثم عبست وتنهدت ، بينما كان يرقبها فى امعان . وفى تلك اللحظة كان ثمة شىء يناضل فى أعماقها ، فى قوة ، كمخلوق ضئيل قلق يكافح فى عنف ، على دقة حجمه ، فى سبيل الخلاص من فخ وقع فيه !.. وخيل اليها ان اقحام حمزة فى حياتهـا بيد بارودى هو الذى كان يكربها ويضايقها فى دخيلة نفسـها . ومضت تقول : « اننى أعيش ليومى دائما . وهناك فى الانجليزية مثل يقول : كل ، واشرب ، وامرح ، لأننا فى الغد ... » . فتساءل فى لهفة : « فى الغد ؟ » .. فأتمت المثل قائلة : « فى الغد سوف نموت ! » .. وهنا سألها : « وهل يفزعك الموت ؟ » . وكان فى صوته ازدراء صريح ، فسألته : « أولا يفزعك أنت ؟ »

واذ ذاك تألقت عيناه بضياء لم تره فيهما قط من قبل..فان مثل هذا الضياء لا ينبثق أحيانا الا من مشاعل الايمان بالقضاء والقدر فحسب ، فيكشف عن حالة النفس البشرية .. ولكنه خبا قبل ان يتسع لها الوقت لتتأمله . وقال

بارودى : « ربما تحدثت فى مثل هذه الامور مع الرجال ، وليس مع النساء ! هل تحبين أوراق الورد ؟ » .. وامسك بمطواته مستعدا فوق الحلوى ، فقالت : « لا ، لا أريد شيئا منها .. انها لم تعجبنى كثيرا ، فان طعمها يثير نفسى . هل لك ان تجلس يا بارودى ! »

وأومأت بيدها نحو الأرض ، فاطاعها وجلس القرفصاء . كانت قد عقدت عزمها على ان تنفذ الى نفس هذا الرجل ، وها هى ذى قد نفذت بمحض المصادفة الى شىء فى نفسه .. فقد كان من الواضح انه من طراز أولئك المسلمين الذين يعيشون وهم على استعداد للاندفاع فوق الفولاذ البارد فى سبيل الوصول الى جنة مليئة بمباهج الجسد !

وكان خمولها واستغراقها فى الخيال فى هذا الصمت الصارخ لهذه الحديقة من البرتقال على حافة النيل .. كان خمولها واستغراقها فى الخيال قد شرعا يفارقانها . وعاد العاكف على الشادوف يرفع عقيرته بالغناء من جديد .. ومن جديد عادت تذكر ليلة من ليالى شبابها .. عادت تذكر اوبرا « عايدة » وتمرد طبيعتها . لقد عوقبت على هذا التمرد ، ولكنها لم تؤمن باله مهمته التهذيب والتعليم ، وانما آمنت بدنيا تعرف كيف تصب الاحتقار !.. ترى هل يمكن ان يحل بها العقاب مرة ثانية ؟.. لقد كان من الغريب انها ظلت سنين برمتها تتحدى الرأى العام، ولكنها منذ ان تزوجت ثانية بدأت تتجه خفية من جديد ـ وهى لا تكاد تشعر بذلك ـ نحو الرغبة فى استرضائه !.. وربما كانت تلك عادة غريزية جبارة عاودت من جديد عملها فى نفسها . ولقد أحست اليوم ـ وهى فى أواسط حياتها ـ بشىء مما كانت تحس به فى ذلك الحين ، وهى فى أوج شبابها .. فعندما التقت للمرة الاولى ـ فى دار الأوبرا ـ بذلك الرجل الذى دمرت حياتها من أجله فيما بعد ، كانت جاذبيته الضارية قد هوت عليها كلطمة قوية وجهتها يد شديدة العزم .. ولم تفقدها هذه اللطمة الوعى الى حد التبلد، وانما اهاجت مشاعرها نحو حياة محمومة ! وها هى ذى ـ بعد هذه الأعوام ـ قد تلقت لطمة أخرى . ومن جديد ، عادت الحياة المحمومة تتواثب فى أعماقها . ولكن ما أكثر ما مر بها بين اللطمتين من تجارب واسعة ، وما أكثر ما ضيعته من حسن ظن الدنيا بها !.. وفى هذا الصمت العميق الذى كان يخيم على حدائق البرتقال ، راحت تسمع همس النذير لها !.. وكانت تتوق الى ان يعاود الفلاح صياحه حتى يطغى صوته على ذلك الهمس المروع ، ولكنه حين انبعث ثانية ـ بعيدا وعاليا ، من الممر المتد بين الأشجار ـ بدا لها شبيها بصوت ذلك النذير ، وقد ارتفع فجأة يهددها ويحذرها .. وخيل اليها كذلك انها تسمع وراءه ، من بعد سحيق ، صوت العالم ـ الذى كان عالمها ـ يصيح مرة أخرى ليجللها بالعار ! وعندئذ أحست بالخوف من نفسها لحظة ، وكأنها

كانت تقف على مبعدة من الشر الكامن فى نفسها ، تنظر اليه وترى ، فى عجب ممزوج بالفزع ، مدى قدرته وقوته !

فهل تنطلق ساعية وراء العقاب من جديد ؟ ولكن كيف يمكن ان تعاقب ثانية ؟.. لقد أصلتها الدنيا بأسوأ ما لديها ، ومن ثم فانها فقدت سلطانها عليها .. كانت الذراع التى لوحت لها بالسوط قد لوحت به حقا الى أقصى مدى لقوتها ، فلم تعد لديها من مزيد تخشاه وتخافه من البطش !

وعند هذا الحد من تفكيرها ، انتصب طيف نيجل أمام بصيرتها ! وفى ذلك الهدوء الساحر الذى غمر الحديقة المستلقية على حافة النيل ، كانت ثمة عاصفة هوجاء تتلاطم فى أعماقها ، بينما جلس بارودى عند قدميها ، بلا حراك ، لا يحس ولا يتأثر .. وعيناه الجامدتان اللامعتان لا تكفان عن التحديق اليها فى امعان .. وقالت بغتة : « لسوف يعود زوجى عما قريب ! » .. فكان تعليقه : «وعما قريب سأرحل فى النهر نحو الجنوب ، الى أرمنت .. ومن أرمنت الى اسنا .. ومن اسنا الى كوم امبو ، ثم أسوان » .. فخيل اليها انها تسمع دبيب الحياة وهى تتسلل منها الى مناطق الجنوب ! وشعرت كأن أطواقا من برودة الفزع تحيط بها وتطوقها . واستطرد بارودى مغمغما : « هناك فتاة فى أسوان تشبه القمر ليلة تمامه ! » .. فايقنت مما فطر عليه الرجل من تحرر شامل ، وأحست بحرارة كحرارة النار تكتسح الاطواق الباردة .. ولكنها قالت وهى تبتسم : « ولماذا لا تبحر الى أسوان ؟ »

- فى الوقت فسحة . وفتاتى لن تغادر أسوان ما لم أصرح لها بالرحيل !

- وهل هناك أقمار أخرى فى أرمنت واسنا وكوم امبو ؟

وكانت تبدو وكأنها تضحك منه ساخرة ، ولكنه لم يبال ، بل قال : « فى اسنا ؟ كلا .. وفى كوم امبو ؟ كلا » .. فتساءلت وقد زحفت الى صوتها المتراخى حدة مفاجئة : « وفى أرمنت ؟ » . فقال : « هناك فرنسيون فى أرمنت .. وحيثما يأتى الفرنسيون تأتى النساء الصغيرات ! » . وتذكرت الحجرات الصغيرة الأنيقة على ظهر « اللولية » .. لقد كان يمتلك منزلا عائما .. وحرية عائمة ! وفى تلك اللحظة ، كرهت الدهبية وتمنت لو انها ارتطمت بصخرة فى النيل تمزقها اربا !.. ولكنه سيعوم فوق النهر الى الجنوب الذهبى ، بينما ترحل هى شمالا الى خيمة فى الفيوم !.. ولم تستطع الاحتفاظ بجسمها ساكنا فى المقعد ، الا بصعوبة بالغة .. وتناولت أحد الصناديق الفضية وراحت تشدد الضغط عليه بأصابعها .. فسألها : « هل لك فى مزيد من حلوى أوراق الورد ؟ » .. ولكنها أجابت : « لا .. لا ! » ، ثم أسقطت الصندوق من يدها ، فأحدث ارتطامه بالمنضدة صوتا جافا

- ينبغي أن أبقى في أرمنت عدة أيام ، فلا بد لى من رعاية مصالحي الخاصة

بالسكر هناك

ــ آه ! السكر ! ربما كان زوجي يعتقد انك لا تفعل شيئا سوى رعاية مصالحك ، ولكن يجب ألا تفترض ان امرأة ٠٠٠

فهتف : « امرأة ؟ ماذا ؟ » ٠ وكان جوابها : « لقد تبينت منذ البداية انك تحب اللهو ! » ٠ وتناولت المروحة ثانية ، بينما كان يقول : « منذ البداية ؟ ٠٠ متى كان ذلك ؟ » ٠٠ فأجابت : « على ظهر الباخرة « الهوهنزلرن » طبعا» ٠٠ واذ ذاك قال : « اما أنا فقد أدركت ٠٠ أدركت ٠٠ » ٠ وتريثت لحظة وهو يبتسم في وجهها ، فتساءلت : « ما الذى أدركته ؟ » ، فاجاب : « آه ! أدركت أننى أستطيع أن أفهم شيئا عن النساء ٠٠ عندما يسمحن لى ٠٠ وقد سمحت لى أنت فوق « الهوهنزلرن » ٠٠ أليس كذلك ؟ » ٠ فقالت : « لم يحدث‌انني خاطبتك على انفراد اذ ذاك ! » ٠٠ فقال : « لم يكن هذا بالأمر الضرورى ٠٠ لم يكن ضروريا على الاطلاق ! » ٠٠ فهتفت : « أجل ٠٠ اننى أعرف ذلك ! »

وكانت تحترق ٠٠ كان كل جسمها يحترق ٠٠ بالغيرة من ماضيه ! وكلما نظرت اليه ، خيل اليها كانما كان ثمة من ينفخ فى اللهب ، فينبعث منه مزيد من الحرارة ، ويلفحها بشواظه ، ويشويها شيا ، فى فظاعة كانت تزداد وتشتد !٠٠ ان رجلا كهذا ، رجلا شرقيا ، غير مقيد بشىء قط ، وبلا راى عام ــ وكانت في هذه اللحظة تتمثل لندن فتراها مليئة بالراى العام ٠٠ لندن « الحنبلية » ! ــ يزدريه ويقيد حركاته ٠٠ ما الذى ينبغى أن تكون عليه حياته، فى هذا المناخ ؟٠٠ وما الذى ستكون عليه حياته ؟٠٠ وهب شىء ما فى داخلها ، وثار ضد هذه الحرية وهذا التحرر ، فأحست فى أعماقها بالم يكاد لا يطاق ٠٠ الألم الذى تحسه امرأة لم تعد شابة بعد ، ولكنها لا تزال قوية ، طافحة بالحياة ، تغار غيرة ضارية ، جسدية ، على شاب لم يكن لها عليه أية حقوق !٠٠ آه ! لو انها فقط كانت أصغر سنا مما هى بعشرين عاما ! ولكن ٠٠ حتى وهى كذلك الآن !٠٠ واتكأت بذراعها على المنضدة فى تراخ ، وراحت تنظر فى غطاء صندوق الزينة الذى منحها اياه ، فاذا التعبير الذى بدا فى العينين اللتين راحتا تتطلعان الى عينيها من غطاء الصندوق ، يجعلها تجفل وتقلق !٠٠ أين كانت تجاربها ؟٠٠ انها لتخجل من نفسها !٠٠ وان البراءة والبداوة الساذجة أمران لهما قيمتهما مع هذا الرجل ، ولكن لكل شىء حدودا ، فلا يجب ان تتجاوز هذه الحدود الا اذا كانت‌تقصد أن تفعل ذلك، والا اذا عرفت انها سوف تفعل ذلك ٠٠ وما عاشت العمر الذى عاشته منذ طلاقها دون ان تكتشف ان أعظم خطوة رعناء تأتيها امرأة غيور ، انما هى فى اظهار غيرتها ٠٠ وقد أثبت لها ذلك أزواج نساء أخريات الى أبعد مدى ، عندما كانت هى قبلتهم !

ــ طبعا ٠٠ فانت تعرفين الكثير عن الرجال !

قال بارودى ذلك فى يقين هادىء ، وكأنه يعرف كل شىء عن ماضيها !٠٠ وللمرة الأولى طاف بفكرها هذا السؤال : « أتراه سمع عن مسز تشبستو الذائعة الصيت ؟٠٠ ترى هل كان يعرف شيئا ؟ » ٠٠ كان ذلك جائزا ، فقد زار اوروبا ، وعاش فى باريس ٠٠ وهو يقرأ الانجليزية ، ولعله قد قرأ العديد من الصحف الانجليزية ٠ وقالت فى تأن : « هل تراك سمعت يوما عمن تدعى « بيللادونا » ٠٠ (ست الحسن) ؟ » ٠ وكان صوتها ينم عن عدم الاكتراث، ولكن عينيها كانتا ترقبانه فى امعان شديد٠٠ فتساءل : « بيللادونا ؟ ٠٠ ولكن أية امرأة جميلة يمكن ان تكون هى ؟ » ٠٠ فقالت : « وهل سمعت قط عن مسز تشبستو ؟ » ٠٠ وكان جوابه : « كلا » ٠٠ وراح يحدجها بأنظاره وهو يستطرد : « من هى ؟٠٠ وهل هى تفد على القاهرة فى الشتاء ؟ »

فايقنت انه لم يسمع شيئا عنها ، ولكنها لم تكن على يقين من انها ابتهجت لذلك ، فان شهرتها كانت من نوع ربما استهواه وأثار اهتمامه ٠٠ وكانت حيرى ، متلهفة على ان تعرف ٠٠ كانت تتوق الى ان توجه اليه الكثير من الأسئلة عن آرائه فى النساء ، ولكنه لم يكن ـ بلا شك ـ خليقا بأن يقول الحقيقة ٠٠ كما ان الرجال يكرهون بطبعهم ان تستجوبهم النساء !٠٠ وعاد يسألها : « أهى تأتى الى القاهرة ؟ » ٠ فأجابت : « انما جاءتها مرة واحدة فقط » ٠ وهنا هتف : « اأنت بيللادونا ؟ » ٠٠ فكان جوابها : « كان خليقا بك ان تعرف ذلك ! » ٠٠ واذ ذاك قال : « أجل ، هذا صحيح ٠٠ انك « بيللا دونا » ، ولكنك لست « دونا أونيستا » ٠٠ انك ست الحسن ، ولكنك لست ٠٠ ست الشرف ! »

ولم تستنكر هذه الملاحظة أو يستبد بها الحنق بسببها ٠٠ كانت هذه الملاحظة الجارحة التى وجهها اليها ـ فى رصانة ومواجهة ـ تكاد تكون ساذجة ، فقد كانت واثقة كل الثقة من ان بارودى لن يقدر امرأة قط لأنها شريفة !٠٠ وعادت تتوق من جديد الى التلميح له بشهرتها ، والسمعة السيئة التى اكتسبتها ، والتى كانت مع ذلك نوعا من الصيت الذائع ٠٠ فقالت : « انهم ٠٠ فى أوروبا ، يدعوننى غالبا بيللا دونا » ٠٠ فتساءل : « فى أوربا ؟ » ٠٠ قالت : « فى انجلترا ٠٠ فى لندن » ٠٠ فقال : « لقد أصابوا ٠٠ ولسوف أدعوك هنا على ضفاف النيل ٠٠ بيللا دونا ! »

قال ذلك فى غير اهتمام ٠٠ ولكن شيئا ما فيها تهلل طربا !٠٠ ومع ذلك فقد قالت، بل انها لم تملك الا ان تقول: «والقمر ليلة تمامه ؟٠٠ أعنى فتاتك؟ »٠ فسألها : « ما شأنها ؟ » قالت : « أهى « بيللادونا » ؟٠٠ أهى سيدة جميلة ؟» ٠٠ فأسبل جفونه ، وأرخى نظراته الى الارض ٠٠ بينما استطردت هى تقول : « لست أسألك ان كانت سيدة شريفة ! » ٠٠ فأجاب : « انها فى السادسة

عشرة ٠٠ وهي راقصة » ٠٠ فقالت ، وهي تبذل جهدا غير قليل : «لقد فهمت!»
واطبقت شفتيها في شدة ، واخلدت الى الصمت ، وهي تفكر في عودة نيجل، ثم رحيلها معه الى الفيوم ، بينما يمضي هذا الرجل صوب الجنوب ، في بيته العائم الملىء باسباب النعيم والرفاهية ٠٠ لقد كانت مصممة على أن تعيش ليومها ، ولكن متى قدر لأية امرأة تكويها نيران الغيرة ان تعيش ليومها فقط ؟!٠٠ ان الغيرة تزج بنفسها في الماضي والمستقبل ، فتسأل الأول عما كان ، وتسأل الآخر عما سيكون !٠٠ أما هي فسوف يحتويها قماش احدى الخيام ، ليصبح جدران سجنها !٠٠ لماذا ؟٠٠ لماذا قيدت نفسها بهذا الرباط ؟ ٠٠ لقد كانت ، منذ شهر واحد ، في حرية مطلقة ، وكان في مقدورها الذهاب الى الجنوب على ظهر « اللؤلؤة » !
واحست بوخز أليم في جسمها كله ، وهي تثور ضد هذا النير الذي وضعته على عاتقها بمشيئتها ٠٠ ولكنها عندما تكلمت ثانية، بدا صوتها هادئا متراخيا : « أحسبك لن تظل فوق النيل الى الأبد ؟ » ٠٠ ومن جديد اطبقت اصابعها ، في حركة آلية ، على أحد الصناديق الفضية ، بينما قال : « كلا بالتأكيد ، فسوف أعود الى أسيوط ، ثم القاهرة والاسكندرية ، والدلتا أيضا » ٠٠ فتساءلت : « والفيوم ؟٠٠ أليست لك أملاك هناك ؟٠٠ أليست من أغنى المناطق في مصر ؟ » ٠٠ فتطلع اليها ثم ابتسم وهو يمط شفتيه الغليظتين قليلا ، وقال : « ما أراه عملا حكيما ٠٠ حتى لو استطعت الذهاب الى الفيوم ! »
وكان قاسيا في تضييق الخناق عليها الى هذا الحد ٠٠ فاجابته في رصانة : « انما كنت أعني أن نصائحك في شئون الزراعة المصرية قد تكون ذات قيمة بالغة لزوجي » ٠٠ وكان في نظرته ، وصوته ـ حين تكلم ـ شيء بدا فجأة كأنما كان يشدها ثم يردها : « آه ! هذا حق ٠٠ فان مستر أرمين سوف يأخذ بنصيحتي ، لأنه في بعض النواحي ليس انجليزيا قحا » ٠٠ فقالت : « اذن فسوف يكون كريما منك أن تأتي الى الفيوم وان تقدم له نصائحك المثمرة » ٠٠ فمال نحوها وقال : « ان بيلادونا ليست شديدة الدهاء ! » ٠٠ فسألته وفي صوتها رنة خفيفة من التهكم : « وهل تظن ان الدهاء ضروري الى هذا الحد ؟ ٠٠ انني لا أدري في الواقع لماذا ٠٠ » ٠ فضاقت عيناه حتى أصبحتا مجرد شقين يتألق من خلالهما ضوء أصفر ، وسألها وهو يقطع عليها حديثها : « متى ترحل وصيفتك الفرنسية ؟ »
فتململت ومكثت تنظر اليه برهة دون ان تجيب ٠ ترى هل قرأ ما جال بخاطرها هذا الصباح ؟٠٠ واخيرا قالت : « وصيفتي ؟ ماذا تعني ؟٠٠ ولماذا ينبغي ان ترحل ؟ » ٠٠ ولكنه كرر سؤاله : « متى سترحل ؟ »
كان قاطع الطريق قد عاد الى الظهور فيه فجأة ٠٠ وقالت : « يا لسخف

الفكرة !٠٠ انني لا استطيع المضي في حياتي بلا وصيفة ! » ٠٠ وكانت لا تزال ماضية في التظاهر بالدهشة الممزوجة بعدم الاهتمام ، بينما انبعث من أعماقها صوت غامض ـ صوت لا تكاد تعرفه ـ يهمس اليها : « عليك بالمقاومة » ٠٠ أما هو فقد عاد يسألها مرة أخرى ، وكأنه لم يسمعها : « متى سترحل ؟ »

وكان الرجل الذى يعمل بجوار الشادوف قد كف عن الصياح ٠٠ ولم تعد مسز ارماين ترى ، فى نهاية الممر الطويل الضيق ـ بين فجوات الأوراق المدببة اللامعة ـ تلك الأشرعة المثلثة وهى تنزلق على صفحة الماء ٠٠٠ وكان اختفاء الاصوات الصائحة والأشرعة المثلثة يجعل حديقة البرتقال تبدو وكأنها بمعزل ، فى نهاية العالم القصوى ! وكان سكون الظهيرة الذهبى يلف الحديقة بما يشبه حلة زاهية ، وشيت أهدابها وحواشيها بحمرة الجيرانيوم ، والخضرة اليانعة ، والصفرة التى تتحول رويدا الى لون ذهبى٠٠ ولكنها فى هذا السكون كانت تحس بأنها فى حاجة الى النضال ، اذا شاءت أن تسكن دار السلامة والأمان ، وان هذه الحلة الزاهية التى تحيط بها فى رفق ولين ، تبدو ناعمة الملمس ، ولـكن ٠٠ ألم تكن ـ فى الوقت ذاته ـ مهلـكة قتالة ، كقميص « نيسوس » ٠٠ ولن تلبث سمومها ان تتغلغل فى أطرافهـا ، وتزحف حتى تصل الى أعماق روحهـا ؟!٠٠ قد يكون السؤال عن رحيل وصيفتها او عدم رحيلها أمرا تافها ، ولكنها شعرت بأنها اذا قاومت مشيئته فى هـذا الأمر ، فسوف تنتصر فى معركة حاسمة ، وتنال السلامة من خطر مصلت فوق رأسها، على حين انها لو خضعت فى هذا الأمر فسـوف تخضع كل ارادتها لمشيئته وارادته ٠٠ ومن ثم هتفت لنفسها : « لن أخضع قط ! »

وعندئذ نظرت الى قاطع الطريق الجاثم بجوارها ، فأحست بشىء فى أعماقها، يبدو انه كان لب أنوثتها ، يتوق فى حرارة الى الخضوع والاستسلام ! ٠٠ لقد كانت ترغب فى التخلص من مارى ، وقد قررت فى هذا الصباح نفسه ـ من تلقاء نفسها ودون ان يحثها أحد على ذلك ـ أن تطرد مارى ٠٠ فكم يكون من غير المعقول اذن ان تأبى ذلك لمجرد انه هو أيضا كان يرغب فى ذهاب الفتاة !

وسألته فى بطء ، وقد استقرت أنظارها عليه : « لماذا تريدها على ان تذهب؟ وفيم يمكن ان يهمك ان كانت تذهب أم تبقى ؟ » ٠٠ واكتفى بأن راح يرمقها بانظاره ، وقد اتسعت عيناه ، ثم انطلق ضاحكا ٠٠ وتناول سيجارة أخرى ، فأشعلها ، ثم عاد يضحك من جديد فى هدوء ، ولكن فى استعذاب حقيقى لادعائها الجهل ، ولنفاقها الشفاف الفاضح !٠٠ وعلى الرغم من ذلك فقد أمعنت فى اصرارها ، فقالت : « لست أرى كيف يجوز لشىء كهذا ان يكون ذا شأن بك ، أو ان يهمك على الاطلاق ! » ٠٠ فقال : « لسوف أحصل لك على وصيفة تفضلها ؟ » ٠٠ فتساءلت ساخرة : « لعلك تقصد ٠٠ حمزة ! » ٠٠ وسـألها

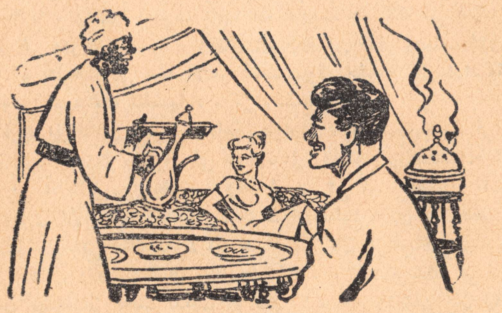
متحديا : « ولم لا يكون حمزة ؟ »

ونظر اليها ثم أخلد الى الصمت · ومن جديد ، انتابهـا شعور بالخوف والرهبة ·· كان هنـاك شيء مميت مروع ، يتصل بهذا المكارى المصلى ·· وما لبث بارودى ان قال : « متى ترحل هذه الفتاة ؟ » ·· ففتحت مسز ارماين شفتيها لتقول : « انها لن تذهب على الاطلاق » ، فاذا بها تقول : « اننى أعتزم التخلص منها خلال الأيام القليلة المقبلة ·· فقد كنت دائما أنوى التخلص منها » ·· فهتف : « أحقا ؟ »

– انها فى الواقع ليست وصيفة بارعة ·· فهى لا تفهم أساليبى وطرائقى !

فقال بارودى فى هدوء : « أو لعلها تفهمها أكثر مما ينبغى !·· اننى – عندما ترحل – أحرق قطعة من الشب على الفحم ، واعطيها لكلب أسود ليأكلها !··فان لهذه الفتاة عينا شريرة ! »

الفصل العشرون



• **عندما** انقضى وقت الظهيرة ، ورقدت الأرض فى رقدة الشمس الملتهبة ، قدم بارودى الى مسز ارماين – فى المنزل الذى تحيط به بساتين البرتقال – وجبة مصرية أو « الغدا » على صينية مستديرة من الذهب البراق ، كانت موضوعة فوق حامل منخفض ، مطعم بقشور السلاحف ، ومحلى بعدد

كبير من مربعات الصدف الصغيرة .. وعندما دخلت مسز ارماين مع بارودى الى الحجرة التى كانت معدة لتناول الطعام، كانت الصينية قد تم اعدادها فى موضعها ، وجهزت بمناشف من الحرير الأبيض ، وأرغفة مستديرة من الخبز الأصفر ، وشرائح من الليمون .. وكانت الجدران مزينة بسجوف من الحرير الأخضر اللامع ، والذهبى الكابى(غير اللامع) ، والأحمر العميق القاتم .. وتناثر على الأرض عدد آخر من الطنافس الثمينة التى يبدو أن بارودى كان يملك منها معينا لا ينضب، كما كان البخور يحترق فى أحد الأركان . وكانت تحيط بالجدران تلك الأرائك المنخفضة المعهودة . ومن خلال نافذة متسعة ـ كانت مصاريعها الخشبية المتأرجحة مفتوحة قليلا ـ رأت مسز ارماين اشجار البرتقال الساكنة تبدو كأنها لوحة فنية !

وجلست على كومة من الوسائد الحريرية كانت قد وضعت خصيصا لها فوق الطنافس .. وفيما كانت تسوى ثوبها وتستقر فى جلستها ، انبعثت من خارج المنزل مباشرة أنغام موسيقى قومية بدائية ، على الأرغول ، ترافقها دقات طبل من الفخار ، وما لبث أن انضم اليهما للتو صوت عال متهدج يغنى : « دوز ياللى !.. دوز ياللى ! »

وفى اللحظة نفسها دخل أيوب الى الحجرة فى خفة وسكون ، وقدم لبارودى ـ الذى كان يجلس فى مواجهة مسز ارماين ، ملصقا ركبته اليسرى بالسجادة ورافعا اليمنى وقد وضع منشفته فوقها ـ « طستا » من النحاس المطروق ، ذا غطاء صغير ، وابريقا نحاسيا .. ومد بارودى يديه أمامه ، فأخذ أيوب يصب الماء فوقهما فينساب الى داخل « الطست » خلال الثقوب التى كانت تتخلل الغطاء .. ثم جعل بارودى من يديه ما يشبه قدحا استدارت فوهته الى الأعلى ، فتلقى

فيه المزيد من الماء ونقله الى فمه . وراح يتمضمض فى عناية ثم بصق الماء فوق غطاء الطست .. وحمل أيوب الطست والابريق الى الخارج ، بينما جفف بارودى يديه فى منشفته ثم غمغم بعبارة ، هى « بسم الله » ، ولكن مسز ارماين لم تكن تعرفها .. فقد جلست فى مكانها ساكنة بلا حراك ، وكأنما لم يكن يراها أو يحس بوجودها أحد . **كانت تصغى الى الصوت المتهدج ، ودقات الطبل ، وأنغام الارغول .. وكانت تشم رائحة البخور ، وتشعر كشخص يقف عند أحد الأبواب ويسترق النظر من خلاله الى عالم غير معروف أو مألوف !**

وعاد أيوب بعد ذلك مباشرة ، فشرعا فى تناول الطعام ، الذى كانت تصاحبه الموسيقى دواما : قدم أيوب لهما حساء أحمر ، ثم « قاورمة » ـ لحم مطبوخ فى مرق دسم كثيف مع بصل صغير الحجم ـ ثم ورق العنب المحشو بخليط لذيذ من اللحم والأعشاب ، وسلطة اللبن بالخيار ، وطيورا صغيرة الحجم تخترقها أسياخ من الفضة ، ثم « سبانخ » ، وأخيرا فطائر مقلوة من دقيق القمح مشربة بالعسل .. وكانت مسز ارماين قد اعطيت سكينا وشوكة وملعقة ـ كلها من الفضة ـ كما كانت الأطباق من الفضة كذلك ، مما لم يكن منسجما تماما مع الصينية الذهبية .. أما بارودى فكان يستخدم أصابعه فقط ، مع قطع من الخبز ، فى تناول الطعام .. وكانت مسز أرماين جائعة ، فأقبلت على الطعام بشهية فائقة .. ولم تكن تعرف شيئا عن الطهو الشرقى ، ولكنها كانت خبيرة بالأطعمة ذواقة لها ، فأدركت ان طاهى بارودى فنان ملهم فى مهنته . ولم يقدم لها ـ خلال الطعام ـ شىء من المشروبات التى ألفتها . ولكنها لم تكد تفرغ منه حتى أحضر لها أيوب قدحا جميلا من الذهب ، أو الفضة المذهبة ـ اذ أنها لم تعرف أيهما ـ وصب فيه ، فى رصانة ووقار ،

قدرا قليلا من سائل ما .. فسألت بارودى : « ما هذا ؟ » . ولكنه اجابها بقوله : « اشربى ! » .. فرفعت القدح الى شفتيها ورشفت جرعة من .. الماء ! واذ ذاك هتفت فى نبرة من الدهشة والامتعاض معا : «آه !» .. فقال بالعربية الدارجة :

« اللى يشرب موية النيل عواده ! »

ـ ما معنى هذه العبارة ؟

ـ من يشرب ماء النيل لابد أن يعود اليه !

فابتسمت ورفعت القدح الى شفتيها ثانية ، فرشفت آخر قطرة من الماء .. وقالت : « ماء النيل ؟ لقد فهمت ! »

ـ وسوف تتناولين الآن بعض « الشربات »

وخاطب أيوب بالعربية ، فمضى هذا بالقدح ، ثم عاد بكوب طويل من الزجاج الرقيق ، وبعد أن وضع على ذراعه اليمنى منشفة جميلة مطرزة ، أخذ يصب فى الكوب ـ من دورق ضيق العنق من الخزف ـ سائلا كان لونه يميل الى الخضرة الناعمة كالمخمل .. فتساءلت مسز ارماين : « أهذا شربات حقا ؟ » . فقال بارودى : «انه شربات مصنوع من البنفسج» .. فعادت تتساءل : «وكيف يصنع ؟» . فأجاب : «بأن تهصر زهور البنفسج وتخلط بالسكر حتى يتكون منهما مزيج يغلى على النار مدة طويلة » . وظل أيوب واقفا بجوارها وهى ترشف الشراب ، حتى اذا ما فرغت قدم لها المنشفة المطرزة فمستها بشفتيها .. وقال بارودى : « هل أعجبك ؟ » ، فأجابت : « انه غريب جدا .. ولكن كل شىء هنا غريب حقا ! »

وأحضر أيوب الطست والابريق لسيده ـ مرة أخرى ـ فغسل بارودى يديه ومضمض فمه كما فعل قبل الغداء .. وبعد الانتهاء من هذه « المراسم » غمغم ثانية بكلمة أو عدة كلمات ، ثم استوى قائما على قدميه ، وتناول يد مسز ارماين اليسرى فى يده اليمنى ، ثم قادها الى الأريكة .. وأحضر

أيوب القهوة ، ورفع الصينية الذهبية ووضع القهوة على صينية أصغر حجما ، فى مكانها ، بعد أن نقل الحامل الى مقربة من الأريكة ، ثم حمل الصينية الذهبية فى حرص بالغ وخرج بها من الحجرة .. **واذ اختفى عن الانظار ، كفت الموسيقى فى الخارج عن العزف فى اقتضاب مفاجىء ، وكأنها بترت بترا ، دون أى تمهيد لانتهاء اللحن ، مما يجفل له أى شخص أوروبى !..** ولكن الصمت المفاجىء الذى تلا ذاك مزقه طائر يغرد فى مكان ما بين أشجار البرتقال ، وتبعه للتو طائر آخر يجاوبه .. فقال بارودى فى صوت عميق متئد ، كأنما يخاطب نفسه : « انها تغرد تسبيحا بحمد الله ! »

فسألته : « هذه الطيور ؟! » .. وتطلعت اليه فى عجب ، بينما كان يرمقها بعينين تفيضان بالوجوم ، وهو يقول : « انك لا تعرفين هذه الاشياء ! » .. فأحست فجاة بأنها أشبه بطفل جاهل غبى ، أو كشخص لا يستحق العلم والمعرفة !

* * *

• **ومضى** بارودى يرشف قهوته .. وكان وقتئذ يجلس بجوارها على الأريكة ، على الطريقة الأوربية ، فزاد وضعه هذا من صعوبة تقبلها لعقليته الغريبة ، اذ بدا لها كشاب هائل القوة ، ومع ذلك شديد المرونة ، بالغ الملاحة ، قوى العزيمة ، كان يمكن أن ينتمى الى أحد شعوب جنوب أوروبا .. بل انه حتى وهو يضع الطربوش على رأسه ، لم تكن هيئته تنم على أنه شرقى لا يخطئه الظن !.. ومع ذلك فقد كان هذا الرجل يحدثها ، فى جد ظاهر تماما ، عن الطيور التى تغرد ويجاوب بعضها بعضا بالتسبيح بحمد الله !.. وقالت : « كان ينبغى أن ترتدى زيا آخر !» .. فسألها : « كيف ؟ » . فأجابت : « كان ينبغى أن ترتدى ثيابا مصرية ، لا الفانلا الانجليزية !» ..

فقال كأنه يطمئنها : « سترينني كذلك يوما ما .. فانى غالبا ما ارتدى القفطان فوق « اللولية » فى الليل »

ـ فوق اللولية فى الليل ؟.. اذن كيف يمكن أن أراك فيه بحق السماء ؟

وكانت تتكلم فى انفعال حاد مفاجىء .. فقد خيل اليها اليوم أن زواجها من نيجل كان مصلتا فوقها كالسيف ، قد يهبط عليها فجأة ، فيطرحها أرضا ، قبل أن تستنفد كل طاقتها من السعادة !.. ولكن بارودى قال فى هدوء : **« السوف ترينني فى سروال من التيل الأبيض ، وفى الصدرية ، والقفطان و « الجبة » ـ بكسر الباء ـ أو « الجبة » ـ كما كان ينطق بها أبى ، بتعطيش الجيم وضم الباء ـ والعمامة على رأسى .. فقط يجب أن تنتظرى قليلا ، وان كانت النسـاء يكرهن الانتظار فى سبيل لذة أو متعة .. انهن دائما فى عجلة ! »**

ولم تثر فيها هذه الأنانية الباردة ـ التى تقبل بها اعجابها به وعلق عليه ـ شيئا من الغضب ، بل نوعا من الاحترام الممزوج بالعجب .. كأنما كان ذلك جزءا من قوته ! ورفع حاجبيه ، ثم دفع رأسه الى الوراء ، كاشفا عن عنقه القوى الجميل .. وبنفس الحركة التى لاحظتها منه فى حديقة « فيللا اندرود » ، دس أصبعيه داخل ياقته المنخفضة اللينة ، وظل محتفظا بهما كذلك وهو يستطرد : « أنهن كالأطفال ، ويجب ان يعاملن كالأطفال ! ولكن فى وسعهن أيضا ان يكن بارعات عندما يردن الخداع ! أننى أعرف ذلك ، فهن يستطعن أن يكن ماكرات كالثعالب ، خفاف الحركة ، سريعات كالغزلان !.. **ولكن كل مايفعلنه ، وكل ماهن عليـه ، ليس الا من أجل الرجال .. فما خلقت النساء الا للرجال ، وهن يعرفن ذلك ويدركنه حق الادراك ، بحيث لا يفكرن الا فى الرجال فحسب .. اننى أؤكد لك ذلك! »** .. فقالت ـ وهى تتقبل تصريحاته

بابتسامة : « لاشك أن هذا صحيح ! »

ـ والنساء يجرين حتى وراء خيال الرجل ، اذا لم يحبسن خلف أسوار من حديد !

فانطلقت مسز أرماين ضاحكة ، وقالت : « ولذلك فانكم معشر الشرقيين تضعونهن دائما هناك! » . فهتف : « **حسنا .. ألسنا حكماء فى ذلك ؟ .. ألسنا أكثر حكمة وتعقلا من الاوربيين أمثال مستر أرمين ؟** » .. وأصابها اقحامه اسم نيجل الفجائى بصدمة خفيفة ، فأحست ـ للحظة عابرة ـ بما فى هذا الاقحام من ذوق فاسد أجفلت منه حتى اخلاقها التى لم تكن خالية من الشوائب ! ولكن هذا الاحساس ما لبث أن تلاشى لمجرد تذكرها نشأته الشرقية .. فقالت : « وأنت ؟ .. الا يمكن أن تثق فى امرأة قط ؟ » . فأجاب فى هدوء : « أبدا ، فالنساء كلهن سواء ! اذا رأين شبح الرجل فلابد ان يجرين خلفه ! انهن لا يستطعن أن يتمالكن أنفسهن ! » .. فأجابته قائلة لتفحمه : « كأنى بك تنسى أن الرجال يجرون منذ الأزل خلف أشباح النساء ! »

وجالت بخاطرها حياتها الخاصة ، وكيف كانت موضع العبادة والملاحقة . ومع أن الباعث على ذلك لم يكن طيبا صالحا ، الا انه على أية حال .. ولم تسترسل فى تفكيرها الصامت ، اذ رغبت فى أن يعرف بارودى كل هذا ، ولكنه بادر قائلا : « ان الرجال يفعلون ذلك ليرضوا النساء .. كما تعطين الطفل ـ كى ترضيه ـ حرباء مربوطة فى خيط !.. ضعى الخيط فى يده ، فاذا الطفل سعيد راض !.. وهكذا الشأن مع المرأة ، مع فارق بسيط ، هو أنها لا تريد الخيط ، وانما تريد طرف القفطان ! » .. **وخيل الى مسز ارماين ، وهى تصغى الى بارودى ، انها قد اقصيت الى الأبد عن المكان الذى اعتادت منذ مدة طويلة ان تشغله .. فقد كان هذا**

الرجل ينشد ــ ضمنا ــ اعجابها ، ويتقبله ، بدلا من ان يقدم لها اعجابه بها ! ومع ذلك ، فقد كان هو الذى استقبلها بتحية غنائية على النيل فى الليلة الأولى لحضورها .. وكان هو الذى ابتاع حمزة وابراهيم ، وهو الذى رغب ثم جهد فى التعجيل برحيل نيجل ، وهو الذى قرر أن مارى يجب أن ترحل .. وماء النيل !.. بأى عزم قوى أعطاها اياه لتشربه !.. ثم ان لديه خططا للمستقبل .. خططا كانت تبدو وهى تتجمع حولها فى صمت ، وفى رفق ، أشبه بالسحب تغير منظر دنياها !

انها لم تقلب هذا القفاز باطنا لظاهر بعد !

وشعرت بأنها يجب أن تبدل من خططها واساليبها ، وان تضاعف من المحافظة على اعتبارها ، وان تفر من المركز المتواضع الذى يبدو أنه كان يضعها فيه عن عمد وتدبير .. فاين ذهبت كبرياؤها .. حتى ولو كانت كبرياء غانية ؟! .. وهنا رفعت قدحها فأفرغت ما فيه من القهوة فى جوفها ، ثم وضعته ثانية وبدأت تلبس أحد قفازيها الطويلين الأبيضين .. واستمر بارودى يدخن سيجارة فى هدوء ، فتناولت القفاز الثانى .. وعندئذ صفق بيديه فى حدة ، فدخل أيوب للتو ، وخاطبه بارودى باللغة النوبية ، وعلى أثر ذلك اختفى فى سرعة وخفة .. ولبست مسز أرماين قفازها الثانى ، وقالت : « آن لى أن أعود الى المنزل »

* * *

• **وتحركت** تزمع النهوض ، ولكن حركتها توقفت عندما دخل الحجرة خلسة رجل نحيل ، يرتدى ما لاح لها أنه قطعة من الخيش .. وكان عارى الذراعين ، والصدر ، والساقين ، والقدمين ، ذا رأس نحيل مدبب حليق عند مقدمته ، تزين

مؤخرته خصلات من شعر أسود ملبـــد مثقل بالدهون ، انسدلت حتى كتفيه .. وكان يمسك فى يده ـ التى كادت ان تكون سوداء اللون ـ بعصا قصيرة من جريد النخيل .. وفى سمة من الغموض والخفاء المفرطين ، الممتزجين بالمكر والخبث ، راح يزحف حول الحجرة ملاصقا للجدران ، وهو يصفر حينا ويقرقر كالدجاج حينا آخر ـ على التعاقب ـ مطأطئا رأسه متفرسا فى الأرض ، ثم رافعا اياه محملقا فى السقف ! وكان قد صوب نحو مسز أرماين نظرة حادة عند ما دخل الى الحجرة ، ولكنه بدا وكأنما نسيها للتو ، واستغرق بكليته فى مهمته الغامضة .. وبعد ان طاف عدة مرات حول الحجرة ـ على هذا النحو ـ توقف بغتة ، كأنه كلب صيد وجد طريدته ، ثم جذب من داخل اسماله الغليظة جعبة متغضنة من جلد حال لونه ، ذات فوهة واسعة ، وصاح ببضع كلمات فى صوت عال وحشى ، ثم قفز الى أعلى وأصاب السقف بعصاه .. واذ ذاك ، سقط فى الجعبة ثعبان طويل !

وأطلقت مسز أرماين صيحة من الدهشة، وليس من الفزع، اذ أنها لم تكن تخاف الثعابين !.. بينما مضى الدرويش يزحف حول الحجرة كمـا فعل أول مرة ، وهو يهتف بمزيد من الكلمات ، ويقرع الجدار بعصاه .. فسقط فى الجعبة ثعبان آخر ـ أو بدا كأنما سقط فيها ـ من مكان خفى بين السجوف الحريرية .. ومن جديد عاد الرجل يزحف حول الحجرة ، ويهتف بالكلمات ، ويقرع الجدران ، حتى يتلقى ثعبانا آخر !.. وفى تلك اللحظة اندفع الى الداخل صبى صغير أسود العينين، رفع يده الى جبينه بالسلام .. وعندئذ مضى الدرويش والصبى ـ بمصاحبة موسيقى بدائية انبعثت من الخارج ـ فى ممارسة ألوان من ألعاب الشـعوذة وترويض الأفاعى ، وهى مناظر مألوفة فى الشرق ، وان كانت لا تفتأ تثير اهتمام الشرقيين دواما ، وتستحوذ على ألباب الكثيرين من السائحين

والمسافرين .. فلما انتهت ، سلم الصبى الصغير بالطريقة نفسها ، وانطلق يعدو الى خارج الحجرة ، ولكن الموسيقى ظلت مستمرة فى عوائها القوى .. وعندئذ تقدم الدرويش ، ممسكا بجعبة الأفاعى ، حتى وقف أمام مسز أرماين ساكنا بلا حراك !

وللمرة الأولى ركز عليها عينيه الماكرتين الضاريتين — اللتين كانتا محتقنتين — فى نظرات ثابتة كأنما يريد أن يخضعها لقوته المغناطيسية ، أو أن يملأ نفسها بالرعب المميت .. ولكنها قابلت نظراته بهدوء وثبات ، ومدت يدها نحو الكيس ، فى حركة تنم عن رغبتها فى تناول الأفاعى ، فقرب الدرويش جعبته منها فى بطء — وهو لايزال يحدجها بأنظاره المتفرسة الوحشية — حتى كادت تلتصق بهـــا وهو يمسكها تحت صدرها .. فامتلأت خياشيمها برائحة عفنة غريبة ، أشبه برائحة شيء مفرط القدم .. وترددت لحظة ، وما لبثت أن نزعت قفازيها ووضعتهما بجانبها فوق الأريكة ، ثم استوت قائمة ، ودفعت يدها اليمنى فى عزم داخل الجعبة ، وقد أغمضت عينيها فى الوقت نفسه .. أغمضتهما لتستغرق فى الاستمتاع الى أقصى حد بشعور جديد عليها كل الجدة !..

والتقت يدها بشيء حى ، جاف الملمس ، يتلوى..فأطبقت عليه يدها فى ثبات ، ولكن فى رفق ، ثم جذبته الى الخارج نحوها .. وفى تلك اللحظة فتحت عينيها ، فرأت أنها قد أخرجت من الظلام ثعبانا أسود اللون ، مرقطا بلون برتقالى كالح .. وكان يتلوى فى يدها ، وكأنه يحاول الفرار ، ولكنها ظلت ممسكة به فى ثبات ، فبدأ يخلد الى الهدوء ، ويتطاول بعنقه الى أعلى ، ويرتد برأسه المنبعج الى الوراء ، ويرمقها بعينيه المضطربتين الطافحتين بالاثم ، كعينى أى مخلوق عريق فى الاجرام لا يمكن أن يحس بندم أو توبة !.. ونظرت الى هاتين العينين فأحست بعطف قوى — نحو ذلك المخلوق —

مجرد من كل شعور بالخوف على الاطلاق .. وفى حركة بطيئة ، راحت تدنيه منها ، وتدنيه ، ثم تدنيه ، حتى انفلت من يدها متمايلا مترنحا ، وبلغ جسدها

وظل الدرويش واقفا أمامها ، ولكن التعبير الذى كان يشع من عينيه تغير ، فلم يعد مغناطيسيا رهيبا ، وانما انقلب الى انتباه عميق ! وكان بارودى جاثما فى مكانه على الأريكة ، ساكنا بلا حراك ، وقد أخذت نظراته تنتقل من مسز أرماين الى الثعبان ، ثم ترتد اليها ثانية .. أما هى فكانت سعيدة راضية مطمئنة ، وهى تشعر بأن هذين الرجلين قد ركزا حواسهما كلها فيها .. والتف الثعبان حولها فى سرعة وخفة ، متعلقابخصرها ، ثم اندفع بالجزء الأعلىمنه ناحية الدرويش ، مطلقا لسانه الشريطى الذى كان يهتز ويتلوى أشبه بشىء رخو فى مهب تيار من الهواء .. وجعل يهبط ويعلو عدة مرات ، فى حركة منتظمة ، وكأنه كان يجهد فى اطاعة عواء الموسيقى والانهماك فى الرقص على أنغامها .. واذ انبعثت نغمة حادة طويلة ، ارتفع بالجزء الأعلى من جسمه ، حتى أضحى رأسه محاذيا لأذن مسز أرماين ، وظل كذلك وهو يتمايل فى بطء من ناحية الى أخرى ، فى مرونة مقيتة مروعة تثير الاشمئزاز .. ثم كفت الموسيقى عن عوائها الرهيب ، وخيم السكون لحظة . **وعندئذ اندفع الدرويش ، فى حركة وحشية ــ فيما بدا ــ عن غيرة لم يعد يستطيع كبحها ، فقبض على عنق الثعبان على قيد بوصتين من رأسه ، ثم انتزعه بعيدا عن مسز أرماين .. وعاد الوميض الرهيبالى أساريره ، وقد أضيفت اليه نار متأججة تنذر بنية انتقامية !**

وراح يضغط بابهامه على ظهر الثعبان .. وكأنما مسه خبل ، اذ مضى يدمدم فى نبرات خافتة متحشرجة ، وينحنى الى الخلف ثم الى الأمام ، مطوحا بخصلات شعره الملبد فوق وجهه ، ثم رادا اياها بعيدا عنه . واخذ جسمه ينقبض

ويتقلص ، ثم شد قامته فى عنف الى أقصى طولها ، بينما كانت قدماه العاريتان تؤديان نوعا من الرقص البدائى .. **وعندئذ بدا كأنما تملكته نوبة حادة من الجنون الوحشى ، اذ أحنى رأسه فجأة ، وفغر فاه ، الذى تدفقت منه فقاقيع الزبد ، ثم أطبقه على رأس الثعبان فقضمه !** .. وألقى بالجثة بعيدا عنه ، وهى مازالت تتلوى وتنبض بالحياة ، وأخرج صوتا يدل على المضغ ، وهو يعمل فكيه فى قوة واطراد . وما لبث أن اندفع برأسه الى الأمام نحو مسز أرماين ، وفغر فمه ثانية ليريها أنه أضحى خاليا ، ثم تناول جعبته من الأرض ، واندفع الى خارج الحجرة دون جلبة أو ضوضاء !

ووقفت تنظر الى الثعبان الملقى على السجادة عند قدميها – جثة بلا رأس – ثم قالت لبارودى : « خذه بعيدا ! » .. فالتقطه من الأرض ومضى الى النافذة ، فألقى به فى حديقة البرتقال ، ثم عاد ثانية ووقف بجوارها ، فقالت : « ياللوحش الرهيب ! » .. وكانت تتكلم فى غضب بالغ .. **فقد شعرت – عندما انقض الدرويش على الثعبان – كما لو كانت هى هدف الهجوم ، وبدا لها أن قتل الثعبان كان بمثابة اعتداء عليها هى !.. ولم تستطع – حتى بعد أن ذهب القاتل ، وطوحت جثة القتيل الخالية من الراس خارجا – ان تتخلص من هذا الاحساس .. كانت مشاعرها تفيض بغضب عميق يتوق الى ما يلطفه ويخفف منه**

وتحولت الى بارودى وهى تهتف به : « كيف تركت هذا الوحش يفعل ذلك ؟.. وكيف استطعت أن تجلس وتسمح بوقوع شىء مقيت كهذا ؟ »

– ولكنه أتى الى هنا ليفعله .. انه أحد طائفة السعدية !

– وهل كان سيفعله ولو لم أتناول الثعبان بيدى ؟

فقال : « طبعا » .. ولكنها صاحت : « لا أصدق هذا .. انه انما فعله لأنه غضب من الثعبان ، اذ لم يؤذنى واستسلم

لقبضتى ! » . فقال فى هدوء : « ليكن ذلك .. فما قيمته ؟ » . فرمقته بنظرة ، ثم جلست ، وقد سرى من غضبها ذلك التعبير الذى لاح فى عينيه .. تلك النظرة الجديدة التى استطاعت أن تقرأها وتستشفها .. **ترى هل كانت هذه النظرة وليدة الشجاعة التى أبدتها هى مع الثعبان ؟ .. وراحت تسائل نفسها عما اذا كانت بهذا العمل ـ الذى اقدمت عليه بدافع خفى ـ قد أمسكت بشىء فى أعماقه كان حتى ذاك الحين ـ على مابدا ـ يروغ ويتملص منها ؟ .. ومع ذلك ، وعلى الرغم من تناقص غضبها ، فان شعورها بأن اعتداء شخصيا قد وقع عليها ، لم يتلاش منها تماما ..** وسألته : « أهناك حقا من يأكلون الثعابين غيره ؟ » .. فأجاب : « بالطبع .. طائفة السعدية ! »

ـ وهل هذا الرجل واحد منهم ؟.. لقد كره منى أن أمسكت بالثعبان !

ـ أما أنا فلم أكره ذلك !

ـ أحقا ؟

عندئذ قوى شعورها بأنها قد امسكت بشىء فى أعماقه كان يتملص منها حتى الآن .. ومضى يقول فى رقة ذكرتها برقة ابراهيم الباسمة ، وان كانت أقل صبيانية منها : « هل لك أن تجلسى لحظة فى هدوء ؟.. لسوف أجلب لك متعة جديدة يزول لها كل مابك من غضب ، كما تزول الأمواج من النيل عندما تخمد أنفاس النسيم ! » .. فتساءلت : « وما هى ؟» .. واذ ذاك أفعمت عيناه بنوع من السعادة الماكرة ، أو المكر السعيد ـ كالأطفال ـ وقال : « اجلسى هناك ، وسوف تعرفين » .. ثم غادر الحجرة ، وما لبث أن عاد بعد لحظة يحمل صندوقا كبير الحجم ، ملفوفا بعناية فى ورق مفضض .. وفكرت باديء ذى بدء فى أنه سوف يقدم اليها هدية أخرى، لعلها حلية ثمينة !.. ولكنه حين أزال الورق المفضض فى

حذر ، فتح حقيبة من الجلد الأحمر ، وكشف عن صندوق للموسيقى ، وضعه فى رفق على منضدة القهوة ، وانحنى فوقه ، ثم أداره .. فسمعت (طقة) ، تلاها طنين خافت ، وما لبثت أن تناهت الى مسمعى مسز أرماين -- فى نشوة وطرب ـ أنغام لحن قديم من احدى أوبرات « أوبير » التى عفا عليها النسيان . وكان مطلع الأغنية : « تعال فوق البحر المتلألىء بضوء القمر ! »

وكان التحول من جو « السعدى » الملىء بالدروشة البدوية، الى هذه التفاهات الرنانة الناعمة ، قد عبث بأعصاب مسز أرماين وأخرجها عن اتزانها .. فغمغمت : « أواه، يا بارودى! » .. وأخذت شفتاها ترتجفان ، فأشاحت بوجهها .. وكان الجهد الذى تبذله كى لا تفشى طربها ـ الذى كاد أن يكون هستيريا ، والذى اقترن برغبة حارة فى ان تدلل هذا الطفل العملاق ـ يوشك ان يخنق أنفاسها .. وانبعثت طقة جديدة ، ثم توقفت الموسيقى .. وسمعته يقول : « انتظرى لحظة ! » .. ورن صوته فى رصانة ، كصوت طفل يقدر ـ كل التقدير ـ قيمة ماكان يفعل .. ثم « طقة » جديدة .. تلاها لحن «باريجى أوكارا»

واستطاعت مسز أرماين ان تسيطر على مشاعرها ، فأخذت نفسا عميقا ، وتحولت مرة أخرى نحو بارودى .. كانت فى وجهه القوى الجرىء علائم الغبطة والجذل ، فكأنه غلام غرير !.. ونظرت اليه ، فاذا بطربها وحنانها يتلاشيان ، ويعاودها من جديد ذلك الشعور الذى أحست به فى « فيللا أندرود » .. كأن أطواقا من الخوف كانت تحيط بها .. فان المتناقضات البالغة فى هذا الرجل ، مقترنة بكمال جسمه ، كانت تجعله ـ فى أعتبارها ـ ذا جاذبية وسحر لا يقاومان .. **كانت فيه حدة كاملة تروق لقابليتها الداعرة ، التى أضحت متقلبة الأهواء ، قلقة ، بعد الأعوام الطويلة التى قضتها فيما**

كانت تزعمه لهوا .. لقد كان - عندما تكلم عن الموت منذ دقائق - قدريا غامضا جادا .. ولكنه انقلب الآن طفلا غريرا شهيا .. وان كان طفلا فى هيكل رجل يفيض بهاء!.. وانبعثت طقة جديدة من صندوق الموسيقى ، ثم لحن « سـالفى ديمورا » وسألها : « أأنت الآن أحسن حالا ؟ » . فأومأت برأسها ، واذ ذاك اردف : « لقد اشتريته من نابولى ! »

ورفع الصندوق بين ذراعيه القويتين السمراوين ، وأدناه منها .. ولم يبد فى أساريرهماينم عن ارتياب فى أن طربها قد يكون عن هزؤ وسخرية منه .. كان من الجلى أنه ايقن من أنها كانت تحس بالسعادة كما كان هو يشعر بها . ومضى يقول : « انك تسمعينه الآن أكثر جلاء ! » .. فأومأت برأسها ثانية . وما لبثت ان قالت فى همس دون ان ترفع عينيها عنه : « قربه من أذنى ! » .. فأطاعها . وما ان لمست يده أذنها ، وأحست بخشونتها الدافئة ، حتى تنهدت

وانتهى لحن « سالفى ديمورا » ، فغمغمت : « هل من لحن آخر ! » .. وظلت تطلب « آخر » ، و « آخر » ، حتى انتهت مجموعة ألحان الصندوق ، وعندئذ حملته على أن يدير ثانية لحن « تعال فوق البحر المتلألىء بضوء القمر » . **وكان قفازاها موضوعين على الأريكة بجوارها ، فلم تلبسهما ثانية .. بل انها لم تتناولهما .. الى أن خفت وقدة الشمس، ومالت أشعتها .. وكان الصندوق الموسيقى قد ظل ساكنا مدة طويلة .** وقالت أخيرا : « يجب أن أنصرف ! » . ورفعت يديها الى شعرها الذى اختل نظامه ، وعادت تقول : « أجل ، يجب أن أذهب ! » .. ونظرت الى ساعتها ، ثم هبت قائمة وهى تستطرد : « لكم تأخر الوقت! .. أين ابراهيم؟ » . فبدا وجه ابراهيم البسام فى النافذة .. وهتفت به قائلة : « الحمار يا ابراهيم ! أريد الحمار حالا ! » .. فهتف : « سيكون لك كل ما تشائين ! »

ثم أومأ برأسه ، كأنما يؤكد هذا القول لنفسه ، وهو يغض ببصره الى الأرض ، وتابع كلامه : « ان حمزة على استعداد .. ان حمزة مكارى طيب جدا ! » .. فقالت : « حسنا .. ها أنا ذى مقبلة ! » .. فحياها ابراهيم ، وما زالت الابتسامة تضىء وجهه ، ثم اختفى عن الأنظار ، فمشت مسز ارماين الى النافذة ، وراحت تتطلع الى الخارج: كان الغروب قد حل ، وبدأ البهاء السماوى الذى يقترن بهذه الساعة السحرية ، فى هذه البلاد ذات الجو الخلاب ، يهبط على المنزل المنعزل ، وعلى بساتين البرتقال العظيمة التى كانت تحيط به .. وكانت أرض الممرات الجافة تتألق بوهج رقيق، بينما غدت جذوع الأشجار النحيلة أشد غموضا وخفاء .. وكانت الأوراق وما تحتضنه من كنز الثمار — فى سكونها الشامل — مليئة بالآمال الخفية ، بينما كانت الأطيار التى سكنت بينها تتبادل التغريد الرقيق فى التسبيح بحمد الله !

كانت مسز أرماين تنظر الى الخارج ، وتصغى الى الأطيار ، بينما كانت الشمس تغوص فى الغرب الذى لم تكن تستطيع أن تراه .. وما لبث ان حان وقت المغرب ، أولى صلوات المساء المفروضة على المسلمين .. **وتمنت لو أنها لم تكن مضطرة للذهاب .. كانت تود ذلك وتتمناه فى حدة ، وفى ضراوة ، بحيث فزعت لرغبتها هذه كأنها شبح انبعث امامها فجأة ليواجهها ! .. كانت تتوق الى أن تبقى فى هذا المسكن بين البرارى ، وأن يدركها ليل النجوم الافريقيه فى « فيلا ليلة الذهب »** .. وسمعت وقئذ صوت الفلاح صاحب الشادوف يرتفع من بعيد ثانية ، ينذرها ولا ريب بالرحيل .. أو لعله لم يكن يطلب اليها سوى البقاء ! .. وكان من الغريب أن تلك العاطفة القديمة الميتة ، التى غيرت حياتها وشوهتها ، قد عادت الى الظهور خلال تفكيرها فى هذه البلاد! .. لقد كانت تناضل قيودها وأصفادها فى بادىء الأمر ، ولكنها

ما لبثت فى النهاية أن استسلمت اليها ، وغدت أسيرة لها ، ثم أصبحت أمة من أمائها !.. كانت اذ ذاك شابة صغيرة ، أما الآن فانها قادرة على أن تتبين فداحة المصير الذى ينتظر مثل هذه الجارية التى لم تعد شابة صغيرة بعد ! .. ومن جديد، عاد الفلاح يصيح بها من النيل ، فكان صوته يبدو لها الآن وكأنه ينذرها حقا بأن عليها أن تنسحب ــ قبل أن يفوت الأوان ــ من بين يدى الاسلام ! .. قبل أن يفوت الأوان .. بينما لا يزال فى الوقت فسحة !

وكانت من الاستغراق فى التفكير فى نفسها وفى مخاوفها ورغباتها بحيث أن شطرا منها كان قد نسى وجود بارودى بالقرب منها ، بالرغم من أن شطرا آخر منها كان يفكر فيه حقا .. ولعلها كانت ــ اذ ذاك ــ تعتبره كعامل من العوامل المؤثرة فى حياتها ، لا كرجل يقف فى الحجرة التى كانت توليها ظهرها .. كان العالم الخارجى ، بحديقته ذات الأشجار الحالمة ، واضوائه المتالقة والخابية ، وأصوات طيوره ، وذلك الصوت البعيد المنبعث من النيل ، قد ملك عليها حواسها مخاتلة وغدرا ، وان كان قد ضن عليها بالسكينة والسلام : ذلك لأن العاطفة عندما تبدأ ــ ولو لم تكن من نوع رفيع مثالى ــ فانها تنبض بالحياة فى طبيعة من الطبائع .. اذ أنها لا توقظ القوى الجسدية فحسب ، وانما توقظ قوى أخرى أشد غرابة وأعمق أغوارا .. قوى ربما قل استغلالها ، أو ظلت مهملة ردحا طويلا .. **قوى تتصل بالجمال الذى لم تصنعه يد البشر .. قوى ذات شذى وأضواء وأصوات لا تحن للرجل ولا تشتاق اليه ، ولكن الرجل هو الذى يأخذها الى معبده المقدس ، لتكون ملك يديه وحده ، فى تلك اللحظات التى يكون خلالها فى أوج حيويته !**

ولكن العالم الخارجى حل به الآن دخيل اقتحمه ليحطم سحره وفتنته ، وليزيد فى نفس تلك التى كانت تطل عليه

خلال النافذة تأثير الروعة والرهبة . فما أن سكت صوت الفلاح، وتحركت مسز أرماين – وهى جادة فى اعتزامها الفرار – فاذا بها تسمع نداء يردد اسم الله وراء البساتين ، داعيا الى الصلاة .. واذ ذاك أنبأها شىء ما فى أعماقها بأن أوان الفرار قد ولى ، وانها تركته يفوت دون وعى منها ، وان اليدين اللتين كانتا تلمسانها الآن ، لن تلين قبضتهما عليها حتى .. حتى ماذا ؟

ولم تجب على هذا السؤال ، ولكن .. عندما صاح الفلاح مرة أخرى من بعيد ، خيل اليها انها تسمع رنة انتصار وحشية تدوى فى صوته !

الفصل الحادى والعشرون



◆ بعد أسبوع تلقت مسز ارماين برقية من القاهرة ، تقول :
« سأسافر الليلة ، فأصل غدا صباحا . لك حبى – نيجل »
وكانت تتوقع مثل هذه الرسالة ، فقد كانت تعلم أنها لابد آتية . ومع ذلك فانها أحست – عندما أحضرها لها حسن فى الحديقة ، حيث كانت تجلس اذ ذاك – كما لو انها تلقت لطمة على رأسها !.. وانتظر حسن بجانبها فى هدوء ، حتى أشارت اليه بيدها – فى حركة يكاد يخالطها العنف – تنبئه بأن البرقية لا تتطلب ردا .. فلما انصرف ، جلست لحظة وقد نشرت البرقية على

ركبتها ، ثم صاحت تنادى ابراهيم ، فاقبل يتخطر بين شجيرات الورد ، ملبيا نداءها . واذ ذاك قالت له : « لقد جاءتنى برقية من القاهرة » .. وتناولت الورقة فارته اياها .. وقال الغلام : « هل سيدى ارمينيجيل .. هل هو عائد الى هنا ؟ » .. واذ اجابت : « نعم » ، قال فى لهجة من الارتيـاح الفاتر : « انباء طيبة جدا .. انباء لطيفة جدا حقا »

– لسوف يرحل الليلة ، فيكون هنا عند وصول القطار السريع صباح غد

واجاب ابراهيم متملقا : « هذا شىء جميل جـدا .. فان مولاى قد طال بعاده وسوف يسر لرؤيتنا ثانية ! » .. فرمقته بنظراتها ، ولكنه لم يكن ينظر اليها ، بل كان يحدق فى اتجاه النهر ، وهو يدير زهرة بين اسنانه فى رصانة هادئة ، احست بها وكأنها كانت تخزها وتزجرها .. ولكن ما الذى يهمه فى ذلك ؟.. لقد كان بارودى يدفع له ، وكان نيجل يدفع له ، فما من سبب يدعوه للانزعاج أو الاضطراب .. وقالت : « لسوف يصطحبنى – عندما ياتى – الى الفيوم »

– نعم .. والفيوم مكان لطيف جدا .. مكان طيب جدا حقا !.. فهنـاك يوجد كل شىء .. هناك الثعالب ، والحمام ، والبط ، وكميات وفيرة من قصب السكر .. وهناك الماء ، والنخيل ، وكل شىء يمكن ان يشتهيه اى امرىء !

فهبت واقفـة ، فى حركة عنيفة عصـبية ، وقالت : « آه ! ما قيمـة كل ذلك بالنسبة اليك ؟ .. انك لن تذهب معنا الى الفيوم فيما احسب » . فلم يقل شيئا . وعندئذ هتفت فى عجب : « أو تراك ذاهبـا معنا ؟ » .. فاجاب : « بالتأكيد ! »

– ستأتى معنا اذن ؟.. من اين لك ان تعرف ذلك ؟.. هل اخبرك مستر ارماين ؟

– ان مولاى لم يخبرنى بشىء ، ولكنى قادم معك .. وكذلك حمـزة قادم ايضا !

فهتفت : « هل سيأتى حمزة ؟ ».. وكان جوابه : « بالتأكيد ! ».. فاحست بشعور من الارتياح والرضى ، خالطه مع ذلك شىء ضئيل من الجزع . وسألته : « ولماذا ؟.. ما الذى يضطر حمزة الى الرحيـل معنا ؟ » .. فأجاب : « ليكون سائقا لحمارك .. فان حمزة مكارى طيب جدا ! » .. وقالت فى شىء من شرود الذهن : « لست أدرى .. لست واثقة من اننى سأحتاج الى حمزة فى الفيوم ! » .. ولكن ابراهيم تطلع اليهـا بوجهه الباسم ، وقال : « انك لن تجـدى فى الفيوم مكاريا طيبا على الاطلاق يا سيدتى ! ولكنك حرة دائما فى ان تفعلى كل ما تحبين ، واذا كنت لا تودين اخذ حمزة ، فسوف يكون حمزة حزينا جدا ، وسيبكى حقـا ، ولكنه سيمكث هنـا .. فانت حرة دائما فى ان تفعلى

ما تشائين ! »

وإذ فرغ من عبارته ، أدركت أن حمزة سيصحبهم ٠٠ أدركت ان بارودى قد امر بذهاب حمزة معهم ٠٠ فقالت ، وكأن لها فى هذا الشأن ارادة : « سوف نرى فيما بعد » ٠٠ ثم نظرت فى ساعتها ، وقالت : «لقد حان وقت الخروج» ٠ فاجاب : « ان « الفلوكة » معدة ، وسوف تبحر « اللولية » هذه الليلة ٠٠ ستذهب « اللولية » هذه الليلة الى أرمنت » ٠٠فقطبت مسز ارماين حاجبيها٠٠ أرمنت ، اسنا ، كوم امبو ، ثم أسوان !٠٠ كأنما كان القدر يعتزم - فيما بدا لها - ان يسلط عقاربه السامة على فطرتها الأنانية المستبدة !٠٠ فكيف يمكن لها ان تحتمل مثل هذا الوخز والعذاب ؟٠٠ ولكن أمامها يومها هذا ٠ متى تتعلم حقا أن تعيش ليومها فقط ؟٠٠ ألا ما أشد غباءها وحمقها !

ومضت الى الطابق الأعلى فى عجلة لترتدى ثيابها ، وهى لا تزال مقطبة الأسارير ، ودون ان تنبس بكلمة اخرى ٠٠

★ ★ ★

◆ وكان الوقت قد جاوز منتصف الليل عندما عادت الى الفيللا ٠٠ وكانت الليلة غير مقمرة ، والريح تهب عاتية ضارية ، تجلد وجه النيل فتحيله الى أمواج صاخبة يجلل حوافيها الزبد الفوار ، بينما كانت حبات الرمل تدور بسرعة زاحفة من الصحراء على البرارى وحدائق الاقصر ٠وكانت السماء خالية من النجوم ، والليل قارس البرودة ، كثيف الظلمة ٠ وتشبثت مسز ارماين بذراع ابراهيم وهى تكافح لتصعد الى ضفة النهر ، ثم راحت تتلمس طريقها فى عناء الى المنزل الذى لم يكن يبدو منه غير ضوءين خافتين ٠٠ وكانت نوافذ الشرفة موصدة ، فدار حول المبنى الى الباب الأمامى ٠٠ وعندما مد ابراهيم يده ليقرع الجرس ، ألم بمسز ارماين خوف مباغت ، وساءلت نفسها : « هبى ان نيجل رحل من القاهرة مبكرا عما كان ينتوى ؟٠٠ هبى انه قد عاد فعلا ، وانه الآن فى المنزل ؟ » ٠ وأمسكت بيد ابراهيم ، فقال شيئا حملته الرياح ،فضاع فى زمجرتها ٠٠ ثم تركت يده ، وعندئذ قرع الجرس ٠ ولم تمض لحظة حتى فتح حسن الباب ٠٠ وما ان ولجت المنزل حتى قالت لابراهيم : « سله عما اذا ٠٠ اذا كان قد حدث شيء ٠٠ اذا كانت هناك رسالة أو أى شيء »

فخاطب ابراهيم حسنا بالعربية ، ثم قال : « انه يقول ان لا شيء هناك يا سيدتى » ٠٠ فقالت : « حسنا ٠٠ سآوى الى فراشى ٠٠ طاب ليلك يا ابراهيم ! » ٠٠ ومضت الى الطابق الأعلى ٠ وما ان بلغت مخدعها ، حتى أوصدت بابه ، ثم جلست كما هى ، بالخمار الذى كان مسدلا على وجهها ، وقد رفعت ياقة معطفها ، وتشعث شعرها بأيدى العاصفة الغاضبة ٠ وكان على

منضدة الزينة مصباح مشتعل ، نسقت الى جانبه ــ فى اوضاع عجيبة ــ بعض الأشـــياء الفضية ، والفرش ، والزجاجات ، والعلب ، التى توضع عادة فى حجرة الزينة .. كانت هذه الأشياء منسقة فى نوع عجيب من الرسم الزخرفى ، يدل على الاجتهاد وسعة الخيال ، مما ذكرها فى حدة بالحقيقة الواقعة .. بانه لم تعد لها وصيفة !.. فلقد تخلصت من مارى ، التى بارحت الاقصر فى اليوم السابق ، دون ان تندى عيناها بالدموع ، أو يبدو عليها الأسى ، وانما كانت تبدو متحفزة ، شرهة ، فضولية ، الى اللحظة الأخيرة !.. وكانت مسز ارماين قد أتت اليها قبل ذلك بيومين ، وفى يدها خطاب مفتوح من نيجل ، فقرأت ، عليها قراره بأن وجود الوصيفة فى الفيوم من الأمور المستحيلة ، وان مارى يجب ان تترك خـــلال تلك المدة فى الاقصر .. وتلا ذلك مشهد صغير أجادت المرأتان تمثيله ، فمضت مسز ارماين تندب الحظ ــ الذى اقتضى ضرورة فراقهما ــ ولكن فى غير اغراق او مغالاة .. على حين مضت مارى تأسف على قرارالسيد بأن يأخذ سيدة « فى مثل هذه الرقة وفى مثل هذا اللطف » الى « عالم فى مثل هذه الفظاعة وهذه الوحشية » .. ولكنها كانت تشير ــ فى الوقت نفسه ، وفى تذلل ريائى خبيث ــ الى انهـا ما كانت لتستطيع ان تبقى وحـدها فى المنزل بالاقصر مع ثلة من النوبيين !.. كانت كل من المرأتين راضية عن نفسها ، وهى ترى مواهب انوثتها تنطلق فى مهارة بالغة .. فكانت مسز ارماين تعرب عن اسفها لقرار مارى ، وتبدى اعجابها فى الوقت نفسه بما لدى الفتاة من اعتزاز مرهف بعذريتها . ثم تظاهرت بأنها اكتشفت ــ بمحض المصادفة ! ــ ان كثيرا من الأشياء الأنيقة التى ابتاعتها من باريس ، لم يعد يصلح لها .. وان ثوبين أو ثلاثة من ثيابها البديعة الرائعة ، لم تعد تلائمها .. وانهـا ــ وهى توشك ان ترحل الى الفيوم ــ لا « تستطيع أن تضـايق نفسها » ببعض القبعات التى طالمـا قالت مارى عنها أنها « أشد أناقة من الشيطان نفســه ! » .. ثم كتبت للفتاة « شهادة » رائعة ، وتلاقت يداهما على « شيك » مفرط فى السخاء !.. وبذلت بعض الوعود فى غير اهتمام ،ولكن مارى كانت تعلم أنها سوف تتحقق، فتركت عنوانها الدائم فى باريس .. ثم نزلت الستار فى بطء . آه !.. من المؤسف حقا أنه لم يكن هناك متفرجون يشهدون هذه المسرحية ! ولكن المواهب، كالعبقرية سواء بسواء ، تجد فى نفسها العزاء والجزاء !

وهكذا أصبح حسن هو الذى يرتب « أشياء » مسز أرماين .. ومع انهـا كانت راضية عن رحيل مارى ، الا انها شعرت بارتباك شديد بغير وصيفة .. فلم يحدث قط ، منذكانت فتاة صغيرة ، ان اعتادتأداء شىء منمطالبها التىيمكن أن تؤديها وصيفة ماهرة .. ولم تكن بالمنزل خادم انثى . ولقد كانت ــ فى تلك الليلة ــ متعبة ، شديدة الانفعال ..كانتاعصابها متوترة ، كما كانقلبها

يشتعل بغيرة تعلم حق العلم أن من المقدور لها ان تشتد ، وان لا تخمد نارها ، في الأيام المقبلة عليها !.. وأحست بانقباض شديد ، فما أبشع ان تعود الى المنزل في مثل هذه الحالة ، وفي سكون الليل ووحشته ، ثم تجد نفسها محرومة من وسائل الراحة !.. وعندما رأت تلك الأشياء الفضية منسقة كلهـا في اوضاع خاطئة ، وقد تناثرت الفرش هنا وهناك ، وغرست فيها الأمشاط وأسنانها الى أعلى ، وتثاني العطور وقد وضعت على جانبهـا بدلا من اقامتها مستوية على قواعدها ، وعلب المساحيق وقد وضعت معكوسة عاليها أسفلها .. عندما رأت ذلك كله أحست بالرغبة في البكاء حتى ينضب معين دمعها .. فلم يعد هناك من ينزع عنها قبعتها ، ويرجل شعرها ويمشطه ، ويخلع عنها ثوبها ، ويفك أربطة حذاءيها .. ثم ، فوق ذلك كله ، سيصل نيجل في التاسعة من صباح الغد !

وكانت الرياح تزأر وتزمجر في الخارج .. وقد أفلت أحد المصاريع الخشبية للنوافذ من عقاله ، فراح يرتطم بالجدار في دوى عنيف ، على فترات متقاربة ، فيوحي اليها كأن شريرا أثيما يحاول أن يقتحم النافذة ! .. كانت موقنة من مصدر هذه الضجة المتكررة .. وكانت تعلم أنها قد تستطيع أن توقفها اذا ما فتحت النافذة لحظة ومدت يدها ، ومع ذلك فقد كانت خائفة من اتيـان ذلك .. خائفة من أن تمد يدها في تلك الظلمة العاصفة لئلا تفاجأ بيد أخرى تمسك بها !.. كانت ملأى بالمخاوف العصبية !.. ولم تكد تصدق ـ وهي في جلستها هذه ـ انها في مصر ، فان زئير الرياح كان يوحي بمناخ شمالي بارد كئيب .. وارتطم مصراع النافذة بالجدار في دوى حاد ، فلم تعد تقوى على احتمال هذه الضجة ، ونهضت الى خارج الحجرة ، حتى اذا بلغت قمـة الدرج صاحت تنادى : « ابراهيم ! » .. ولم تتلق جوابا .. وكانت الانوار كلها مطفأة ، فاستشرى فيها الخوف من هذه الظلمة الفـاغرة فاها ، وعادت تصيح من جديد : « ابراهيم ! ابراهيم ! »

وسمعت حفيف ثياب ، وخطوات خفيفة واسعة تعلن ان شخصا يقبل اليها مسرعا ، فارتدت الى حجرتها ثانية .. وعندئذ ظهر ابراهيم متسائلا : « ماذا تريدين ياسيدتي ؟ » . فأشارت الى النافذة قائلة : « المصراع الخشبي . لقد أفلت من مكانه .. ألا تستطيع ان تثبته ؟ انه يثير ضجة فظيعة ، ولن أتمكن من النوم الليل كله ! » .. ففتح النافذة ، وعندئذ اندفعت الريح الى الداخل ، فتوهج المصباح قليلا ، وما لبث ان انطفأ

وظلت مسز ارماين دقيقتين أو ثلاثا لا تسمع شيئا سوى زمجرة الرياح ، التي كان يبدو انها استحوذت على الحجرة بأكملها ، فأحست وكأنهـا أضحت فريسة للرياح وفريسة للظلام معا !.. وانطبق عليها انفعال تهوسي .. رعب



فالتف الثعبان حولها فى سرعة وخفة ... (ص ٨٦)

جامح من القدر ومن المجهول ! وانتابها ـ فى العاصفة وفى الظلام ـ احساس كئيب بالعجز والهلاك ، وبأنها قد فقدت السعادة والضياء الى الابد ٠٠ فلما طردت الرياح من الحجرة وأوصدت النافذة دونها ، وانبعث صوت احتكاك الثقاب ، ثم لاح وهج ضئيل ، وانكشف لعينيها جزء من ابراهيم ـ الذى بدا عملاقا فارع الطول الى حد غريب ، فى العباءة الصوفية السوداء التى كان يتدثر بها لتحميه من البرد ـ وثبت مسز ارماين نحوه وهى تشعر براحة وطمأنينة لا يمكن وصفهما ، وهتفت قائلة : « آه يا ابراهيم ! يالها من ليلة رهيبة ! شد ما أشعر بالخوف منها ! »

واشعل ابراهيم المصباح فى مهارة ، ثم استدار نحوها وراح يحدق فيها ، وهو يقول : « انك يامولاتى شاحبة ، ناصعة البياض كزهرة اللوتس التى يحملها رمسيس ! » ٠٠ وكانت قد وضعت يدها على ذراعه ٠٠ ولكنها لم تلبث ان تركتها تسقط بجانبها ، ثم جلست على الاريكة وبدأت تنزع الدبابيس من قبعتها وقناعها ، وتلقى بها كلها الى الارض ٠٠ ثم قالت : « انها العاصفة ٠٠ واننى لأكره عزيف الرياح بالليل ! » ٠ فقال ابراهيم ، وعلى أساريره علائم الجد : « ان الجنى يمتطى الريح ! » ٠ فهتفت : « الجنى ؟٠٠ وما هو ذلك ؟ » ٠ فأجاب : « روح شريرة ، تسعى للايذاء ! لقد كان فى الحجرة الليلة ! »

وراحا يتبادلان النظرات فى صمت ٠ ثم قالت مسز ارماين : « هل المصراع على مايرام الآن ؟ » ٠٠ فأجابها : « بالتأكيد » ٠ فقالت : « اذن ، عم مساء ! »

فرد تحيتها قائلا : « طابت ليلتك ياسيدتى » ٠ و سعى الى الباب ، ثم قال : « لقد كان الجنى فى الحجرة الليلة بالتأكيد ! » ٠٠ فحاولت ان تبتسم لهذا السخف ، ولكن شفتيها لم تطاوعاها ، فقالت : « ولمن تراه قد أتى ؟ » ٠٠ فأجاب : « لست أدرى ٠٠ ربما جاء ليقابل سيدى أرمينيجل ! انها ليلة بغيضة هذه الليلة ٠ ولقد مات « محمد » الليلة ٠٠ مات فى الليلة التى تفصل بين يومى الاحد والاثنين ! »

وطأطأ رأسه فى أسى ، ثم غادر الحجرة وهو يغلق الباب خلفه فى رفق ٠ وما كاد ينصرف حتى خلعت مسز ارماين ثيابها ، وتركتها متناثرة تملأ الحجرة فى غير نظام او ترتيب ، ثم أوت الى فراشها ٠ وكانت قد تركت المصباح مضاء ٠٠ فقد كانت خائفة من الظلمة ، وكانت تعلم أنها لن تستطيع النوم ٠٠ اذ انها ـ برغم استهزائها بالخرافات المصرية ـ كانت كلما نظرت حواليها فى الحجرة ، تشعر بانها كانت تبحث على غير وعى منها عن الشبح المظلم للجنى !٠٠ ولقد ظلت الرياح تزأر الليل بطوله ، وظلت مسز ارماين الليل بطوله يقظة ، حائرة ، خائفة ، تدبر الخطط ، وتتصور الاحداث ، فى

فزع من المستقبل .. ومع ذلك فقد كانت تستجمع كل حذقها وبراعتها ، صيدها من العزم والارادة ، لتشكله حسبما كانت تريد وتهوى ، وهي مطمئنة الى أنها ستجد من يعاونها فى ذلك : بارودى ، ابراهيم ، حمزة !

وعندما خمدت أنفاس الرياح مع الفجر ، وغشيها النعاس أخيرا فى خطى متسللة ، كأنه موجة رقيقة ، كان آخر ما رأته بعين الخيال هو طيف حمزة ، منتصب القامة ، رصينا ، يحف به الغموض والاسرار ، وقد امسك بيده عصا مشرعة نحو السماء .. او لعله كان ذلك الجنى الذى جاء من ظلمات الليل ليقابل « سيدى آرمينيجل » ؟!

★ ★ ★

◆ ماهذا ؟.. أهو الجنى يتحرك ويتكلم ؟ أم هو ..؟ من المحقق ان ثمة صوتا وحركة بالحجرة وفتحت مسز ارماين عينيها ، فرأت أشعة الشمس ، ورأت شخصا بجوار الفراش .. وسمعت صوتا يهتف : « روبى ! » . فاختلجت أجفانها بفعل الضوء الباهر ، ثم فتحت عينيها على سعتهما ، وهي لا تزال ترقد بلا حراك . وعاد الصوت يهتف : « روبى ! » .. وشعرت بيد تستقر فوق احدى يديها ، فأعادتها هذه اللمسة من غياهب النوم الى ضياء اليقظة ، واستطاعت ان تميز نور الصباح ، وأن تتبين نيجل .. كان يقف بجوار الفراش فى ثياب السفر ، يعلوه الغبار ، فى شعر قصير مشعث ، ووجه لوحته السمرة وأشرق بهاء ، وقد راح ينظر اليها ممسكا بيدها

ـ هل روعتك ؟.. لم أقصد ذلك حقا ، ولكنى ظننت انك لابد أن تكونى مستيقظة الآن !

ولم يكن يخالط صوته شيء من اللوم أو التقريع ، ولكن مجرد نبرة من الامتعاض سرت فيه .. فاستوت جالسة ، وهى تتكىء على الوسادة الكبيرة ، قائلة : « ويحى !.. كنت أنوى الذهاب الى المحطة لاستقبالك ! » .. فجلس ملاصقا لها ـ وهو لايزال يضع يده فوق يدها ـ وهتف قائلا : « هل كنت تنوين ذلك حقا ؟ »

ـ بلا ريب ! ولكنها تلك العادة الذميمة التى تلازمنى .. عادة الرقاد يقظة مسهدة أثناء الليل ، والنوم فى الصباح . كذلك كانت ثمة عاصفة رهيبة فى الليلة الماضية

ـ أعرف ذلك .. كانت الجان تطوف مطلقة السراح !

وكان يقول ذلك مازحا ، ولكنها هتفت متسائلة : « كيف عرفت ذلك ؟ » .. فقال فى عجب : « كيف ؟! .. لماذا ؟ انهم فى مصر .. ولكن ماذا تعنين ؟ » .. على انها كانت قد استجمعت حواسها ، وأفاقت من النوم تماما ،

فاستعادت هدوءها الغريزى ، وتحررت من ربقة الليل ، وقالت : « شد مالبدو فى صحة طيبة ! »

– انه العمل .. والشمس .. والحياة تحت الخيام !.. ما أروع ذلك وما أبهاه !.. كم أود أن يروقك ذلك وأن تحبيه !.. ولكن ، الا نتناول بعض الشاى معا ؟.. وبعدئذ أقفز الى الحمام ، فان الجو من البرودة بحيث لا يصلح النيل للاغتسال هذا الصباح ، بينما الغبار يملأ كل جزء فى جسمى .. سوف أقرع الجرس لمارى

وهم بالنهوض ، ولكنها امسكت بيده وقالت : « نيجل ! » .. فتريث متسائلا : « نعم ؟ » .. فهتفت به : « لا تدق الجرس لمارى »

– ولم لا ؟ – لا جدوى من ذلك !

– لماذا ؟ أهى مريضة ؟ – لقد رحلت

فهتف : « رحلت ؟! » .. وتأمل الاضطراب الذى كان يسود الحجرة ، والثياب المتناثرة على قطع الاثاث وعلى الارض ، وقال : « بوسعى الآن ان أفهم ذلك كله .. ولكن ما السبب ؟ هل سرقت شيئا ؟ أم .. أم لعله كان ينبغى ان أحضر امرأة أخرى فى المنزل ؟ » .. فأجابت : « كلا ، كلا .. لاشىء من ذلك ، وانما أنا التى سرحتها وديا ! لقد ظننت أنها سوف تعترض سبيل راحتنا فى الفيوم .. فماذا كان يمكن أن نفعل بها فى خيمة ؟ » . فتساءل : « وهل ستدبرين شئونك بغير وصيفة ؟ » . وغمرت وجهه اشراقة من السرور الوضاء ، واستطرد قائلا : « يالك من زوجة طيبة ! » . وانحنى فوقها ، ووضع يديه على كتفيها فى رقة ، ثم قبلها قبلة طويلة !

وما لبث ان أضاف ، وهو ينهض ثانية ، فى نوع من المزاح الحنون وقد عاد يجيل أنظاره فى الحجرة : « وهل هكذا تدبرين شئونك ؟.. يجب ان أتعلم كيف أخدمك ! » .. وأخذ يدور فى الحجرة على غير هدى ، وهو يجمع الاشياء ، ويتناولها بطريقة خاطئة ، حتى وضعها كلها فى كومة واحدة فوق الاريكة .. وقال : « سأتقن العمل فى المرة القادمة !.. أما الآن فسأدعو حسنا ليحضر الشاى ، وسوف احدثك أثناء تناوله عن معسكرنا فى الفيوم . ولكن .. كلما فكرت فى انك تخليت عن وصيفتك ! » .. وقبلها ثانية فى حنان ، وتمهل قليلا ، ثم مضى لشأنه !

* * *

● وما كاد يذهب حتى نهضت من الفراش .. كان عليها أن تبحث عن دثار ، ولم تكن تعرف موضع اي شىء من متاعها .. كان البقاء بغير وصيفة

امرا يبعث على الجنون !٠٠ وتمنت - أكثر من مرة - وقد عاد نيجل ، ولم يعد في وسعها أن تذهب الى بارودى لو أنها كانت قد احتفظت بمارى ٠٠ أتراه كان من الافراط فى الغباء أن تحتفظ بها ؟٠٠ وراحت تجذب الادراج واحدا بعد الآخر ، ودبت الحرارة فيها ، واستبد بها التعب ، قبل أن تجد بغيتها ٠٠ ترى كيف تكون الحياة فى خيمة ؟٠٠ انها لتكاد تحس بالغثيان كلما فكرت في كل ما ينتظرها ٠ آه ! ها هو الدثار أخيرا !٠٠ وانتزعته من مكمنه فى عجلة وعنف ، ولفته حول جسمها كيفما اتفق ٠٠ ولكن طبيعتها الحقة - ذلك الشطر الدؤوب من نفسها - عادت الى البروز فجأة ، فبادرت الى المرآة وأخذت تصلح من وضع الدثار حولها فى عناية بالغة ، ويد مدربة ، ثم عقصت شعرها فى بساطة ، ومضت تتأمل نفسها لحظة ٠٠ ترى هل استطاع الواقع الجديد أن ينطبع على وجهها ، وعلى جسدها ؟!

لقد رأت أمامها امرأة تفيض نشاطا ، وتتدفق فيها الحياة بقوة تبهر البصر ٠٠ كانت العينان - بعد أن خلصتا من آثار النوم - دافئتين مليئتين بالعاطفة الموعودة !٠٠ وكانت الشفتان نضيرتين رطبتين ، والقوام فاتنا شديد الاغراء ٠٠ أما العنق الجميل فقد ظل محتفظا بروعته كاملة ٠٠ لقد ارتدت الى عنفوان الشباب في مصر ، وهى تعلم سبب ذلك حق العلم ٠٠ انها وحدها تستطيع أن ترى الواقع الجديد منطبعا عليها فى جلاء ووضوح ٠ أما نيجل فلن يدرك كنه ما بها ٠٠ سوف يخطىء فهمه ٠٠ سوف يحسبه من اجله هو - شأن الكثيرين من الرجال المخدوعين ، منذ فجر الزمن - وسيقول لنفسه : « ذلك كله من أجلى ! » ٠٠ ومضت تمعن النظر فى صورتها طويلا ، فطربت لذلك التغيير الحيوى الذى ألم بها ٠ وفى غمرة هذه النشوة ، انتهت الى عزم خليق بامرأة تافهة مغرورة : يجب أن تسخر ارادتها بأكملها فى سبيل الاحتفاظ لنفسها بهذا الدفء الذى ملأ حياتها الباردة ٠٠ يجب أن تدرب طبيعتها ، وتسوس عواطفها ، وتروض عقلها على قبول كل ماهو مقبل عليها : الملل ، والانتظار ، ومتاعب التظاهر والتمثيل الطويلة ، والسأم من حياة الخيام ، والوحدة المزدوجة فى الفيوم !٠٠ وما ينبغى لها أن تسمح لهذا الفيض من الجمال بأن تشوهه الغيرة بجحافلها المخربة ، فان الغيرة غالبا ماتدمر جمال النساء وتحيلهن الى عرافات ناحلات شاحبات ٠٠ ولكنها لن تخور أو تستسلم، فان الجمال - فى اعتقادها - هو كل شىء بالنسبة للمرأة ٠٠ والمرأة التى تفقد جمالها ، انما تسقط من الحساب ، ولا تعود محسوبة بين الاحياء !٠٠ وكانت رؤيتها لصورتها فى المرآة ، وتقديرها لجمالها ، يبدوان وكأنهما قد سلحاها فى جميع الميادين ، ففارقها الانقباض الذى ملأ ليلها بالرعب والفزع ، وعمر صباحها بالخوف والتوجس ٠٠ وغدت قادرة على أن تمضى

نفسها بأن المستقبل ملىء بالاشياء الذهبية ، لانها غدت قادرة على الايمان بأن هنتها لا تزال وافرة عامرة !

* * *

* وفي ذلك اليوم ارضت نيجل وابهجته ، وخلبت لبه وسحرته ، بذلك الفيض الدافق من مفاتنهـا الحيوانية .. ولم يكن بوسعه ان يأبى عليهـا شيئا . ومن ثم كان على استعداد ـ عندما رجته ضاحكة ان يكون لها مكاريها الخاص وحمارها في الفيوم ، وهي التي استغنت عن وصيفتها ! ـ لأن ينزل على ارادتها . وقال في حرارة : « سناخذ محمدا ، اذا شئت.. ولو ان هناك عددا وفيرا من المكاريين حيث نحن ذاهبان » .. فقالت : « انني استغنيت عن محمد » . فلاحت عليه الدهشة ، وقال : « أحقـا ؟ وماذا فعل ؟ » .. فاجابت : « لا شيء على التحديد .. ولكنى افضل حمزة ! »

وتمهلت لحظة ، ثم أردفت في بطء وهي تشيح بوجهها جانبا : « ان فيه شيئا غريبا يثير اهتمامى .. وأحسب انه ربما كان ناشئا عن ايمانه العميق بعقيدته ، وتفانيه العظيم في الدين الاسلامى .. وانا .. انني لا املك نفسى من الاعجاب بذلك ، ولسوف يسرنى ان نأخذ حمزة معنا .. فهو يختلف كل الاختلاف عن غيره ! » .. وما لبثت أن غيرت لهجتها فاضفت عليها لونا من المرح وهي تستطرد قائلة : « وفضلا عن ذلك فان حماره خير الحمير على ضفتى النهر ، فقد احضره من سوريا ، وانه ليعد عجيبة من العجائب .. هبنى حمزة ، وحماره ، وابراهيم ، كحاشية لى ، وأعدك بأنك سوف لا تسمع منى اية شكوى البتة ! »

ـ لسوف يكونون لك حتما ، فانى احب الرجل الذى يعنى بعقائده ، وان خالفت عقائدى وكان من المستحيل ان أومن بها يوما !

وهكذا تقرر مصير حمزة وابراهيم في يسر وسـهولة .. ولكن ، لم يكد نيجل يدعو ابراهيم ويخبره بانه قد قرر ان يأخذه وحمزه الى الفيوم ، وان عليه أن يخبر حمزة على الفور ، حتى بدا على ابراهيم شيء من التردد والشك ، وقال : « سأفعل كل ما يريده سيدى ، ولكن حمزة يربح كثيرا من عمله في الاقصر ، ولا أدرى ان كان يقبل الذهاب الى الفيوم » .. ورمق مسز ارماين في اعتذار وأسف ، وأردف قائلا : « انني سعيد جدا بذهابى ، أما عن حمزة فلست أدرى .. » ، وكان يتكلم في لهجة من الاخلاص الظاهرى أوشكت ان تخدع مسز ارماين ، فظنت ان بعض عراقيل قد نشأت حقا !

وهتف نيجل : « اعرض عليه كل ما يمكن ان يطلبه ، وأراهن انه سوف يسر بالذهاب ! » .. فقال ابراهيم : « انني ذاهب لأرى ياسيدى ! » ..

واذ ذاك قال نيجل لزوجته : « انه سيكون لك ياعزيزتي ، مهما يكن ثمنه ! »

وأتم ابراهيم الصفقة مع حمزة في عناء بالغ ، كما قال !٠٠ وهكذا اسلمت « فيلا اندرود » في اليوم التالي الى رعاية حسن ، ورحلت أسرة ارماين شمالا في قطار المساء السريع المتجه الى القاهرة ، حيث رؤى ان يمضيا يومين وليلتين ، حتى يتسنى لمسز ارماين أن ترى الاهرام وأبا الهول ٠ وكان نيجل قد حجز الحجرات اللازمة لهما في فندق مينا هاوس ، وعنى بأن تكون ذات شرفة تواجه الهرم الاكبر مباشرة ، وتطل على رمال الصحراء

وافطرا في فندق شبرد ، ثم استقلا عربة مقفلة مضت بهما في « طريق اسماعيل » تحت اشجار اللبخ المتعانقة ٠٠ وكان نيجل في ابدع حالاته المعنوية ، اذ خيل اليه في هذا الصباح كأن حياته كانت تسمو الى اوجها ، وكأنما قد كتب له ان يوهب قدرا من السرور يفوق كل ما يستحقه ! وهو - كرجل زاهد - لم يكن في يوم من الايام ولوعا بالمجتمع ، أو مباليابقراراته وآرائه ، ومن ثم فانه لم يستشعر الالم قط ، كما كان يمكن ان يحدث لكثير من الرجال ، عندما احس باشفاق المجتمع عليه ودهشته بل احتقاره وازدرائه اياه لزواجه ٠٠ ولكنه كان - في الوقت ذاته - فرحا في قرارة نفسه مغتبطا لحرمانه من الارث في لقب اسرته واملاكها ! فلو انه ورثهما لاصبح موقفه أشد حرجا ، واصبح مركزه مع « روبى » أشد تعقيدا ٠ اما وقد جرت الامور على ما هي عليه الآن ، فانه و « روبى » كانا حرين طليقين كالهواء ، وكانت روحه تتواثب طربا لحريتهما هذه ٠ وهتف قائلا : « انني لاشعر اليوم كما لو كنت واحدا من أبناء القبائل الرحالة ! ولكن ، بحق السماء ٠٠ أليس الهواء باردا ؟٠٠ انه دائما يهب فوق هذه السهول في الشتاء ٠٠ تدثرى جيدا ياعزيزتي ! »



ومد يده يجذب الفراء ويحكم وضعه حولها .. فقد أصبح يشعر - وهو معها - بأن عليه ان يغالى فى رعايتها ، وأن يحرص على أن يؤدى بعض الخدمات الصغيرة لها .. وكان يؤديها فى لمسة رقيقة تكشف - وهى تصدر عن رجل فى مثل صحته الموفورة وقوته العظيمة - عن مدى التقدم الذى أحرزه الرجل المستقر فى أعماق نفسه ، خلال الفترة التى غابها عنها .. واستطرد يقول : « سأقوم بعمل وصيفتك ! » .. فقالت وقد غاصت فى ثنايا الفراء : « ولكنك لن تلبث ان تشغل بالعمل والصيد ! » .. وكان وجهها مغطى بالخمار الذى كتم بعض صوتها ، فلم يكد نيجل يسمع صوتها بجلاء . وعاد يقول : « انك فى المقام الاول ، وسأتوفر على العناية بك قبل أى شىء آخر » . فرفعت الخمار لتكشف عن شفتيها ، وحتى ينطلق صوتها وهى تقول : « ولكني أريد ان يكون عملك فى المقام الاول ، فاننى أكره المرأة التى تتزوج من رجل ، اعجابا منها بخلقه ، ثم تسعى بكل الوسائل بعد ذلك لتغيير هذا الخلق ، لتهبط به من مكانته كرجل الى .. حسنا .. الى مايشبه وصيفا ذكرا !.. كلا يانيجل .. ركز اهتمامك فى عملك . وسادبر امورى على خير وجه ! »

وشعرت اذ ذاك بانها لن تستطيع ان تطيقه اذا هو عكف على العناية بامرها بمثل هذا الالحاح طيلة اليوم !.. ومع ذلك فانها كانت تصبو الى أن يكون عبدا لها .. كانت تتوق دواما الى أن ترى الرجال يعبدونها .. ومع ذلك فقد كان فى أعماقها اذ ذاك شىء لعله كان قديرا - على مر الزمن - أن يطغى على زهوها وغرورها .. وقال نيجل : « لسوف نرى .. سيكون العمل على مايرام ياروبى .. يمكنك أن ترى الاهرام جيدا الآن ! » . فنظرت عبر السهول الى تلك المقابر العظيمة التى كانت تجتذب العالم الى أقدامها - ممثلا فى السياح الذى اعتادوا أن يتدفقوا لزيارتها - ثم قالت : « وددت لو أن البرد لم يكن قارسا الى هذا الحد ! » .. وخطر بارودى ببالها .. كان بارودى الآن بعيدا فى الجنوب الذهبى .. ولعله مع « القمر المكتمل » !.. وفى تلك الاثناء ، قال نيجل : « لن يكون بهذا السوء أو نصفه عندما نصل الى فندق مينا هاوس ، فان الريح تهب على هذا الطريق دائما فى الشتاء ! »

- وفى الفيوم ؟.. هل سيكون الجو باردا هناك ؟

- كلا ، انه ليس بمثل هذه البرودة . على ان الحرارة تنخفض أحيانا فى بعض الليالى ، وكثيرا ما ينتشر الضباب !

وهنا تساءلت مسز ارماين : « أهو ضباب كثيف ؟ » . فأجاب : « اننا لن نحس بشىء من ذلك ، فسننعم فى خيمتنا بالدفء والدعة » .. وهنا عاد ذهنها الى شروده : لقد كانت « اللؤلؤة » تمخر عباب النيل - فى هذه الاثناء -

فى صميم الدفء والشمس الذهبية الساطعة !.. وأحست كأن قلبها راح يغوص بين جنبيها ، ولكنها سرعان ماذكرت ما استقر عليه عزمها فى « الفيللا » ، فاذا بغرورها يبسط يده لذلك الشعور الذى خامرها منذ دقائق وخالت انه يناوىء هذا الغرور ، وتعانق الشعوران فى وئام ! .. وكانت العربة ماضية بهما فى خفة وسهولة ، والجياد تركض فى الهواء المنعش ، والصحراء تبدو باهتة غير واضحة المعالم فى هذا الصباح العاصف .. ولكنها ما لبثت أن ازدادت وضوحا وامتلاء بالنداء والدعوات !.. واتسع الطريق عند نهايته - كأنه فم يفتح على سعته - وظهر صف من الحمير ، يتخلله هناوهناك جمل أبيض يزدان بسرج مزركش ، وقد أحاطت بها جماعات من المصريين تعالى صياحهم وراحوا يحملقون فى العربة بعيون جشعة نهمة !.. وصاح الحوذى عاليا ، فاندفعت الجياد راكضة ، وتحولت نحو حديقة الى اليمين ، وما لبثت أن وقفت أمام مينا هاوس !

★ ★ ★

◆ ولم تنقض دقيقة حتى كانت مسز ارماين تقف فى شرفة يفضى طرفها الاقصى الى بحر من الرمال الصفراء الشاحبة .. وتبعها نيجل ، ولكن بعد أن كانت قد انقضت بضع دقائق ، فقالت فى صوت يخالطه شىء من الضيق، وهو يقترب ليقف الى جوارها : « يبدو انك تعرف كل انسان هنا ! » .. فاجاب : « الواقع .. ان هناك بعض رفاق من القاهرة أتوا لقضاء بضعة أيام هنا » .. فتساءلت : « مع زوجاتهم ، فيما يظهر ؟ » . فقال : « أجل .. بعضهم اصطحبوا زوجاتهم . ثم اننى عرفت - بالطبع - عددا كبيرا من الناس فى الشتاء الماضى .. ألا ترين ان الجو أكثر دفئا هنا ؟.. فلدينا الشمس فى عنفوانها ، بينما الرياح أقل شدة مما هى فى الجانب الآخر .. ثم ، أليس الهرم الاكبر هائلا ؟ »

وامسك بذراعها فى حنان ، واستطرد قائلا : « أما أبو الهول فيقوم وراءه .. وانى لأود ان تريه للمرة الاولى قبل ان يهبط الليل » . فقالت : « دبر مايروق لك ! » .. وكان صوتها لا يزال مشوبا بتلك النبرة الدالة على الضيق ، فقد كان عليها أن تمر وسط النظرات المتطفلة المشوبة بالعداء - سواء فى شرفة الفندق الكبرى ، أو فى البهو الفسيح - وهى التى تزوجت ثانية وهجرت حياة التحدى التى كانت تحياها كل هذه السنوات .. أجل ، انها قد غدت أقل استهانة واستهتارا بالرأى العام وبعداء النساء ، مما كانت من قبل ، وأصبحت تتمنى ان يتقبلها المجتمع ثانية .. ولقد كان بوسعها ان ترغم الناس على قبولها فى المجتمع ارغاما ، لو انها أصبحت ليدى هارويتش !

.. وكانت تهجس لنفسـها بذلك وهي تتطلع نحو الهرم الاكبر ، ومن ثم كانت كلمات نيجل عن أبي الهول تقع على اذنين غير واعيتين .. كان نيجل قد أقدم على خطوة غير حكيمة ولا موفقة - دون أن يفطن - اذ أحضرها الى مينا هاوس في هذا الوقت بالذات .. ولكنه كان يسير في الظلمات !

ذلك لان البهو العربى الفسيح كان - في ساعة الغداء - مكتظا بضباط من حامية القاهرة والعباسية ، ومعهم نساء من بنات وطنهم .. كما جلس بعض معارف نيجل الى موائد صغيرة على يمينهما ويسـارهما ، وانتشر في أرجاء أخرى من البهو رهط من كبار الشخصيات الانجليزية المعروفة ، الذين كانوا يحملقون في مسز ارماين كلما صور لهم ظنهم انها لا تراهم .. وكان هناك - على غير بعد من الزوجين - اللورد والليدى هايمان ، وآل ميرشيسون ، وقد عادوا الى الظهور ثانية .. وما كان ألد أعداء مسز ارماين واشـدهم دهاء ليحتال على اثارة أعصابها وتعكير مزاجها باكثر مما احدثته هذه المجموعة من الناس في تلك اللحظة .. ولكن ما من لمحة أو حركة ندت عنهـا وفضحت ما كان يعتمل في نفسها .. فان الوقت اتسع لها كي تسيطر على مشاعرها ، وتستعيد هدوءها ورباطة جاشها الظاهرين كاملين موفورين .. ولكن عاطفة عاتية راحت تزأر في أعماقها ، وكأنما كانت الجن تتجمع من ظلمات الليـل الكثيفة ، وتحتشد في أنحاء نفسها ، وقد حملتها الرياح على أجنحتهـا !.. وعندما وافى الغسق ، ملقيا بغموضه الشاحب فوق الصحراء - وفوق العجائب التي تأويها الصحراء - كانت الجن قد استحوذت على روحها !

★ ★ ★

◆ وما لبث الزائرون الذين عمروا القفار حول الاهرام خلال اليوم ان عادوا الى القاهرة بالترام أو العربات ، أو كانوا يتناولون الشاى في الفندق ،عندما امتطى مستر ومسز ارماين حماريهمـا ، وركبا خلال الغسق متجهين نحو أبي الهول .. وراحا يقتربان منه ، من الخلف ، وقد سكنت الرياح تماما . ومع ان المساء لم يكن دافئا ، الا أن حدة برد الصباح خلفها نسيم أكثر رفقا بالرمال وملاءمة لها .. وكانت أضواء القاهرة تتالق عن بعد ، عبر النيـل والسهول ، على سفوح المقطم .. وفي خلال هذا الفراغ الصامت الذى ساد الصحراء المقفرة اذ ذاك ، كانا يركبان في صمت ، حتى لاح امامهمـا ، فوق قفار الرمل السنجابية ، جسم كبير يبرز من الارض .. فقال نيجل وهـو يجذب عنان حماره : « هل ترين ذلك ياروبى ؟ » .فاجابت : « ذلك الشيء الذى يشـبه ثمرة هائلة من عش الغراب ؟ .. نعم ، ماهـو ؟ » .. فقال : « أبو الهول ! » .. واذ ذاك هتفت في عجب : « أهو هذا ؟ » ، فقـال :

« نعم ٠٠ ولكنها مؤخرة رأسه ، أما الجسم كله فيختفى عن أنظارنا الآن ٠٠ مهلا حتى ندور حوله ونراه وجها لوجه ! »

فلم تقل شيئا !٠٠ وظلا يمضيان حتى شارفا أطراف المنخفض العميق الذى يقبع فيه الوحش المهيب ، تحيط به الرمال والشهرة المدوية الدائمة ٠ وما لبثا أن بلغا حافة الحوض فصارا فى مواجهة أبى الهول الذى كان يستقر على الضفة المقابلة ٠٠ وهناك ترجلا عن حماريهما ، وأمر نيجل المكاريين باقتياد الدابتين والابتعاد عن نطاق السمع ٠٠ وظل الصوت الأجش المنبعث من وقع أقدامهم - وهم يسيرون فى خفة فوق الاحجار والارض الصلبة التى تتاخم الرمال - يخفت رويدا رويدا ، وسرعان ما اختفى وسط ظلمة الغسق، مخلفا ارماين وزوجه وحدهما ٠٠ ومع أن ضوء النهار كان يخبو سريعا ، الا انه لم يكن قد تلاشى تماما ٠٠ كان النهار والليل يتصافحان فى غسق غامض لم يبد هابطا من السماء - التى كانت توشك ان تغدو مأهولة بالنجوم - فحسب ، بل كان يرتفع كذلك من بين الرمال الشاحبة ويسبح حول أبى الهول ٠٠ وكان الهرم الاكبر يلوح على البعد اسود قاتما بالنسبة للفراغ الذى كان يحيط به !٠٠ وظلت مسز ارماين ساكنة بلا حراك ، بادىء ذى بدء ، وهى تتطلع الى الوحش ٠٠ ولكنها ما لبثت ان أشارت الى نيجل بأن يبسط معطفها على حافة الرمال ، ثم اتخذت مجلسها فوقه ، وراحت تتطلع ثانية ، دون ان تنبس بكلمة واحدة ٠٠ وأخذ شحوب الغسق يزداد قتامة ، وكان أطيافه الرمادية الصفراء من ناحية ، والرمادية البيضاء من ناحية أخرى ، قد بدأت تعتكر قطرات سوداء معتمة ، كانت تنسكب من نبع خفى لايرى !٠٠ ومرت نسمة باردة ، بقطرات قادمة من مكان سحيق ، حيث تمتد الرمال حتى الساحل الذهبى ٠٠ وسكنت النسمة لحظة ، ثم عادت ثانية وقد اشتدت قليلا ، وبدأ



الحاحها واضحا محددا

وكان نيجل واقفا .. ولكنه حين رأى روبى لا تتحرك ، جلس بجوارها وهو يشبك يديه السمراوين معا حول ركبتيه ويشدهما فى قوة حتى غدا رسغاهما فى بياض الثلج .. واختلس النظر اليها مرة ، فراى وجهها جامدا صارما الى حد غريب .. انه كاد ان يكون قاسيا فى سكونه ، فحول الرجل بصره نحو أبى الهول من جديد .. وعندئذ نسى روبى ، ونسى مصر ، ونسى كل شىء عدا ذلك الاثر الذى يعد أعظم ما ابدعت يد الانسان على كر الدهور ! ذلك الخلق الذى كان بهدوئه القاسى الصلب وقوته الهائلة يثير فى بعض القلوب الفزع والهول ، ويقر فى بعضها السلام والطمانينة .. يحرك بعض الطبائع نحو الطموح ، ويصرع البعض فى احساس شامل بعجزهم ، وتفاهتهم، وكيانهم الزائل ، ومستقبلهم المظلم المجهول ! .. ومهما يكن الاثر الذى يحدثه ابو الهول فى نفس مسز ارماين – لو انها راته فى لحظة من حياتها اقل حرجا من هذه اللحظة – الا انه بدا لها قاسيا مروعا .. اذ كانت العاصفة قد انفجرت فوق راسها ، وهى تواجه هذا الجمود الشامل .. وشعرت بنفسها فريسة للقوى المتضاربة ، تلك الوحوش الضارية التى كانت هى نفسها قفصا يضمها !.. كان وحش الصخرة الحية يواجهها ، ولو انه – فى رصانته الساخرة وقوته المتجردة من العاطفة – تنازل فاحس بوجودها ، لما وسعه ، كما خيل اليها ، سوى ان يهزأ بها ويسخر منها فى جمود غريب !.. وبينما لم تكن تؤمن الا بالحياة الصغرى ، فى هذه الدنيا ، كانت تستقر امامها فكرة الابدية ، منحوتة فى صخور القفار بيد الانسان ، لتقول لها من بين شفتيها الجامدتين : « يالك من حمقاء ! » .. واذ كانت تنطوى على عزم قوى، وارادة صلبة ، وغرور لا يهجع ، فان هذه القوة التى جثمت امامها لم تكربها فحسب ، وانما أثارت فيها الحنق والغضب .. وانصب سخطها كله على نيجل !.. فقد نسيت ، او انها شاءت الا تذكر ، ان ابا الهول كان اعجوبة العالم ، فقالت لنفسها انها تعلم حق العلم لماذا أحضرها نيجل لدى أبى الهول فى الليل .. لقد أحضرها كى تتلقى عقابا رادعا .. احضرها كى تزدجر .. وفى حمية أوهامها العصبية ، خيل اليها لحظة انه حدس شيئا من الحقيقة التى كانت حبيسة فى نفسها .. ولقد صدمته هذه الحقيقة فى قوة ، وصدمت آماله فى السعادة ، واتجاهاته الخلقية والمعنوية ، فكأنما احضرها لتتلقى عقابها على يدى أبى الهول .. وخيل اليها انها تنثنى وتتلوى فى قبضة الوحش ، وهى تكره من نفسها هذا الاستسلام لقبضته !.. لقد سخر « بارودى » من أبى الهول ذات مرة أمامها ، وانها لتذكر كلماته الآن بحذافيرها : « ان لدينا – معشر المصريين – ما هو اجدى من الذهاب والحملقة

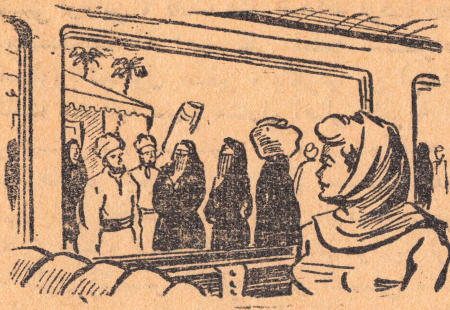
فى أبى الهول .. اننا نفضل ان نستمتع بحياتنا على قدر ما نستطيع ولا نشغل أنفسنا به » .. انها لتذكر هزة كتفيه القويتين ، التى صاحبت هذا القول .. بل انها لتكاد تستطيع ان تراهما وترى حركتهما الهازئة المترفعة، أمامها الآن !.. أجل ، لقد أخذ أبو الهول يتلاشى اذ ذاك فى ظلمة الليل ، على حين أخذ بارودى يتراءى لها وقد وقف أمامها ، فى مواجهتها .. وحجب جسده القوى عن عينيها رسم أبى الهول . وكانت نجمة المساء قد بزغت ، واشتد هبوب النسيم ثانية من مكانه الخفى بين الرمال ، وراح يهمس حول أبى الهول !

وهنا سرت رعدة فى بدنها ، فنهضت قائمة ، وهى تقول : « هيا بنا نذهب من هنا .. اننى أريد الانصراف ! » .. فقال نيجل متسائلا : « أليس رائعا ياروبى ؟ » .. فأجابت : « أجل . أين البدو ؟ » . ولم يعد فى وسعها ان تخفى طويلا انفعالها الداخلى الخفى ، ولكن نيجل عزاه الى سبب خاطىء ، واحترمه !.. كان أبو الهول دائما يحرك الناحية الروحية فيه تحريكا قويا ، ويجعله يحس فى كل خافقة من كيانه بأن الانسان لم يخلق ليكون مقيدا بالزمن وانما خلق للأبدية !. وقد اعتقد ان التمثال قد أحدث تأثيرا مماثلا فى نفس روبى ، فلم يدهشه ان ضايقها هذا التأثير ، وانما بعث فى قلبه حنانا عظيما نحوها ، يشبه حنان الأب حين يرى دموع طفله تنهمر بعد عقاب استحقه .. لقد جعلها أبو الهول تدرك ادراكا عميقا مدى بشاعة بعض الامور !.. واستبقى نيجل ذراعه حول خصرها ، بعد أن ساعدها على امتطاء حمارها ، وهمس : « هل تدركين ما تعنيه - بالنسبة لى - رؤيتى لابى الهول معك ؟ »

وكان الليل قد أسدل أستاره .. وفى تلك الظلمة راحا يجتازان الصحراء .. وظل أبو الهول قريرا فى مكانه يتطلع الى الشرق ، حيث كانت أضواء القاهرة تتألق عبر السهول تحت سفوح المقطم !

الفصل الثانى والعشرون

• **الفيوم** واحة عظيمة رائعة الجمال تقوم على هضبة مستوية من صحراء ليبيا ، موفورة الخصب ، غنية بالخيرات، لينة التربة ، ذات مناخ جميل ، وعيون من المياه العذبة التى توجه فى عناية الى شبكة من الترع والقنوات تنتشر كالغضون



على وجه الأرض ، فتنتشر الحياة وابتسام المرح خلال أشجار النخيل الكثيرة ، وأشجار الزيتون والفاكهة ، وحقول القمح وأحراش قصب السكر .. ويطلق عليها المصريون غالبا اسم « بلاد الورد » ، ويقولون أن كل شيء ينمو فى أرضها : فهى للفلاح جنة لا يلقى انسان فيها سوى السعادة . وما من مصرى عرف كيف يطلق البندقية الا استبد به الشوق الى ممارسة هوايته بين صيدها الوفير المتنوع ، وكل صائد سمك يشتهى أن يدلى بشباكه الى قاع بحيرتها المقدسة ، كما أن أصحاب الأراضى يفضلون أن يكون لهم القليل من الأفدنة بين (سنورس) و (بنى سويف) عن الكثير منها فى مناطق مصر الأخرى ! .. والرجل الذى يجرى وراء الجمال يصبو قلبه نحو ما لنسائها ـ غير المحجبات ـ من جمال شاعرى : بذقونهن ذات الوشم الرقيق ، وعيونهن الواسعة الكبيرة ، وأجسامهن اللدنة الهيفاء .. **وقلما يوجد فى وادى النيل فتى أسمر لا يتألق وجهه وينطق بالرغبة الجارفة اذا رنت فى مسامعه كلمة « الفيوم » ! .. انها أرض تسيل عسلا ولبنا ... أرض تشتهيها القلوب ، تلك البقعة الخضراء من الخصب الحلو الكريم التى يغدق عليها (بحر يوسف) من خيراته .. ولكنها**

بالنسبة لمسز ارماين ، كانت منذ البداية أرضا مقيتة !
كان معسكرهم قد أقيم على قطعة سمراء من الأرض الخلاء ، مجاورا لجدول صغير ، بالقرب من أجمة من أشجار النخيل كانت تحجب عنهم منازل أهالى القرية الكبيرة ــ أو البلدة الريفيــة ــ (ســنورس) .. وكانت الأرض التى يستصلحها فلاحو نيجل ، بل التى استصلحوها فعلا ــ اذ كان معظمها يانع الخضرة بالمحاصيل الوفيرة ــ تبعد عن هذا المكان قليلا ، حيث كانت الواحة تمتد موازية لرمال صحراء ليبيا ذات اللون الأصفر الفاقع ، أو العسلى ، أو السنجابى الشاحب أحيانا .. على أن نيجل كان قد أقام معسكره الأول ــ عند ما قدم الى الفيوم للمرة الأولى ــ بين نخيــل (سنورس) . وهناك سمع النــاى المصرى فى الليل .. وقد أراد أن يجدد بعض الانفعالات التى كان يشعر بها ، وان يحسها وقد ازدانت بمفاتن جديدة بعد أن تزوج ولم يعد وحيدا ، ولذلك فقد أمر بأن يقام المعسكر بجوار الجدول الصغير الذى عرفه ، حتى يتذوق التغيير الذى ألم بحياته ، على أتمه
وكانت السكة الحديدية تصل ما بين القاهرة وسنورس ، ومن ثم فان الزوجين قدما بالقطار ، فوصلا فى وقت متأخر بعد الظهر .. وكانت « الكسوة الشريفة » توشك على السفر بعد ثلاثة أيام ــ فى طريقها الى مكة ــ ولذلك امتلأت مدينــة (الفيوم) وغيرها من المحطات القائمة على طول الطريق بجموع من الأهالى الذين احتشدوا لتوديع الحجــاج الراحلين فى صحبتها لتأدية الفريضة فى الأراضى المقدسة .. وكانت الأعلام الرخيصة الصغيرة الحمراء ، ذات الأطراف الصفراء الفاقعة ، ترفرف فوق الأبواب وتحت مصاريع نوافذ كثير من المنازل ، كما كان الجو المعتدل الصافى مليئا بالأنغام التى تردد أناشيد الحج فى أصوات عالية مدوية ! .. وحدث أن تعطل القطار مرة فى أحدى المحطات الصغيرة ، وامتد تعطله ــ لسبب غــير

معلوم ـ فترة طويلة ، فجلست مسز أرماين خلالها بجوار النافذة تتأمل الجماهير ، بينما نزل نيجل ليلين عضلات ساقيه، وليرى الناس من كثب .. **وكانت الأناشيد تتردد فى أصوات جهورية ، لا من الحجاج المسافرين فحسب ، وانما من الكثير من « الحاسدين » الذين لن يتهيأ لأحدهم قط أن يحمل لقب « الحاج »** ! .. وسرعان ما تألفت ـ أمام باب العربة تماماً ـ جماعة غريبة من الناس ، تقدمها رجل متين البنيان ، عريض المنكبين ، ذو وجه شرس حليق الشارب ، أبيض البشرة ، تزينه لحية شائكة حالكة السواد .. وكان يرتدى عمامة خضراء . ووقف خلفه كهل كان يحدق أمامه بعينين فاقدتى البصر ، ويمسك عكازا طويلا .. ثم ثلاث نساء حجبن وجوههن بخمر كثيفة ، وارتدين ثيابا خفيفة يغطى بعض أجزائها « ملس » أسود فضفاض ذو أكمام واسعة . وكانت جفونهن مثقلة بالكحل ، وأيديهن ذات لون برتقالى قاتم من أثر الحناء .. وكان ينبعث منهن صليل وشنشنة كلما تحركن، اذ أحاطت بسواعدهن وسيقانهن حلى بدائية من الذهب والفضة ، كانت تنزلق وتدور حول أطرافهن الدقيقة العظام .. وكان الأعمى ينشد بصوت عال ، والنساء يحملقن فى غير هدف معين ، وقد رفعن أطراف « الملس » فى حركة لاشعورية أمام وجوههن رغم ما كان يسترها من حجب . أما الرجل ذو اللحية المشعثة ، فكان يتحدث فى عنف الى بعض الأصدقاء، ولا يلبث بين الحين والآخر أن يقطع حديثه فجأة ، وينضم الى رفيقه الأعمى فى أنشودته الصاخبة .. وكانت على الرصيف بجوارهم بضع صرر قليلة لفت فى ثياب بالية ومناديل .. بينما كانت تنبعث من خارج المحطة أصوات لا تنقطع من زغاريد النساء .

وفيما كانت مسز أرماين تتأمل هؤلاء القوم ، أقبل نيجل قائلا : « انهم ذاهبون الى مكة ! أترين هذه الصرر ؟ ان هؤلاء

المساكين سيتغيبون شهورا برمتها ، ومع ذلك فهذا هو كل ما يحملونه معهم من متاع ! » .. وكان الأعمى سادرا فى أنشودته ، وقد انضم اليه ذو اللحية السوداء وهو يرمق مسز أرماين بعينيه الضيقتين الفاسقتين ! .. وانبعث صوت بوق ، فصعد نيجل الى العربة . وبدأ القطار يتحرك فى بطء تاركا المحطة .. وكانت مسز أرماين تحملق فى الرجل ذى اللحية ، الذى ظل يحدجها بأنظاره ، وهو منطلق فى الزئير بأنشودته الدينية ، حتى غاب عن الأنظار !

وقال نيجل : « يا لهم من قوم غريبى الأطوار ! » .. وردت زوجته قائلة : « نعم ، انهم غريبو الأطوار جدا ! » .. فعاد يقول : **« ليس بوسع المرء أن يعرفهم على حقيقتهم قط ، فان بيننا وبينهم حاجزا أبديا .. ذلك الجدار الصخرى العظيم من دينهم .. كأنما العالم كله ذاهب اليوم الى الحج .. حتى نحن يا روبى ! »** .

وحتى عندما نزلا من القطار فى (سنورس) ، كانت المحطة تزخر بالناس ، والهواء يموج بأناشيد الحج .. وقابلهما ابراهيم فى المحطة ، بينما كان حمزة خارج السياج مع الحمار المخصص لمسز ارماين .. وكان مشتركا فى الانشاد ، وقد انبعث اللهب من عينيه الطويلتين .. ولكنه لم يكد يرى مسز ارماين حتى انقطع صوته وراح ينظر اليها فى صمت!.. وانتابها وهى تحييه احساس غريب غير مألوف ، وهو مزيج من الخوف والطمأنينة ، فقد كان من حلقات الاتصال بينها وبين بارودى ، ومع ذلك فانه كان ــ فى الوقت نفسه ــ يبدو فى ناظريها كشبح مشئوم .. ولم يكن فى وسعها قط التخلص من التفكير فى أن ضررا ما ، أو خطرا ماحقا مهددا ، لن يلبث أن يحل بها عن طريقه !

واذ غادروا المحطة وركبوا متجهين صوب النخيل ، أخذت أصوات الأناشيد تخفت شيئا فشيئا ، ولكنها ظلت تتناهى

اليهم ضئيلة خافتة ، حتى عند ما أصبحت الخيام على مرمى البصر منهم ، وكأنما كانت تتسلل بين الجذوع المجعدة ، ومن خلال الأعشاب الكثيفة النامية ، وفوق المياه الجارية ، لتؤلف موسيقى دينية خافتة حول مقامهم البدوى .. ولكن الأصوات تلاشت تماما بعد الغروب ، اذ حمل القطار طوائف الحجاج نحو القاهرة ، وتفرق المودعون سائرين بين النخيل ، أو فى طرقات (سنورس) ، متجهين نحو ديارهم .. وخيم الصمت فوق هذه الأراضى الفياضة بالخير والثراء ، والتى كرهتها مسز ارماين منذ اللحظة الأولى ! .. **كرهتها كما تكره المرأة مكانا يحل فى حياتها محل المكان الذى يأوى الرجل الذى يملك عليها مشاعرها ويسيطر عليها مهما تكن المسافة التى تفصل بينهما !**

وفى تلك الليلة ، رأت أمامها — وهى تجلس فى الخيمة — بساتين البرتقال التى تتاخم النيل ، وزهور الجيرانيوم البرية التى تحف بكشك من الخيزران وكأنها سياج حوله . وسمعت صوت الفلاح بجوار الشادوف وهو يرفع عقيرته بالغناء .. ترى هل كان يرتفع محتجا عليها أم نذيرا لها ؟ وهل كانت تبالى بهذا أو ذاك ؟ أو هل كان فى وسعها أن تبالى ؟ وهل فى وسع أى صوت أن يحول بينها وبين الانقياد الى الصوت الذى كان يدعوها ويناديها ؟ ثم ما الذى كان فى بارودى حتى يجعل نداءاته لها على هذا النحو من العمق ومن الاستبداد ؟ ما الذى كان فيه حتى يسيطر عليها هذه السيطرة التامة ؟! .. لقد بات فى وسعها — وهو بعيد عنها — أن تلقى على نفسها هذه الأسئلة التى لم تكن تملك أن توجهها الى نفسها وهو دان منها قريب !

لقد كان رائعا من الناحية الجسمانية ، ولكن .. هكذا كان رجال آخرون عرفتهم فسيطرت هى عليهم دون أن يسيطروا عليها ! .. وكان جسورا ، ولعله كان فى أعماق نفسه مستهترا ، وان بدا فى ظاهره — فى لحظات معينة ،

أحيانا ــ بعيدا عن الاستهتار .. ومع ذلك ، فقد كان هناك رجال آخرون على هــذه الشاكلة ، ولكنها لم تكن تحبهم البتة ! .. وكان عاطفيا ، بل غزير العاطفة ، ولكن نيجل كان عاطفيا ، ولو انه كان حريصا أشد الحرص على امتلاك زمام طبيعته .. **لقد كان بارودى غريبا بالغ الغرابة ! أجل ، كان غريبا بالغ الغرابة ، فقد كانت تفهمه دون أن يكون فى استطاعتها أن تفهمه ! .. كان مليئا بقوة غامضة عنيفــة ، تجمع بين الدين والرذيلة معا .. ولم يكن تدينه نفاقا أو رياء ، كما لم تكن رذيلته تمشى على استحياء ! كانا متماثلين فى الجرأة وقوة العزم .. وكانت كلما خالت انها قد استحوذت عليه ، وجدت انها قد أطبقت يدها على فراغ !** .. ومثل هذا الفشل يجرح كبرياء المرأة ، وغالبا ما يتمخض جرح كبرياء المرأة عن انبثاق عاطفتها !.. كان شديد الاهتمام بها ، ومع ذلك فان جزءا منه كان يتهرب منها ! فهل كان يحبها ؟ انها لا تدرى ! كانت تعلم انه كان يسوقها دواما نحو مزيد من الرغبة فيه ، ومع ذلك فان هذا الانسياق ــ بالذات ــ قد لا يكون مدبرا من ناحيته .. كان يبــدو من قلة الاكتراث بحيث لا يستطيع التآمر واحكام الخطط ، ومع ذلك فانها كانت تعلم انه كان يحكم خططه حولها ! .. أتراه كان الآن فى أسوان ، مع فتاة راقصة من قومه ؟ انها لم تسمع عنه كلمة واحدة منذ اليوم الذى سبق تلك الليلة العاصفة ، عندما جاء الجنى ممتطيا صهوة الرياح !

لقد خرج من حياتها بغتة ، دفعة واحدة .. ولم يقــل لها فى لقائهما الأخير شيئا عن أى لقاء مقبل ، ومع ذلك فانها كانت تعلم انه كان ينوى أن يلقاها ثانية ، وأنه كان ينوى .. ماذا ؟ ان صمته العميق لم ينبئها بشىء البتة ، ولم يكن بوسعها الا أن تعجب وترتاب ، والا أن تروض نفسها على الاحتفاظ بزهرة جمالها ، وان تثق ــ وهى ترى حولها حمزة

وابراهيم ــ فى انه ببراعته فى التآمر سوف « يدبر الأمور على نحو ما » ! ومع ذلك فكيف يمكن للأمور أن تدبر ؟ انها تنظر الى المستقبل، فتحس باليأس وخيبة الأمل .. ترى ما الذى سيحدث ؟ كانت تعلم انها اذا انساقت وراء عاطفتها ، فأعدت نفسها لأن تقدم على خطوة جنونية .. خطوة حاسمة ، فان بارودى لم يكن ليسمح لها بأن تخطوها . وما كان قد أنبأها بذلك ، ولكنها أدركته بغريزتها . ولو انه كان يعتزم أمرا ، فلا بد أنه يختلف عما يخالجها كل الاختـلاف .. لابد أنه ينتوى أمرا ، بل لابد أنه ينتوى الكثير من الأمور .. والا فلماذا كان حمزة هنا فى أعماق (الفيوم) اليانعة الخضراء ؟

وكان نيجل قد ذهب الى (سنورس) ليحضر بعض المؤن، وتركها لترتاح بعد سفرها من القاهرة ، فنهضت من مجلسها على الأريكة فى « خيمة الجلوس » التى كانت مريحة بأثاثها المتواضع ، غير الفاخر ، ومضت الى الباب حيث راحت تتطلع الى الخارج .. وكان الليل قد أرخى سدوله ، وبرزت النجوم من خدورها ، وأشرق قمر صغير وقد أحاطت به هالة مضيئة من البخار ، فراح ينشر ضياءه فى السماء التى كان بعضـها محجوبا بضفائر رفيعة من السحاب .. وكانت أشجار النخيل المتكاثفة المتقاربة تبدو أشبه بعصى طويلة سوداء تتوجهـا اكاليل ضخمة من الريش .. ورأت بينها ضوءا يلمع ، كان ينبعث من خيمة ضربت على مبعدة منهم ، وشغلتها سيدة ألمانية فى أوسط العمر ، تسافر فى صحبة شاب عربى وسيم الطلعة .. وكانا قد مرا بالطريق قريبا من المعسكر ، بينما كان ارماين وزوجته يتناولان الشاى ، فسأل نيجل ابراهيم عنهما .. وما زالت مسز ارماين تذكر تلك النظرة التى لاحت منه ، وهو يقول لها ، بعد أن سمع قصتهما : « هذه احـدى النساء اللواتى يدمرن سمعة الأوربيين وكرامتهم هنا » ... وقد أجابته قائلة : « هذا شىء لا أستطيع أن أفهمـه على

الاطلاق ! » .. ثم بدأت تدير الحديث الى أمور أخرى .
ولكنها لم تنس قط تلك اللمحة التى ارتسمت فى عينيه وتبدت فى أساريره ! .. ولو أن « أمورا معنية » وقعت ، فلسوف يستبد بها الخوف من نيجل !

ونبحت الكلاب عن بعد ، وسمعت مسز ارماين خرير الماء فى الجدول الذى يجرى أمام المعسكر ، وانبعثت من الأرض المثقلة بما تحمله من زرع — الا حيث ضربت الخيام — رائحة أوحت اليها بجو الخريف .. وظهر فى الطريق الضيق المؤدى الى المدينة — وسط الحقول والنخيل — اثنان من رجالهم ، قادمين نحو المعسكر وهما يمتطيان جملين .. وما مضت لحظة حتى ارتفعت زمجرة حادة ، مختلطة بنباح الكلاب وخرير الماء .. وكانت الجمال قد قيدت الى أوتادها استعدادا لهجعة الليل ، ولم يكن الجو باردا حقا ، ولكن الهواء خلا من ذلك الدفء الذهبى ، كما ان ذلك الجفاف النقى الرائع الذى تمتاز به مصر العليا ، خلفته رطوبة كثيفة بعد أن غابت الشمس .. وكان البخار الذى يحف بالقمر ، والرائحة المنبعثة من الأرض ، وأصوات الكلاب البعيدة ، وخرير الماء الدانى ، وشعورها بالطل المعلق فى الجو حولها نديا رطبا ، وذلك الضوء المتألق فى الخيمة البعيدة بين النخيل .. كل ذلك جعل مسز ارماين تحس انقباضا لا تكاد تحتمله .. كانت تتوق بكل جوارحها الى العودة للأقصر ، وكان يخيل اليها أن من المحال ان يكون أى امرىء سعيدا هنا .. ومع ذلك فقد كان نيجل سعيدا كل السعادة ! وكان كل مصرى يتمنى ان يكون فى الفيوم ! .. وبدا لها رنين الاسم نفسه موحشا كئيبا !

* * *

• **لابد** ان يكون بارودى قد انتوى امرا ! .. وفيما كانت تفكر فى ذلك ، اذا بها ترى حمزة — منتصب القامة كالقصبة —

قادما من المدينة فى ذلك الطريق الضيق المعتم .. وعادت الى أفكارها : يجب أن تسعد نيجل أولا ، ثم تنتظر ! .. يجب أن تشعر نيجل بالسعادة البالغة ، لئلا تجد نفسها قد سقطت تحت تأثير تقدير بارودى لها واعجابه بها ، ولئلا تثبت على نفسها أنها أقل براعة وحذقا ودهاء مما تحس بأنها عليه !

واجتاز شبح حمزة المعتم قنطرة صغيرة من جذوع النخيل ، أقيمت فوق جدول الماء ، ثم استدار واجتاز الأرض الخلاء نحو المعسكر ، فى سكون شامل ، اذ كان يمشى بقدمين حافيتين .. ومضى نحو خيمة الرجال ، حيث كانت الجمال قد انيخت صفا واحدا ووجوهها نحو باب الخيمة وراحت تأكل طعامها من الشعير الذى نثر أمامها على سماط من الخيش .. فلما بلغ مدخل الخيمة ، وقف ساكنا بلا حراك ، ملتفا فى عباءة سوداء ! .. ونادته مسز ارماين فى رفق ، من أمام مدخل خيمتها : « حمزة ! حمزة ! » ، فمرق خلال الفراغ الذى كان يفصل بين الخيام ، حتى وقف بجوارها .. ولم تكن قد تبادلت الحديث مع حمزة قط من قبل ، وما سمعته ينطق بكلمة انجليزية الا « نعم » .. ولكنها كانت تحس فى تلك الليلة بشوق قلق الى توثيق علاقتها به .. فقد كان مبعوث بارودى الخاص الى معسكر الفيوم ! .. وقالت : « أمسرور أنت من وجودك فى خدمتى يا حمزة ؟ هل يسرك انك قدمت معنا الى الفيوم ؟ » ، فأجاب : « نعم » .. وترددت قليلا .. **فقد كان فى مظهره ، وفى مسلكه — دائما — شىء ما يبدو كما لو كان يقف حاجزا بينها وبينه ، وينفرها منه .. كانت تحس دائما كأنما كان الشاب يدفعها بعيدا ، بكل ما فى عقله وروحه من قوة !** وقالت أخيرا : « هل تحبنى ياحمزة ؟ » ، فأجاب : « نعم » . وعادت تسأله : « لقد ذهبت الى مكة مع محمود بارودى ، أليس كذلك ؟ » .. ومرة أخرى أجاب . « نعم »

ولكنه نطق بالكلمة فى هذه المرة ، فى غمغمة خافتة .. وكانت يداه تتدليان الى جانبيه ، وقد أخفاهما فى كما العباءة الفضفاضة ، فاذا بهما تتحركان ، وترتفع احداهما فى سرعة الى صدره ، حيث ظلت فى مكانها .. وعندئذ قالت مسز ارماين فى حدة مفاجئة : « ما الذى تفعله ؟ » .. واسرعت بدورها ، مدفوعة بباعث لم يكن بوسعها أن تفسر كنهه ، فامسكت بيده التى وضعها على صدره ، وجذبتها الى ناحيتها .. ورأت فى ضوء القمر الشاحب انه كان يمسك — فى احكام — بما يشبه مسبحة من الأصداف وقد ربطت بخيط حول عنقه .. فأسرع يغطى الأصداف بأصابعه ، وقد بدت نواجذه ، وعندئذ خلت من يده ، وهتفت سائلة :

— ما هذا ؟ — نعم ؟!

فاستدارت ودخلت الخيمة ، وعندئذ انفلت مبتعدا ، اشبه بالشبح

وفى تلك الليلة ، سألت نيجل عندما عاد من سنورس : « ما معنى هذه المسابح المؤلفة من الأصداف ، والتى يضعها المصريون احيانا حول أعناقهم ؟ » .. فسألها . «أى نوع من الأصداف ؟ » .. واذ قالت : « الودع ! » ، هتف « الودع ؟ آه ! انهم يعدونه تعويذة ضد الحسد والأرواح الشريرة .. أين رأيت مثل هذا الشىء ؟ » .. فأجابت : « لقد رأيته على أحد المكاريين فى جنوب النيل ، بالاقصر ! » .. ثم ادارت دفة الحديث الى وجهة أخرى !

وكانا يجلسان لتناول العشاء على جانبى منضدة ذات قوائم حديدية ، من النوع الذى يمكن طيه ، وقد فرشت تحت أقدامها سجادة زاهية سميكة ، منسوجة من الصوف ، كانت من السعة بحيث كانت تخفى تماما الأرض الصلبة داخل الخيمة المستديرة التى كان قماشها مجللا ببطانة حمراء اللون قانية ، تغطيه رسوم مزخرفة من الألوان السوداء

والبيضاء والصفراء والزرقاء والخضراء .. وكانت الخيمة مضاءة بمصباح كبير من المصابيح التى تضاء بالبترول ،أخذت تدور حوله فراشات الليل وترتطم بفطائه الزجاجي بين الحين والآخر ! .. وكان مدخل الخيمة مفتوحا ، وقد وقف ابراهيم أمامه مباشرة ، وهو يلف رأسه ووجهه بوشاح كبير ذى أهداب هفهافة ، ليرقب قيام « السفرجى » الوطنى بواجبه على مايرام .. ومن خلال هذا الباب كان خرير الماء ينساب خافتا، تخالطه من بعد جلبة الكلاب التى كانت لا تكف ولا تنى عن النباح .. كما كان العبير النفاذ المنبعث من التربة الرطبة الخصبة يتسلل الى الخيمة فيختلط برائحة الطعام فى الأطباق!

وكان وجه نيجل يشع بضياء باهر ، فقد انتقلا طفرة واحدة من المدينة الحديثة الى هذه البرية الموحشة ، وكان يحس فى ذلك بالسعادة كاملة .. ومن ثم راح يتطلع الى « روبى » ليستبين فى أساريرها انعكاس نشوته وجذله ،وان داخله شىء من الشك والريبة ، اذ كان يدرك أنها تجربة جديدة لها ، فى حين انها كانت بالنسبة اليه قصة قديمة أسبغت عليها روبى روعة الحب الفاتنة ! .. وردت نظرته بنظرة ارتاح لها عقله .. نظرة هزت مشاعره ، ولكنها مع ذلك لم توح اليه بغير هذه الملاحظة السخيفة : « لا بأس بالطاهى ياروبى .. أليس كذلك ؟ » . فقالت : « انه رائع ! وما أرانى قد تناولت عشاء فاخرا كهذا ! ترى كيف يسعه ان يعد ذلك كله فى الخيام ؟ » .. ثم رفعت مقعدها ، وهى تردف قائلة : « ان هذه المائدة منخفضة قليلا .. ولكن ، ما كان ينبغى أن أكون طويلة الى هذا الحد ، فالمرء فى المعسكر يجب أن يكون ذا حجم مناسب ! » . فهتف يقول متلهفا : « هل تعبت من الجلوس اليها ؟ »

ـ كلا ، كلا .. لم يكن تعبا بمعنى الكلمة .. انه ليس بذى بال !

ــ سوف أعمل غـداً على تغييرها ، ورفـع قوائمها على نحو ما .. فيجب أن يكون كل شيء هنا على ما يرام ، مادمنا سنقضى فى المعسكر بعض الوقت

فنهضت واقفة وهى تقول : « لن أتناول القهـوة الليلة ، فما أفظع أن يأرق الانسان فى خيمة ! » .. فقال : « مسترين انك ستنامين هنا نوما مريحا ، فكل امرىء ينام نوما عميقا فى المعسكر ، لأن المرء يقضى وقته كله فى الهواء الطلق ، حتى اذا ما وافى المســاء كان متعبا منهوكا » .. فقالت : « نعم .. ولكنى لن أعمل عملا شاقا كما تفعـــل أنت ! » .. ومضت نحو مدخل الخيمة ، وما لبثت ان قالت فى غـير اكتراث : « كم من الوقت سنقضيه فى الفيوم ؟ كم مكثت انت فى السنة الماضية ؟ » . فأجابت : « لقد ظللت أروح وأغدو نحو سـتة أشهر » .. فلم تقل شيئا ، بينما اشعل هو سيجارا ، ثم أردف : « على ان الأمر جـد مختلف الآن طبعا .. فنحن سنبقى طالما شئت أنت .. أما اذا لم ترغبى فى البقاء ، ففى وسعنا أن نعود للتو الى الفيللا » .. فتساءلت : « وعملك ؟ » وكان جوابه : « ينبغى لى فى الواقع ان أكون هنـا .. ولذا أرجو ان تحبى هذا المكان ياروبى ! »

ولحق بها عند باب الخيمة ، وهو يتابع القول : « على اننى اعتزم ان افرغ لك فى هذا الشتاء ، لاحاول اسعادك ، وسوف نرى الى أى مدى يمكن ان تستسيغى البقـاء هنا .. هل تظنين أنك سوف تحبينه ؟ هل تحسـين ، كما أحس أنا ، بالنشوة من هذه الحرية المطلقة الشاملة ؟ » وتأبط ذراعها ، وهو يواصل الحديث قائلا : « انه تغيير جسيم بالنســبة اليك ، فهل ترينه تغييرا سعيدا ؟ » .. فكان جوابها : « ان هذا مكان رائع ، ولكنه غريب على فلابد من أن آلفه أولا » ..

وكانت وهى تقول ذلك تحس بشوق بالغ تـكاد تزهق روحها من تباريحه .. شوق الى أن تستقل قطار الصباح الى

القاهرة ، اذ انها ــ وهى التى اعتادت أن ترى كل نزواتها تطاع ، وجميع ميولها تقابل من الرجال بالارضاء .. لم تدر كيف كان من الممكن أن تحتمل هذا الموقف الذى لا سبيل لجعله محتملا الا بحب جارف ، فحسب ! ..

ولقد كان هذا الرجل الواقف الى جوارها يطوى بين جوانحه هذا الحب الجارف الذى جعل من «الفيوم» الموحشة الكئيبة جنته السماوية ! .. وشد ما كانت تود أن تلطمه لأنه كان على هذا القدر من السعادة ! .. ومضت تقول فى تمهل : « هناك شىء واحد يجب أن أصارحك بأننى أحب أن أفعله قبل ان نرحل من مصر » .. وبدت كما لو كانت محرجة ــ بل مرغمة ــ على أن تقول ذلك .. فأجاب : « وما هو هذا الشىء ؟ »

ــ اننى أحب ان أذهب جنوبا فى النيل على احدى الدهبيات !

ــ سوف تذهبين اذن .. وعندما نبرح هذا المكان ، ونمر فى طريقنا بالقاهرة ، فسوف ابحث عن واحدة ونرسلها الى الاقصر ثم نبحر عليها من هناك الى أسوان .. ولكن لا تظنى أننى سوف احصل على « لولية » أخرى !

وانطلق يضحك ، وهو يضيف : « فان أصحاب الملايين مثل بارودى لا يؤجرون مراكبهم .. واذا فعلوا فاننى لا أستطيع أن أدفع من الريع الضئيل الذى أحصل عليه من أيتشنجهام » .. وتغضن جبينها فى عبوس .. فلشد ما كانت تكره أن تسمع الرجل الذى يحبها يتحدث عن فقره ! .. **كان عقلها قد اعتاد التفكير فى انه ليس من حق أى رجل أن يحبها ما لم يكن قادرا على أن يهبها كل ماتريد كاملا غير منقوص !** . وما لبث نيجل ان قال : « الا نخرج الى العراء قليلا يا روبى ؟ » . فأجابت : « حسنا .. لك ماتشاء ! »

وخرجا الى الخلاء ، وكانت يده لا تزال موضوعة على ذراعها ، وهو يقودها الى ضفة الجدول الصغير ، وقد اوشك

الهلال على الغروب .. أما السماء الزاخرة بالنجوم فكانت مرقشة هنا وهناك بغلالات رقيقة من السحب .. وكان الطل الثقيل يهبط على الحقول الكثيفة التى كانت تملأ الواحة ، بينما انتشر على سطح الأرض - على مبعدة من ادغال النخيل حيث كان يتألق مصباح خيمة السيدة الألمانية والفتى العربى - ضباب رقيق متلألىء .. واستنشق نيجل الهواء بشراهة ؛ ثم أطلقه ، فاندفع من بين شفتيه بخار سميك ، وقال : « لقد تركنا جفاف الجو فى الوجه القبلى ، أما هذه فأرض الخصب .. الأرض التى ينمو فيها كل شىء ! والندى أثناء الليل جميل أخاذ .. ولكن مهلا ، فسوف أحضر لك معطفا .. تذكرى أننى وصيفتك هنا ! » .. ومضى فأحضر معطفا ، وضعه فوق كتفيها ولفه حول بدنها ، ثم قال : « اننى لاظن ان اللولية الآن بعيدة فى جنوب النهر ، ولعلها فى أسوان .. وانى تساءلت هل يقدر لنا ان نرى بارودى ثانية يوما من الأيام ؟.. انه فى رأيى شخص طيب ، ولكن المرء - على أية حال - لا يستطيع البتة أن يكون وثيق الصلة بشخص شرقى .. لقد كنت أظن ذلك ممكنا ، بل كنت أقسم على امكانه ، ولكن .. »

ولم يتم عبارته بل راح يهز رأسه وهو ينفث دخان سيجاره .. كان قد اتخذه - دون وعى منه - سمة الزوج ولهجته ، فبدا فى نبرات صوته شىء يوحى بأنه يفترض موافقة روبى على هذا الرأى .. **وكم تمنت اذ ذاك ان تباغته ، وأن تقول له أنها كانت على صلة بشخص شرقى ، صلة اشد توثقا مما يمكن ان تكون صلتها به هو .. ولكنها فكرت فى الدهبية ، وفى النيل ، وفى الخلاص السريع من هذا المكان ، فما لبثت أن قالت : « اذا شئت الحق ، فاننى كنت أحس دائما بمثل هذا الشعور .. هناك حاجز منيع بين الشرق والغرب ! »** .. ونظرت الى الضوء البعيد بين النخيل ، ثم استطردت قائلة فى ازدراء : « وهؤلاء الذين يحاولون القفز فوق هذا الحاجز لابد ان يكونوا

مجانين ، او اشد سوءا » .. فبدا وجه نيجل صارما عبوسا ، وقال : « أجل ! اننى أنفر عادة من الحكم على الناس ، ولكن هناك اشياء معينة لا يمكن للمرء أن يغتفرها قط ! » .. ثم طوح ذراعه ناحية الضوء ، وأردف : « وهذا واحد منها .. فشدما اكره ان أرى هذا الضوء قريبا منا .. انه اللطخة الوحيدة التى تشوه الكمال هنا» .. فغمغمت قائلة : «لاتنظر اليه ! »

وكان تعبيره الغريب عن الاشمئزاز القوى العنيف ، وعن الحنق البالغ ، قد اذهلها واقلقها فى وقت واحد .. فاستطردت تقول : « ولا تفكر فيه ، فليس لنا شأن به . آه ! ما هذا ؟ »

فقد انبعثت فى تلك اللحظة من الضفة الاخرى لمجرى الماء ، انغام عذبة صافية ، اشبه بأنغام (الفلوت) ، وراحت تزداد ترديدا وترجيعا المرة تلو الاخرى .. ولان وجه نيجل ، وتلاشت الصرامة منه لتحل محلها لمحة جعلته يبدو كوجه غلام حالم .. ثم همس قائلا : «انه .. انه الناى المصرى على ضفة الماء ! » .. وتسلل ذراعه الى خصرها فاحتواه ، ثم أردف يقول : « اقتربى منى قليلا .. نعم .. هكذا ! .. والآن انصتى معى ! »

وعاد النغم الخافت الصافى يتردد مرة بعد أخرى .. وكان الهلال قد مضى فى رحلته وراء النخيل ، فزاد رحيله من حلكة الليل ، مما جعل الضوء البعيد بين النخيل أشد وضوحا ، وأقوى تألقا .. وتعلقت عينا بيللا دونا به ، وثبتت أنظارها عليه .. بينما كان الناى المصرى منطلقا فى ترجيع أنغامه الصافية !

الفصل الثالث والعشرون

◆ استعانت مسز ارماين بكل ما فيها من شجاعة وصبر وقوة ارادة ، وبدأت تعمل فى عزم واصرار على بلوغ المأرب الذى استقر عليه رأيها :



الرحيل عن هذه البلاد التي كانت تزداد بغضا لها يوما بعد يوم !.. وقد أثار الموقف الذى كان يكتنفها - وهو موقف جد مختلف عن كل ما مر بها من قبل - نوعا من الياس العصبى فى قرارة نفسها ، فاذا بهذا الياس يزودها بالسلاح ويجعل منها امراة خطرة !.. ولانها أضحت امراة خطرة ، فانها أخذت تتظاهر بالسعادة فى سذاجة وبراءة ، بل انها كثيرا ما كانت تمعن فى التظاهر فتبدو فى سعادة حارة متأججة . وشرعت تظهر بمظهر التى نبذت كل فضلة مما علق بها - من قبل - من مسلك الغانية الخبيرة .. ولعل نيجل ما كان ليصدق وجود هذه البقايا . على انه شعر بالتغيير الذى الم بهـا ، وطرب له .. وراح يقول لنفسه ان تجربته فى الحب اثبتت صواب رايه : فقد استطاع أن يرد لروبى - بحبه لها وثقته فيها - اعتزازها بنفسها ، وان يعيد لها [illegible] العقلية والجسدية .. وهو بعمله هذا قد هيأ لنفسه غبطة لم يعرفها قط من قبل ! وفى غمرة هذه الغبطة ، تجلت طبيعته فى اكمل صورها ، وتوثب نشاطه ، واضطرم ذكاؤه ، وتوهج قلبه واشتعل ..واحس بنفسه وكأنه أضحى ضعف الرجل الذى كانه من قبل ، فانكب على عمله بقوة عملاق ، واقبل على ملاهيه - من الركوب والقنص وصيد السمك - بحماسة الفتى الذى يتحرر من الوصاية لاول مرة !

ولقد نالت مسز ارماين جزاءها على الجهد الذى انفقته فى الخداع ، بما شهدته من سعادة زوجها ، وعرفانه لجميلها ، ووفائه وتفانيه من اجلها .. فقد كانت من البراعة بحيث وضعته فى الموضع الذى توقعت الدنيا ان تشغله هى .. فى موقف المتواضع ، المعترف بالفضل والجميل !.. ونجحت سريعا فى أن تدخل فى روعه إنه كان جميلا منهـا ان ترضى بالزواج منه ، وان ما ضحت به - فى سبيل ذلك - لم يكن بالقليل !.. ولم تكن تشكو البتة ، ولكنها غالبا ما كانت تشير ، بكلمة عارضة ، الى انها فى سبيل التقـدم فى

تطورها ، راحت تحتمل بسرور قدرا من العناء غير قليل ٠٠ من ذلك انه لم يكن يمر يوم دون ان تدبر ما تحيي به فى ذاكرته انها من اجله وحده تعيش بغير وصيفة ، للمرة الاولى فى حياتها ! ومع ذلك فانها لم تقل قط : « ليتني احتفظت بمارى » ، وانما كانت سبيلها الى ذلك ان تقول : « لكم احمد ما قررناه من التخلص من مارى يانيجل ! انها كانت خليقة بأن تحس بالشقاء هنا ، فان هذه الحياة كانت كفيلة بالقضاء عليها ، ولو انني اعمل على مواجهتها على خير وجه ٠٠ ولكن الخدم لا يقبلون البتة هذا الشظف ! وانه لجميل منك انك لا تبالى بمظهرى الخالى من الزينة ، وارتدائى دائما نفس الثياب القديمة ! »٠ وكانت تقول هذه الاشياء فى لهجة تصطنع فيها المرح ، وتحرص - فى الوقت نفسه - على ان تنم عن مدى الجهد المعنوى الذى كانت تبذله !٠٠ ولربما قالت ، اذا ما جلسا للعشاء : « أليس من الخوارق يا نيجل ان يصبح الانسان بسرعة قليل الحفل والاهتمام بما يأكله ، مادام يجد ما يمسك به رمقه ويشبع جوعه ؟٠٠ انني اذكر ذلك الزمن الذى كنت فيه محبة للأكل اكثر مما ينبغي للمرأة ، ذواقة للطعام الجيد ٠٠ وهاندى الآن ابتلع ما يقدمه لنا محمد من طعام ، فاستطيبه وأستطعمه !٠٠ هلا اعطيتني قدرا آخر من هذه « اللبخة » العجيبة ، التى يسميها كباب حلة ؟! » ٠ فاذا ما اوى نيجل الى فراشه فى تلك الليلة ، أو خلا الى نفسه خارج الخيمة ليدخن ، راح يفكر قائلا لنفسه : « يا للسماء ! ان روبى زوجة مخلصة حقا ، اذ ترضى بما يقدمه لها محمد ، بعد تلك الاطعمة الفاخرة التى اعتادت دائما ان تتناولها » ٠٠ فى حين انه كان من قبل يهنىء نفسه على نجاحه فى استخدام ذلك الكنز الثمين - الذى يعد افضل طهاة المعسكرات فى مصر كلها - رغم ارتفاع اجره !

وكانت دواما - بمئات من الطرق والوسائل - تعمل على ان تذكره بتلك الرفاهية التى كانت تعيش فيها طوال السنين الماضية ، ولكنها - مع ذلك - لم تبد قط آسفة عليها ، وانما كانت دائما تهنىء نفسها على انها هجرت تلك الحياة الى حياة اخرى تختلف فى طريقتها ٠٠ حياة تشبه ما كان يلقاه اهل (اسبرطه) - فى الماضى - من شظف وعناء !٠٠ والواقع انها اصبحت غالبا ما تتكلم كما لو انهما كانا من عامة الناس ٠٠ كما لو انها كانت قد تزوجت من رجل فقير حقا !٠٠ وكانت ، اذا ما اقترح شيئا قد يكلفهما المزيد من النفقات ، تقول : « انني لن ادعك تتصرف بغير روية ، فلسنا أثرياء ٠٠ ومع انني أحب انفاق النقود ، الا انني أكره أن أدفعك الى الاستدانة ! » ٠٠ فاذا ما بدا نيجل يبين لها قدرته التامة على ان يقدم لها أى شىء مهما يكن ، تجاهلت ملاحظاته فى لطف - وفى مرح أيضا - بمثل هذه العبارة : « انك تنسى الى أى مدى يختلف مركزك الآن بعد ان انجب اخوك وريثا ! » ٠٠ ولقد

امعن فى الحاحه ذات مرة ، وأطلعها على مركزه المالى سعيا الى اقناعهـا بان لديهما « الكثير مما يفى بكل مطالبهما » ، فكانت النتيجة على غير ما توقعه ، اذ ظلت برهة واجمة وكأنما عقلت الدهشة البالغة لسانها ، ثم لم تلبث ان استعادت هدوءها ـ فى الظاهر ـ وقالت فى عزم : « اذا كان هـذا هو كل ما نملكه ، فانني على حق تماما فى أن اكون شحيحة مقترة !٠٠ وفضلا عن ذلك ، فانه أمر جليل بالنسبة لى ان اضطر الى التفكير فى أمر المـال ، فلقد اعتدت دائما ان أنفق المال بلا حساب ، وقد قضيت حياتى كلها أعيش فى بذخ مفرط ، ورفاهية تفوق الحدود ٠٠ لذلك فان التحول الى عيشة البسـاطة وانكار الذات ـ بين الحين والآخر ـ سوف يفيدني أعظم فائدة ، سواء رضيت عن ذلك فى بادىء الامر أم لم أرض عنه ! » ٠٠ ثم تتظاهر بأنها تكتم زفرة توشك أن تنطلق من صدرها ، وتبتسم له فى رقة بالغة وعزم أكيد !

ولكنها لم تغال قط فى تمثيل دورها ، ولم تحاول قط ان تبرز ان وراء موقفها أمرا معينا ، فما أن ترى انها قد بلغت غرضها و « اصابت هدفها » ، حتى تدير الحديث الى وجهة أخرى ٠٠ وما حاولت قط ان تثابر على أداء دور المغبونة المضحية ، فقد كانت من الحصافة بحيث تدرك كيف يعاف الرجل ، فى أعماق نفسه ، الزوجة المضحية ! بل انها استطاعت ـ بمختلف الحيل ـ ان تبقى نيجل مفعما بالتقدير لها ٠ ولم يفتها خلال ارضائها للناحية الروحية فيه ، ان ترضى النواحي الاخرى ، فلم تدع له الفرصة قط ليغفل عن انهـا ما زالت امرأة فاتنة شهية ، وانها بكل مافيها ملك يديه !٠٠ وهكذا ايقظت فيه ـ خطوة بعد خطوة ـ شعورا عنيفا ملحاحا بحاجته اليها ٠٠ ذلك الشعور الذى يثيره طراز معين من النساء فى طراز معين من الرجال !٠٠ وهكذا علمته ان يشكر لها صنيعها اذ هيأت له تلك المتعة المزدوجة : المتعة الروحية للرجل ذى العقلية السامية الذى عثر ـ أو خيل اليه انه عثر ـ فى امرأة معينة على ما يحقق ، الى حد ما ، مثله الاعلى فى السلوك ٠٠ والمتعة الجسـدية للرجل العادى الموفور الفتوة ، الذى يقرن ـ حقا وشرعا ـ شبعه الروحى بشبع آخر جد مختلف ! وأخذت تحمل المشعل أمام الروح والجسد معا ، فكان كلاهمـا يجد الدفء فى وهجه ، ويجد الغبطة والحبور فى ضيائه !

كان نيجل قد مال اليها فى انجلترا ، وأحبها فى فيللا اندرود ٠٠ ولـكن هذا الحب وذلك الميل لم يكونا شيئا مذكورا الى جانب هذا الشعور الذى نما فى قلبه نحوها ، وسط هذه الخضرة النامية التى تجعل من (الفيوم) جنة فيحاء ٠٠ فلقد نشأ فى أحضان الطبيعة ، واعتـاد قلبه ان يخفق مع قلب الطبيعة الكريم الحانى !٠٠ وعندما كان يقف حتى كتفيه فى بحر من عيدان قصب السكر ذات الخضرة المشوبة بلمعان الفضة ، او يتطلع الى سعف النخيل

التى كانت تتهامس فوق رأسه ، أو يصغى الى خشخشة سنابل القمح الغارقة فى أشعة الشمس ، والى حفيف أعواد الذرة المثقلة بالثمار خلال هبات النسيم الوافد من الصحراء .. كان كثيرا ما يقارن - اذ ذاك - حبه النامى لروبى ، بهذا النمو المطرد لنتاج الطبيعة الأم فى ذلك المناخ الكريم الجواد .. وكان يخال ان الوفرة العارمة التى امتاز بها ذلك العالم الاخضر المحيط به ، كانت تجد لها فى أعماقه قرينا ! ولكن ، كانت هناك الصـحراء الغربية كذلك ، تذكره بقفار العالم المجدبة .. القفار المجدبة فى الانسانية التى تحتـاج الى استصلاح وتعمير !

* * *

◆ ولم يتخل نيجل - فى غمرة هذه النشوة العارمة - عن أجمل ميزاته الفطرية : ميزة التواضع المجرد عن الزهو وحب الظهـور .. وكان ما فطر عليه - كانجليزى أصيل - من كتمان مشاعره نحو كل ما يستثير عواطفه ، قد صده عن اطلاع زوجته على ما كان يعتمل فى عقله وقلبه . وكانت روبى من البعد عن الروحانية والحماس المعنوى ، بحيث شق عليها ان تحدس شيئا من هذه المشاعر ، ولكنها فى الوقت ذاته درست نيجل أدق دراسة ،فادركت - بوجه عام - « مكانتها من نفسه » ! .. وكانت أحيانا تعجب من ان تجتمع فى نفس واحدة من الامور ما اجتمع فى نفسه ، ولكنها كانت تعلم انها موجودة حقا على هذا النحو !.. ولقد راحت تؤدى دورها على خير وجه ، وان الجهد القنوط يثقل على أعصابها يوما بعد يوم ، بفضل هذا الاداء . على انها كانت حين تفقد شيئا مما أخذت به نفسها من تجلد - للحظة عابرة ، بين آن وآخر - تفلح فى حمل نيجل على أن يعزو ما يصدر عنها من حدة أو سلاطة لسان أو مرارة ، الى عيب فيه أيقظ وساوس المرأة التى طالما عانت من الذل والامتهان. وكانت تذكره فى خبث بتلك الليلة التى أعقبت خصامهما فى حديقة « فيللا اندرود »

كانت تذكره - دون كلام - بما قالته اذ ذاك من كلمات ، حتى ليخيل اليه انه يسمعها تقول : « عليك - بعد الذى حدث هذا الصـباح - ان تثبت لى ايمانك بى .. ان تثبته بما لا يدع سبيلا الى الشك ، والا فاننى لن أصدقه ! .. ولابد من ان ينقضى بعض الوقت قبل ان اشعر بالامن والسلامة معك .. فليس فى وسع المرء أن يشعر بهما الا عندما يجد ذلك الشطر الضئيل من الاخلاص - الكامن فيه - يقابل بالتصديق والايمان والثقة ! » .. وكان يذكر ما استقر عليه عزمه - فى تلك الليلة التى استحكمت فيها الأزمة بينهما - من ان يرد على تلك المرأة ثقتها فى الخير ، بان يوطد ايمانه بالخير الذى تنطوى

عليه نفسها !٠٠ ومن ثم فانه كان يسخط على نفسه ، ويقسم على بذل جهود جديدة ٠ ولم يكن من العسير عليه ان يبذل هذه الجهود بعد ان اصبحت روبى له بكليتها ٠٠ بعد ان اصبح يراها وقد طلقت - الى غير رجعة - حياتها السالفة ومعارفها السابقين ، وبعد ان اصبح يضمها معه فى احضان الطبيعة ٠٠ بعد ان اصبح يعرف - وكيف كان يمكن ألا يعرف ؟! - انها تعيش فى عفة وطهارة وبساطة ، وانها ، كما كان يظن ، راضية قانعة سعيدة ، على الرغم من تلك النظرات العارضة التي كانت تلقيها على الماضى ، حنينا الى بذخها ورفاهيتها القديمة الراحلة !٠٠ فمن العسير على الانسان الذى يجد السعادة الكاملة فى حياة معينة ، ان يتبين ما فى مثل تلك الحياة من شقاء وعذاب لانسان آخر !

ولم ترتكب روبى سوى أخطاء قلائل !٠٠ كان وجهها - الذى اصبح خلوا من الزينة - يتسم بوقار هادىء عندما تكون مع زوجها ٠ وراحت تعمل فى جهد على ان تنال خلاصها من حياة لم تكن توائم طبيعتها ، بل كانت تجدها مقيتة بغيضة ٠٠ وكانت كثيرا ما تقول لنفسها انه لولا وجود حمزة وابراهيم فى المعسكر معها ، لما استطاعت - طيلة هذه المدة - احتمالا ، فان وجودهما كان يعنى أنها لم تكن نسيا منسيا ، وانها - فى الوقت الذى كانت تتذرع فيه بالصبر - كان ثمة شخص آخر يتجمل بالصبر مثلها ، فى مكان ناء على النيل ، فى المناخ الذهبى لمصر العليا !٠٠ كان وجودهما يعنى ذلك قطعا ٠٠ بل لابد انه كان يعنيه بالفعل !٠٠ ولكنها كانت فريسة الغيرة التى لم تتناقص بفعل الزمن والبعاد ، وانما راحت تزداد يوما بعد يوم ، بل راحت توقظ فى خيالها قوة حيوية لم تكن تعتقد انها تمتلكها ٠ فلقد كانت تعرف الرجال - كجنس - معرفة تامة ، وتعرف أهواءهم المتقلبة ، ونسيانهم السريع ، واستعدادهم للرضى والقناعة بالقليل ، وهى صفة جد مختلفة عن تعلق النساء العظيم بالكمال فى ارضاء نوازع الجسد ! ٠ كما كانت تعرف قابليتهم القلقة ، وتجردهم من ضبط النفس ٠ وكانت اذا أضافت الى هذا الفيض من المعرفة ، ما اكتسبته من معرفة شخصية ببارودى - كرجل من الشرق ، فى مقتبل الشباب وعنفوان القوة والتحرر من القيود - تعرضت لرؤى كانت تنزل بها أقسى ألوان العذاب !٠٠ وكم من مرة كان عقلها ينطلق فيها معربدا ، ويصور بارودى معتليا عرش الملاذ الحسية التى كان يحبها ، فكانت - اذ ذاك - تحس بأكثر من الألم المعنوى الذى يملأ قلبها ٠٠ كانت تحس بألم جسمانى فعلا ، فكأنها مريضة ، وكان جسمها ينضح بالم الغيرة كما يحس أى انسان آخر بأوجاع أى مرض جسمانى !٠٠ لذلك كانت تحس برغبة جارفة فى ان تقدم على عمل مادى جنونى !

وهنا كانت تذكر جمالها ، وان عليها ان تحتفظ به لأطول مدة ممكنة ، مهما يكلفها ذلك ، فكانت فى قرارة نفسها تلعن طبيعتها الجامحة المتمردة .. على ان جو (الفيوم) كان بالغ الرفق بها ، كما ان الحياة فى العراء - وفى الهواء الطلق النقى الخالى من الشوائب ، الذى كان يهب خلال النخيل من صحارى ليبيا العذراء - منحتها من الصحة ما لم تعرفه من قبل ، على الرغم من العذاب العقلى الذى كانت تعانيه .. وأصبح الألم الجسمانى الناشىء عن غيرتها ، يلم بها فى نوبات متباعدة ، لا تلبث ان تنجلى عنها سراعا !.. أجل، لقد أعادت مصر لها شبابها ، أو انها - على الاقل - أخذت تطيل وتضاعف من بريق أيامها الذهبية ودفئها . ومع ذلك البريق والدفء ، كانت الرغبة فى الاستمتاع بحياتها - وفى استخدام قواها الحاضرة بطريقة تجلب لها السعادة - تزداد قوة وحرارة .. كانت تصبو الى الرجل الذى يلائمها ، والى عيشة الرغد والرفاهية التى يستطيع ان يهيئها لها .. فقد استيقظ - مع عاطفتها الجسدية الخالصة نحو بارودى - ذلك الجشع القبيح الذى كان جزءا أساسيا من طبيعتها .. جشع الانسان المادى البحت الذى لا يحفل البتة بتلك البساطة التى تبهر عينى أى انسان !.. فقد كانت امرأة تصبو الى أن تعرف أن شخصا ما يدمر نفسه من أجلها .. كانت تحس بلذة جسدية فى انفاق النقود ، وغالبا ما كان عقلها يردد كلمات حسن وهو ينظر عبر النيل الى شراع « اللولية » المثلث ، ويغمغم قائلا : « محمود بارودى واسع الثراء ! محمود بارودى واسع الثراء ! » ، فيتملكها شوق جارف الى الذهاب، لا الى محمود بارودى فحسب ، وانما الى الذهب الذى يقتنيه أيضا !.. وذكرت ما هجس به خاطرها - وهى تجلس على ضفة النيل فى حديقة فيللا أندرود - من ان الذهب المتألق على صفحة الماء انما كان يتدفق نحوها من بارودى ، ليهدىء روعها فى وحدتها !

وأخيرا ، جاءت الأزمة .. فبعد ان أقام الزوجان فترة قصيرة فى (سنورس) ، انتقل المعسكر من القرية الى أطراف الواحة ، كى يكون نيجل قريبا من أراضيه . وهناك كان الخصب الغزير ، ووفرة خضرة الزرع اليانع، يجرجران أذيالهما وسط القفار الصحراوية . وكانت مسز ارماين تتطلع أثناء الليل - من خلال فرجة مدخل الخيمة - نحو الرمال الشاحبة الغامضة الموحشة المترامية الى أبعاد غير محدودة ، وهى تتغلغل وسط الظلمة اللانهائية ! .. كان المنظر يسحرها ويفتنها - فى البداية - فيحملها على ان تعير أذنا واعية لنداء الشرق .. ولكنها سرعان ما ضاقت برؤية تلك البطاح الساكنة غير المأهولة ، التى كانت تذكرها بأنواع أخرى من العزلة ، لا تستطيع ان تجد لها اسما .. وهى العزلة التى تعانيها كثيرات من النساء عندما يأفل

نجمهن ويخبو ضياء مجدهن !٠٠ ولم تتحدث الى نيجل فى هـذا الشأن ، ولكنها زعمت أن الرياح الليلية التى تهب من الصحراء تبعث بقشعريرة البرد فى جسمها ، حتى وهى بين جدران الخيمة السميكة ٠ وعلى ذلك ، فقد أديرت الخيمة بحيث أصبح مدخلها مواجها للواحة ، فحققت روبى بهذا ما جهدت فى بلوغه من تجنب الصحراء !

وعلى الرغم من شعورها الذى أوشك ان يبلغ مبلغ الفزع - من هذه الفيافى الجرداء الشاسعة - فانها تبينت ان تأثرها بسحر الصحراء أخـذ يزداد قوة وعنفا ٠٠ ذلك السحر الذى خيل اليها انه يدعوها ويجتذبهـا الى الخطر أو الحزن ، لا الى المتعة أو البهجة الدائمة !٠٠ وكانت كثيرا ما تحس برغبة قلقة فى توثيق صلتها بالشىء الذى تخافه ، والذى يوقظ فيها توجسا رهيبا من المستقبل ٠٠ عندما تنقضى البقية الباقية من ربيع أيامها الى غير رجعة !٠٠ فلما أخبرها نيجل ذات يوم بأنه سيتوقف عن العمل يومين أو ثلاثة ، وانهم سينقلون المعسكر الى البرارى الممتدة على الطرف الشمالى الشرقى من بحيرة قارون المقدسـة - حيث يجد ابراهيم وحمزة ، حسب قوله ، فرصـة من الطراز الاول لصـيد البط - وانه سيتاح لروبى ان تتعرف الى الصـحراء الليبية عن كثب ٠٠ عنـدما أخبرها نيجل بذلك ، بادرت الى الموافقـة فيما يشبه اللهفة ، اذ كانت ترحب بأية حركة ، أو أى تغيير ٠٠ وكانت تود أن توثق صلتها بالشىء الذى تخافه ٠٠ بالصحراء الموحشـة !٠٠ وهكذا انيخت جمال الركوب ذات صباح ، وتهاوت الخيام ثم ربطت ونقلت الى الموقع الجديد، ثم شرع الزوجان فى رحلتهما موغلين فى القفار ٠٠ على انهما قاما - أولا - بجولة فى الواحة ليتيحا لرجالهما من الاعراب الوقت الكافى لاقامة المعسكر على الرمال ، وليتيحا لابراهيم سـاعة أو اثنتين يعد فيهمـا كل شىء قبل وصولهما ٠ وكان الوقت عصرا عنـدما مضيا فى الطريق الضيق المؤدى الى البحيرة ، تاركين أدغال النخيل خلفهما ، ومساكن الفلاحين المنخفضة ٠٠وراحا يتقدمان فى بطء نحو تلال الرمال التى كانت تظهر لهما على بعد ، حيث كانت تتراكم خيام الغجر المرقعة الحائلة اللون ، وحيث كان صائدو السمك -أشباه العراة - هم السكان الوحيدون فى هـذه الفيافى الغريبة التى كانت تلتقى الرمال فيها بالمياه الملحة بين أحراش من شجيرات الاثل !

وكان اليوم غائما راكد الهواء ، والسماء تبدو مثقلة بالسحب أكثر ممـا هى عادة فى مصر ، والجو مقبضا كئيبا ٠٠ بينمـا راحت تحلق الى يمينهما ويسارهما أسراب الحمام البرى ، وهى تدور وتحوم فوق الزرع الذى أخـذ يقل شيئا فشيئا - كلما أوغلا فى الصحراء - وفوق جداول الماء الصغيرةالتى كانت تفيض رويدا عند بداية مملكة الجدب ٠٠ وكان سائقا الجملين يرددان

الاغانى البدوية ـ بصوتين خافتين ولكنهما نافذان ـ وهما يعدوان الى جوار الجملين بأقدام حافية • أما حمزة ـ الذى صحب القافلة الصغيرة مع حماره لتمتطيه مسز ارماين اذا تعبت من ركوب الجمل ـ فقد كان يسير دائما فى المؤخرة ، فى هدوء وخفة ، دون نصب أو كلال ، حاملا عصاه المعهودة •• وعلى هذا النحو مضوا فى طريقهم نحو البحيرة ، يصحبهم دائما ذلك الغناء الحزين الذى كانت أنغامه تشبه الطنين تارة وتشبه التغريد تارة أخرى

وكانت بنادق نيجل معلقة على جانبى دابته •• كان يتطلع فى شوق بالغ الى الاجازة التى قررها لراحته ، اذ كان قد أضنى نفسه بالعمل الشاق مع فلاحيه : فكثيرا ما كان يخوض حتى ركبتيه فى الوحل ، ويشق الارض بمحراث الرمل ، ويدير المضخات الصغيرة البدائية ، ويحفر الارض ، ويغرس الزرع ، ويقود المحراث اليدوى الذى يجره جمل وضع فى مكان الحمار !•• كان فى خير حالاته ، صلبا كالفولاذ ، أحرقت الشمس جلده ، مرحا ذلك المرح الذى يكاد لا يحفل بشىء ، والذى ينشأ عن صحة موفورة يزيدها العمل كمالا !•• وكانت القفار الممتدة أمامهما تبدو فى ناظريه كأنها الجنة الموعودة، لانه كان يهم بدخولها مع روبى ، ولانها كانت تزخر بآلاف من البط البرى والثعالب التى تتسلل من جحورها أثناء الليل بين شجيرات الاثل التى توقف نموها •• وقالت روبى : « كأنما نحن ذاهبان الى نهاية العالم ! »

وكانت تتارجح فى رفق الى الامام والى الخلف ، تبعا لحركة الجمل الذى تركبه ، والذى كان قد تحول الى اليمين ـ اذ ذاك ـ بعد ان ظل وقتا طويلا يتبع طريقا مستقيما يشق الحقول ، دون ان ينحرف يمنة ولا يسرة ••وكانت الصحراء الرملية قد بدأت تظهر للعيان ، بينما ظل يزحف ـ الى يسار الركب، موازيا له ـ جدول كسول فاتر الهمة ، بين ضفتين غير مستويتين من الرمال• وكان الطريق نفسه يعلو ويهبط بهم ، وتلوح فيه هنا وهناك تلال صغيرة أشبه بسنام البعير ، وأخاديد عميقة ، وأحيانا جحور واوكار • وبدأت الحقول تزداد تباعدا ، ولم تعد تبدو للعيان بيوت أو أكواخ ، وانما تناثرت بعيدا فى ذلك الفضاء الأبيض المجدب ـ الذى كان يلوح أشبه ببقعة خالية من من اللون فى لوحة فنية ـ خيام منخفضة سمراء وسوداء ، كانت تبدو كما لو كانت جاثمة فوق الأرض المقفرة • وعادت تقول : « هل يقيم هنا أحد ، فى الجانب المقابل ؟•• هل هذه الأشياء خيام حقا ؟ » ، فأجاب : «أجل يا روبى!» •• فقالت : « انه ليبدو بعيدا عن التصديق ان يختار أحد من البشر الاقامة هنا طواعية ! » •• فسألها : « ألم تحسى قط بنداء البرية ؟ » •• واذ ذاك نظرت اليه ، وبادرت قائلة : « آه ، نعم ! ولكن الأمر يختلف بالنسبة الينا ، فنحن نأتى الى هنا لنمارس تجربة جديدة ، ولنحصل على شىء من التغيير ، كما ان فى

وسعنا ان نرحل عنها عندما نشاء ٠٠ ولكن ، تصور ان انسانا يختار العيش هنا دائما أبدا ! » ٠٠ فقال : « هل تحنين الى المدينة ؟ » ، فهتفت : « بل اننى اوثر العيش هنا على أية مدينة ! » ٠٠ فأخلد الى الصمت لحظة وقد فقد وجهه طابعه المرح ، وغدا قلقا ملهوفا ، ثم قال : « روبى ! هل تكرهين هذا كله ؟ »

ـ اكرهه ؟ كلا ، فهو تجديد بالنسبة لى ! انه شيء غريب يروقنى ويثير الانفعال فى نفسى !

ـ هل أنت واثقة ؟

وتذكر فجأة حجرة استقبالها بفندق سافوى ! ما أعظم الفرق بينها وبين الحياة التى حملها اليها ٠٠ الحياة التى كان يحبها ، والتى قد تصلح تماما لرجل ٠٠ لقد كان يحب مثل هذه الحياة ، ولكن لعله كان ـ ولا يزال ـ أنانيا يؤثر نفسه وأهواءه !٠٠ وجهد فى ان يستشف ما تنم عنه أساريرها ، فاذا به وقد امتلأ بغتة بالشكوك والمخاوف٠ وأردف قائلا : « اننى أحب هذه الحياة الخشنة ، طبعا ٠٠ ولكنك لا يجب ان تخضعى لما أحبه اذا لم يوافقك ، فنحن الرجال مفرطون فى الأثرة ! » ٠٠ ورأت فى ذلك فرصتها السانحة ، فقالت : « أو لم تعلم بعد ان النساء يجدن سعادتهن القصوى فى ادخال السرور على قلوب الرجال الذين يحببنهم ؟ » ٠٠ فأجاب : « ولكنى أريد ان أدخل السرور على قلبك » ٠٠ فقالت : « ستفعل ذلك عما قريب » ، فتساءل : « وكيف ؟ » ، وأجابت : « بأن تأخذنى الى النيل فى الجنوب ! »

وكانت قد غرست فى فكره الاعتقاد بأنها تعيش من أجله فى غير أثرة أو أنانية ، فعزم على ان يوفيها جزاءها بنفس العملة : بالايثار ، وانكار الذات ٠٠ ولا بأس بما يصيب العمل ، فانما ينبغى له ـ فى هذه السنة الأولى ـ ان يفكر فيها أولا ، وان يكرس نفسه لها ٠٠ أو ليس يستصلح « الصحراء » أيضا عندما يجعل حياتها تورق وتزدهر ؟!٠٠ وعندئذ قال : « سآخذك فى رحلة الى جنوب النيل ، وأرجو ان تكونى صريحة معى دائما يا روبى ، فاذا ٠٠ اذا كانت الأشياء التى توافقنى لا تجد هوى من نفسك ، فلا بد من أن تقولى ذلك صراحة ٠٠ وفى رأيى ان الشىء الوحيد الذى يمكن ان يربط اثنين من الناس معا بأطواق من الفولاذ ، انما هو الصدق المطلق ، فهو وان كان يجرح أحيانا ، الا انه يبصر الانسان بمواطىء قدميه حقا ! » ٠٠ فهتفت : « أجل ، ولكنى صادقة كل الصدق عندما أقول اننى أحب أن أعيش فى حياتك ! » ٠٠ لقد أصبح فى ميسورها ان تجرؤ على هذا القول ٠٠ وعلى الرغم من تلك الوحشة المتزايدة حولهما ، فان قلبها راح يتوثب لقرب خلاصها ، اذ كانت تعلم كيف يفكر ، عقله ، ومن ثم فقد خيل اليها انها تسمع همسات مياه النيل ، حول مقدمة الدهبية !

★ ★ ★

• وفى تلك الليلة بات معسكرهما فى وحشة عجيبة !.. فان بحيرة قارون التى تبدو أشبه ببحر داخلى – والتى كان ماؤها ملحا أجاجا كماء البحر – كانت تعانق عند طرفها الشمالى بحرا آخر من الرمال ، وكانت سفوح تلال صحراء ليبيا الشاسعة تمتد الى مياهها الساكنة الخالية من الأمواج .. وهكذا كانت وحشة الصحراء تقترن بوحشة هذا البحر الأبكم ، كما يقترن صمت الفيافى العميق بصمت المياه وسكونها العميق !.. وما أحست مسز ارماين قط من قبل بمثل هذه الوحشة ، ولا تخيلت قط صمتا كذلك الذى كان يحف بمعسكرهم ، والذى خيم على الصحراء وخيم على المياه السمراء المخضرة فى هذه البحيرة الواسعة التى كانت تشبه بحرا كبيرا .. وخيل اليها ان الصمت الموحش كان يتلقف صوتها – اذا تكلمت – فريسة سائغة له ! حتى أفكارها كانت تبدو وكأنما أنشب الصمت فيها براثنه ، وحملها بعيدا عنها ، وكأنها كائن حى قدر عليه ان يذبح !.. كانت تحس بنفسها تافهة ، عاجزة ، متبلدة العقل ، وسط أحضان الطبيعة الجرداء ، التى كانت فى شحوب البرص !.. وكانت تشعر بالقشعريرة تسرى فى بدنها ، وتحس كأنها قد خلت من الجنس ، فلا هى ذكر ولا هى أنثى ، وكأن قواها وعواطفها ورغباتها كلها قد غدت فى قبضة الصمت ، وأوشكت ان تنتزع منها الى الأبد !! وما حدث لها قط من قبل ان كان لشىء غير انسانى أو غير متصل بجهود البشرية ورغباتها مثل هذا التأثير المروع عليها !.. على انها أخفت هذا التأثير عن نيجل وتكتمته !

وكان ركوب الجمل طويلا قد أتعبها قليلا ، بالرغم من القوة البدنية العظيمة التى اكتسبتها فى مصر ، فانهمكت فى تلك الأعمال المألوفة التى تمارسها المرأة على أثر وصولها من السفر ، اذ أبدلت ثوبها ، واغتسلت فى حوض مرن من المطاط ، ودلكت جبينها بماء الكولونيا ، ورتبت شعرها أمام مرآة معلقة على جدار الخيمة المائل . ولكنها فى خلال الوقت الذى استغرقته هذه الأعمال ، كانت تصغى الى الصمت الرهيب ، وتحس به كعبء يجثم على صدرها ، وتبتعد – أو تحاول ان تبتعد – عن ذراعيه الممدودتين نحوها . وكانت تتسرب – من حيث لا تدرى – أصوات تلوح فى أذنيها ، كما تلوح الأشباح والهياكل العظمية والخيالات أمام العينين !.. أهذا ابراهيم حقا ؟ وهل هذا هو نيجل يتكلم ويضحك ؟.. وهذا التيار الطويل المتدفق من الكلمات ، أتراه ينبعث من حلق حمزة ؟.. أم ان هؤلاء الذين فى الخارج ليسوا سوى أشباح ، لها صوت الأشباح ، وتحاول أن تتحدث الى أشباح ؟

وما لبث الشاى أن أعد ، فغادرت الخيمة الى العراء .. وكانوا على مسافة كبيرة

من البحيرة ، يشرفون عليها من مرتفع بسيط ، كان جزءا من منحدر شاسع لسفح تل عظيم من الرمل ، يرتفع وراءهم تدريجا حتى ليكاد يبدو من بعد كأنه يلمس الأفق الداكن المنخفض !.. وفى كل مكان كان البياض - والبياض المشوب بالصفرة - يذوب فى السمرة الداكنة ، أو السمرة المشربة بالاخضرار .. وكان الزرع الوحيد البادى للعيان ، هو تلك الدغلة العظيمة من شجيرات الاثل التى كانت تمتد من سهل الرمال المنبسط الى يسارهم حتى ضفاف البحيرة .. بل انها كانت تزحف داخل المياه ، فتنشىء مأوى لآلاف فوق آلاف من البط البرى الذى يعمر تلك الفيافى المائية ، والذى راحت أسرابه تسبح فى العراء ، دون خوف أو وجل ، وتؤلف سحبا من المخمل الأسود فوق سطح البحيرة الساكن الذى كان يبدو - بسبب بعض العوامل الجوية - وكأنه يرتفع مائلا ككثبان الرمال ، حتى يلتقى بالسماء المنحنية .. وتراءى على بعد شاسع قاربان أو ثلاثة من القوارب البدائية التى يستخدمها الأهالى - الذين يذهبون فى بداوتهم الى درجة تقرب من الوحشية - فى صيد السمك من البحيرة .. وكانت القوارب لا تكاد ترى الا كقطع سوداء عالقة بين ماء البحيرة والأبخرة التى حجبت السماء .. ولكنها كانت تتحرك على نحو غير محسوس لتؤدى مهمتها العجيبة الغامضة . وقال نيجل اذ رأى «روبى» تخرج من الخيمة : « تعالى انظرى الى أسراب البط يا روبى ! ما أجمله من مكان للرياضة ! »

وللمرة الأولى تبادلا دوريهما العاديين المتناقضين : فقد غدا هو عمليا ، بينما اصبحت هى خيالية أو منساقة لتأثير قوى من خيالها . وكان ينظم بنادقه ويعنى بها ، وهو يدبر الأمر مع عملاق أسمر من سكان الخيام ، ليرشده الى خير أماكن الصيد لقاء مبلغ من المال . ثم عاد يقول لها : « ولكن ما من سبيل للوصول الى مسافة تجعلها فى نطاق طلقات البندقية ، وأحسب اننى سأضطر الى ان أحذو حذو الأهالى » ، فتساءلت فى اهتمام متكلف : « وما هو ذاك ؟ » . فأجاب : « ان أخلع ثيابى وأخوض فى الماء حتى رقبتى حاملا البندقية فوق رأسى . ثم ألبث ساكنا بلا حراك حتى يدنو بعضها ويصبح فى مرمى البندقية » ، ثم مضى يقهقه فى جذل سابق لأوانه . وأضاف قائلا : « وقد قلت لابراهيم ان عليه ان يعد لى نارا كبيرة مستعرة عند عودتى ! » . فسألته : « وهل أنت ذاهب اليوم ؟ » ، فأجاب : « أجل .. أظننى سأقضى ساعة . وأنت ؟ ألا تشعرين برغبة فى ركوب الحمار الى حافة الماء ، والتريض معى فى البحيرة ؟ »

وترددت لحظة .. فقد شعرت بأنها تكاد تكون عاجزة عن اتخاذ قرار فى هذه القفار الواسعة وهذا الصمت المخيم . وما لبثت ان قالت : « لا .. أحسبنى لقيت اليوم ما فيه الكفاية ، ولكن ينبغى ان تحضر لى بطة للعشاء ! » ، فهتف : « أقسم أن أفعل ! » . وأمسك بكلتا يديها وهو يهم بالذهاب ، فقد كان مفعما

بذلك الجذل المستبد الذى يحس به الرياضي وهو منطلق لممارسة هوايته وتذوق المتعة التي يستشعرها فيها٠٠ثم قال : « وما الذى ستفعلينه الى ان أعود ؟ »٠ فأجابت : « سأخلد الى الراحة ٠٠ وربما قرأت قليلا ، أو تحدثت مع ابراهيم ، فانه يسليني دائما ! » ٠٠ فقال : « حسنا ٠٠ سأركب الحمار ، وآخذ حمزة معى ! » ٠ وفيما كان يمتطى ظهر دابته ، استدار نحوها قائلا :

– روبى ٠٠ اننى أنال نصيبى الآن ، ولسوف تحصلين على نصيبك بالمثل ٠٠ ستنالين أحسن « دهبية » يمكن الحصول عليها فى النيل ٠٠ « اللولية » ، اذا قبل بارودى أن يؤجرها لنا !

– أوه ! لسوف تكلفنا « اللولية » فوق ما نطيق ، لو قدر لنا استئجارها !

– مهما يكن من أمر، فاننا سنحصل على «دهبية» فاخرة ، وسترين كل معبد على النيل ، وستذهبين حتى (حلفا) ، اذا شئت ! والآن ، عليك ان تصلى بكل حرارة ليسوق الله لنا بطا كثيرا !

ثم ركب حماره ، ومضى هابطا السفح الرملى نحو البحيرة ، وما لبث أن أصبح مع حمزة والدليل الوطنى ، مجرد بقع متحركة على بعد شاسع ٠ وراحت مسز ارماين ترقب هذا الركب من مقعد طويل أمرت ابراهيم باحضاره لها فى الرمال – على بعد بضع مئات من الياردات من المعسكر – وهى تقول له : « اتركنى هنا برهة يا ابراهيم ! » ، فأطاعها ومضى مبتعدا عنها – فى سكون – ثم جلس متربعا ليحرسها ٠٠ ولم تكن مسز ارماين ، بادىء ذى بدء ، تفكر فى شيء على الاطلاق ، اذ أخذت تحملق فى الكثبان الرملية ، والسهول الرملية ، والشواطىء الرملية ٠٠ وفى أدغال الاثل ، وفى المياه السمراء المرقطة بأسراب البط ، وفى الأجسام الصغيرة السوداء المتحركة ، التى كانت تزحف كالحشرات نحو البط والبحيرة !٠٠ كانت تحس بنفسها أشبه ب ٠٠ بماذا ؟ أشبه بلا شيء ! أشبه بالعدم !٠٠ ولقد ظلت تحس كذلك فترة خالتها دهرا طويلا ، ثم بدأت تعود الى نفسها تدريجيا ، وببطء ٠٠ بدأت تتحرر من سحر هذا المكان ، وتناضل فى سبيل الفكاك من قبضة الصمت المطبقة عليها ٠٠ وكانت تكتوى فى هواء الصحراء القارس المثلج !

لماذا تركت نفسها تساق الى هذا المكان ، ولو كانت اقامتها فيه لثلاثة أيام أو اربعة ؟٠٠ وهل كانت تخالجها أية رغبة – ولو مجرد رغبة عابرة – فى ان ترى من الفيافى الموحشة أكثر من المكان الذى قدموا منه ؟٠٠ وأين كان بارودى فى هذه اللحظة ؟٠٠ ما الذى يحس به ، أو يفعله ، أو يفكر فيه ؟٠٠ وراحت تقسر عقلها على ان يتشبث بالتفكير فيه ، فلم تزدد الا شعورا بأنها تعيش فى منفى !٠ ولقد كانت دائما – الى ما قبل لحظتها الراهنة – تؤمن ايمانا راسخا بأن بارودى قد دبر خطة معينة بشأنها ، وان اخلادها الى الهدوء والسكينة

ضرورى لتنفيذ هذه الخطة على افضل وجه ‥ كانت تشعر بأنها تتخبط فى شراك خطته ، وان عليها ان تنتظر ، اذ ان شيئا ما من تدبيره ـ شيئا ما لم تدر ما هو ـ لن يلبث ان يحدث عما قريب ، وأنهما سيعاودان اتصالهما من جديد ! ‥ أما الآن ، وهى ترزح تحت ثقل وحشة المكان التى كانت تدفعها الى شك صارخ وانقباض عاق ، وقد شرعت تتمالك نفسها بعد شرودها ، فانها مضت تتساءل عما اذا لم تكن قد ارتكبت خطأ فاحشا ؟‥ ان بارودى لم يتحدث اليها مطلقا عن المستقبل ، ولا أشار قط ـ ولو تلميحا ـ الى نواياه بشأنها !‥ ترى هل كان ذلك لأنه لم يكن ينتوى شيئا البتة ؟‥ أتراها كانت ضحية نزواتها ورغباتها فقط ؟‥ أيكون بارودى قد سئمها ، فتخلص منها ؟‥ ولكن شيئا ما فى أعماقها ـ شيئا كان يخالطه نوع من الغرور ـ راح يحدثها بأن الأمر لم يكن كذلك ٠ ولكنها لم تقو على ان تصدقه فى هذا اليوم بالذات ، وسط هذه العتمة الرهيبة ، وتلك الكآبة المتسلطة ، وذلك الجو القارس الباهت الضياء ! ‥ وهنا استدارت فى مقعدها وصاحت بصوت عال : « ابراهيم ‥ ابراهيم ! » ، فنهض من بين الرمال ، وتقدم نحوها متلكئا حتى وقف صامتا الى جوارها ‥ واذ ذاك قالت : « ابراهيم ! » ، ثم نظرت اليه ، واخلدت الى الصمت مترددة. وما لبثت أن استعانت بالجزء الثابت العزم من نفسها ـ تلك النفس التى اكتسبت الصلابة والخشونة من الحياة التى كانت تحياها ـ وقالت : « ابراهيم ! هل تعرف أين بارودى ، وما الذى كان يفعله كل هذا الوقت ؟ »

ـ أما الذى كان يفعله ، فلا علم لى به يا سيدتى ‥ فان باردوى يفعل أشياء كثيرة !

ـ أريد أن أعرف ما الذى كان يفعله !‥ لا بد لى من أن أعرف ، ولسوف أعرف !

كان سحر المكان ، وسحر الصمت العظيم القارس ، قد تحطم تماما فجاة فزال أثره عن مسز ارماين ‥ واستوت على قدميها بين الرمال ، وهى توشك ان تفقد سيطرتها على نفسها‥ اذ كانت كلما تأملت المنظر الموحش الممتد أمامها ، وجدته يزداد كآبة لاقتراب المساء ‥ وفكرت فى السعادة التى كان نيجل ينعم بها ‥ بل لقد رأته هناك ، بقعة سوداء فى ذلك الفراغ الشامل ، يزحف قدما نحو ملهاته وسروره ٠ واذ ذاك تملكتها سورة من الغضب المضطرم بالحقد والحنق ، وبدا لها ان من الفظاعة البشعة ان تكون امرأة مثلها فى مثل هذا المكان ، وفى مثل هذه الحالة ، تنتظر بين الرجال وحيدة ، مهجورة ، دون ما شىء تفعله ، أو انسان تتحدث اليه ، ودون ما أمل فى تسرية او سرور ‥ بل دون ما أمل فى شىء على الاطلاق !‥ وانبعث فى أعماقها فجأة صوت مدو ، وبدا كأنما كان يصيح ، ويصرخ : « لن أحتمل هذا ! لن احتمله البتة ! » ‥ وتحولت تقول

لابراهيم فى انفعال : « لقد سئمت الفيوم .. سئمتها الى أقصى حد ، وأريد ان أعود الى النيل . هل تعرف أين يوجد بارودى الآن ؟ هل هو فوق صفحة النيل ؟.. اننى أكره هذا المكان ، واشمئز منه ! »

وقال ابراهيم فى رقة بالغة : « سيدتى ، ان صيد الثعالب ممتع هنا ! » .. فصاحت مختنقة : « صيد الثعالب ! وصيد البط !.. اذن فأنت لا تفكر الا فى مسرات سيدك وملاهيه !.. أتظن أننى سوف أظل جالسة فى مكانى بين الرمال أياما عديدة ، لا أفعل شيئا ، ولا أرى شيئا ، بينما .. بينما .. » ، وأمسكت عن الحديث بغتة ، اذ لم يعد فى وسعها ان تمضى فيه .. كانت ضراوة غضبها تكاد تكتم أنفاسها وتخنقها ، ولو ان نيجل كان بجانبها فى تلك اللحظة لوجدت فى نفسها من القدرة ما تظهر به - حتى له هو - شيئا من الحقيقة التى كانت تكتمها !

وانبعث صوت ابراهيم الرقيق من جديد ، وهو يزج بنفسه فى غمرة انفعالها ، قائلا : « سيدتى .. ان صيد الثعالب يحتاج الى ان تخرجى اليه ليلا .. فلا بد لك من الذهاب الى هناك عندما يخيم الظلام ، والتربص فى مكانك مدة طويلة حتى يحضر الثعلب .. وعليك ان تربطى عنزة ، فيشم الثعلب رائحة العنزة ، ولا يلبث ان يأتى ! » .. فراحت تحملق فيه مشدوهة لا تكاد تفقه شيئا .. اذ ما شأنها هى بكل هذا الهراء ؟.. ثم التقت عينا ابراهيم بعينيها ، وهو يستطرد فى هدوء : « ان سيدى أرمينيجل يهتم بذلك كل الاهتمام ويسر منه ! » .. ولم تنبس ببنت شفة ، بل ظلت تتفرس فى ابراهيم . ومضى يقول : « لعل سيدى يخرج للصيد الليلة .. فاذا خرج ، جاز لك ان تذهبى فى نزهة قصيرة مع ابراهيم ! » .. وأشار الى الفضاء المترامى خلفها ، حيث ترتفع تلال الرمال حتى تكاد تلامس السماء المقوسة ، وأردف قائلا : « ستتمشين هناك قليلا للتريض ! »

وظلت ساكتة لا تقول شيئا ، ولا تسأل عن شىء .. فما كانت بها حاجة الى السؤال !.. وبدت لها القفار الموحشة المحيطة بها وكأنها أينعت وازدهرت فجأة كما تتفتح الوردة عن كمها .. وخيل اليها ان هذا المكان لم يعد أقصى أطراف الدنيا ، وانما غدا قلبها الدافىء الحنون !.. وعندما تكلمت أخيرا ، راحت تقول فى هدوء : « لسوف يخرج سيدك لصيد الثعالب الليلة ! » .. فأومأ ابراهيم برأسه وقال وقد شرد فكره : « أرجو ! » .. وفى تلك اللحظة بلغ مسامعهما صوت طلق نارى انبعث من بين أدغال الاثل البعيدة ، بجوار المياه السمراء المخضرة .. بينما كان ابراهيم يستأنف حديثه قائلا : « أرجو أن يذهب مولاى أرمينيجل وراء الثعلب الليلة ! »

الفصل الرابع والعشرون



◆ كان العشاء فى المخيم مأدبة بهيجة ، فى تلك الليلة • فقد أحضر نيجل معه بطتين ، وأشعل ابراهيم نارا حامية من أعواد الحطب الجافة لتدفئة الرياضى الملهوف • وظهرت روبى فى حالة معنوية مدهشة ، وبلغت ذروة الكمال فى اداء دور سيدة البيت الغيور •• كانت تغدو وتروح بين الرمال ، وتشرف على كل شىء • بل انها نفذت الى خيمة الطاهى مع ابراهيم ، لتلقى على محمد بعض الارشادات عن اعداد البط • وراحت تقول لنيجل : « هذه أجازتك ، وأنا أريد أن تكون اجازة سعيدة حقا ! عليك ان تستمتع بأكبر قسط منها ، وأن تخرج للصيد فى كل وقت •• ولقد سمعت ان عددا كبيرا من الثعالب يأوى الى أدغال الاثل، فهل تخرج الليلة لتجرب حظك معها ؟ » •• فبسط ساقيه أمامه مسترخيا، وهو يرسل زفرة طويلة نمت عن الرضى والارتياح ، وأجاب :

ـ لست أدرى يا روبى •• اننى أحب ان أفعل ، ولكن المكان هنا بهيج مريح الى حد بعيد !

ونظر الى النيران المتقدة ، ثم عاد يتطلع اليها ثانية وهو يستطرد قائلا : « لست واثقا من اننى سأخرج ثانية ! » •• فقالت : « أتراك متعبا ؟ » • وأجاب : « كلا ، ليس الأمر كذلك •• الواقع أننى أحس بسعادة عظيمة معك فى المخيم •• كما أحب أن أفكر فى هذه العزلة الموحشة التى تحيط بنا ، اذ لا يوجد من البشر حولنا سوى نفر من الغجر هناك ، وقليل من صائدى السمك المتوحشين أنصاف العراة • لقد أحضرنا واحتنا الخاصة معنا الى قلب صحراء ليبيا ، وأحسب أننى سوف أكون رجلا حكيما الليلة فألزم الواحة ! » •• فابتسمت له قائلة : « افعل اذن ! » •• وتخلل ابتسامتها تثاؤب طويل ، ثم

استطردت تقول : « أما أنا فسوف أذهب الى الفراش توا ! » ٠٠ وتظاهرت بأنها تحاول ان تكتم التثاؤب من جديد ، فسألها : « أتعنين أنك سوف تذهبين الى الفراش مبكرة ؟ » ٠٠ فهتفت : « بل فى الحال ٠٠ أيضايقك ذلك ؟ اننى جد متعبة بعد ركوب الجمال هذه المدة الطويلة ، وسوف أنام نوما عميقا ! »

ووضعت يدها على كتفه ، وقد تبدى النعاس على كل أساريرها ، وقالت : « أيها الشقى العجوز ! ما الذى تعنيه بهذه اليقظة التامة التى تبدو فيها ؟ » ٠٠ فألقى يده فوق يدها ، وضحك قائلا : « اننى أحس فى هذه البلاد العظيمة كما لو كنت مصنوعا من حديد ، فلست أشعر برغبة فى النوم قط ! » ٠٠ فكتمت التثاؤب من جديد ، وقالت : « اذن فسوف ٠٠٠ » ثم وضعت يدها على فمها ، وأردفت : « سوف أمكث قليلا لأونسك ! » ٠ فهتف : « هذا ما لا ينبغى ان تفعليه حقا ، بل يجب ان تأوى الى الفراش حالا ٠٠ وقد أخرج لأتفقد الثعالب ، بعد ان تستقرى فيه !٠٠ وما دمت تريدين النوم ، فلا بد لى من ان ٠٠ » ، وجذب وجهها اليه ، ثم قبلها قبلة طويلة وقال : « ٠٠٠من ان اسلمك الى الفراش أولا ، حتى اذا ما رأيتك فى أمن وراحة ودفء ، بدأت المسير » ٠٠ فردت قبلته بأحسن منها ، وقالت : « لا ، بل يجب ان أودعك حين تخرج ! » ٠٠ فتساءل : « ولكن لماذا ؟ »

ـ لأننى أحب ان أودعك وأنت تمضى ليلا الى الشىء الذى يجلب لك السرور، فهذا هو سرورى ومتعتى ٠٠ ولكن ليس دائما ، لأننى من الأنانية بحيث لا أرضى بذلك !٠٠ وعندما نذهب الى النيل ، فسوف يكون عليك ان ترعانى ، وان تفعل كل ما أريد ٠ أما فى هذه الأيام القلائل ، فسأكون كالمرأة الشرقية ، طوع اشارة سيدى ومولاى ! لذلك يجب ان أقف لك حتى أراك وأودعك ، وبعدئذ ٠٠ آه ! سأنام نوما عميقا !

فنهض قائما ، وهو يقول : « اننى قد أمكث فى الخارج حتى الصباح ٠٠ ترى هل أحضر حمدى عنزة ؟ » ٠٠ وذهب ليحضر بندقيته ٠ وان هى الا دقائق قليلة ، حتى كان يغادر المعسكر ، وهو يهتف بها فى جذل : « طيبى نوما يا روبى ! انك تبدين أشبه بساحرة وأنت تقفين أمام النار وألسنة اللهب تتلاعب حولك وتضيئك ! طابت ليلتك ٠٠ طابت ليلتك ! »

وخفت وقع قدميه فوق الرمال ، وتلاشى صوته وسط الظلام ، فظلت روبى مدة طويلة ، تقف مترقبة ـ بلا حراك ـ بجانب النيران ٠٠ وخالت ان روحها قد انطلقت تعدو فوق الرمال صوب تلك القمة التى تلامس السماء ، ولكن ارادتها القوية امسكت بجسدها ، فظل واقفا بجوار اللهب ، حتى ابتعدت البعثة الرياضية مسافة كافية ، واذ ذاك هتفت : « ابراهيم ! » ، فبادر متسائلا : « سيدتى ؟ » ٠ فقالت : « كيف نزمع الذهاب ؟ » ٠ وكانت تخاطبه فى همس

خافت الى جوار النار •• ولم تنتظر اجابته ، بل مضت تقول : « هل يهم ان يعرف الجمالون ؟ هل يجب أن يعرفوا ؟ وهل سأركب أم أمشى ؟ » •• فأجاب : « دعى كل شيء لابراهيم ، أما الآن فاذهبى الى خيمتك ، وسوف الحق بك عما قليل ! » •

وأسرعت الى داخل الخيمة لفورها فجلست على مقعد من المقاعد التى تطوى وتنشر ، وقد قامت أمامه منضدة مستديرة من الحديد ، فبسطت روبى ذراعيها على المنضدة ، وأسندت وجهها الى ظهر يديها •• وكانت وجنتاها متوهجتين ، ولكنها ما لبثت ان قفزت على قدميها ، وأسرعت الى حقيبتها ففتحت قفلها ، وأخرجت منها صندوق الزينة الذى أهداها بارودى اياه فى بساتين البرتقال •• ومضت تزين وجهها فى عجلة ، وهى تقف أمام المرآة المعلقة الى جدار الخيمة • ثم ارتدت معطفا قصيرا من الفراء ، اذ كان الهواء شديد البرودة فى الخلاء •• وراحت تتساءل عن مدى المسافة التى ستقطعها مع ابراهيم •• وماذا لو عاد نيجل على غير انتظار ، كما يفعل معظم الأزواج فى مثل هذه الظروف ؟

على انها لم تشأ ان تزعج نفسها بالتفكير فى ذلك ، اذ كانت تشعر بأنها قد بلغت من اليأس حدا يحملها على ألا تحفل بشيء •• كانت تحس بنفسها فى قبضة القدر ، فاذا كان القدر يعتزم أن يتمرد عليها ويقلب لها ظهر المجن ، فالويل لها •• ولنيجل !•• ولكنها كانت تنتوى - فى لحظتها هذه - ان تذهب الى ما وراء الكثيب الرملى ، وهذا هو كل ما تعرفه أو تفكر فيه !•• وأسرعت تثبت أزرار معطفها وترتدى قبعة وقفازين •• وما لبث ابراهيم ان دس خلال مدخل الخيمة رأسه المدثر بما يقيه البرد ، وقال : « سنبدأ الآن ! » •• فتساءلت : « هل سنمضى على الأقدام ؟ » وكان جوابه : « على الأقدام فى البداية ! »

واذ غادرت الخيمة ، وجدت أن نار الحطب قد أطفئت تماما • وقال ابراهيم وهو يشير الى الظلمة الممتدة أمامهم : « لن يرى أحد - من الذين هناك - شيئا » • فقالت : « والرجال ؟ هل يهم أمر الرجال ؟ » •• وكان سؤالها فى غير اكتراث ، فهى لم تكن تشعر بأنها تبالى بذلك حقا •• وأجاب ابراهيم : « كل الرجال نائمون ، عدا حمزة •• فانه يتولى الحراسة » •• وكانت خيام الرجال على مسافة منهما ، فنظرت مسز ارماين نحوها ، ولكنها لم تر اية حركة ، ولم تلمح أى شبح ، عدا تلك الأشباح الشاحبة الضخمة•• اشباح الابل الجاثمة • واستطرد ابراهيم قائلا : « لقد قلت أننى خارج لأتبع سيدى أرمينجل ! »

وبدأت الرحلة الى أعماق الصحراء • وفيما كانا يغادران المعسكر ، حانت من مسز ارماين نظرة ، فرأت حمزة خلف خيمتها يقوم بالحراسة ، وقد حمل بندقية فوق كتفه •• وكان الليل حالك الظلام خاليا من النجوم ، والهواء - رغم خفته

وبطئه فوق الصحراء - باردا ، وخازا ·· وأخذت قدما مسز ارماين تغوصان مع كل خطوة فى الرمال العميقة الرخوة ، وهى تمضى الى الحلكة المدلهمة المسيطرة على الصحراء الشاسعة التى لا حدود لها ولا قرار ·· وفيما كانت تحدق أمامها فى الحلكة الخاوية ، وتشعر بسعة هذه القفار غير المأهولة ، خطر لها ان ابراهيم انما كان يقودها الى مغامرة جنونية ، وانهما لن يمضيا الا نحو الرياح ،والصحراء المقفرة ، والظلمة التى يمكن للمرء أن يتحسسها ·· ولم يخاطبها بكلمة ،وكذلك هى لم تتحدث اليه ، حتى سمعت فجأة - وبالقرب منهما - زمجرة غاضبة لأحد الجمال ·· وعندئذ وقفت بغتة قائلة : « هل سمعت هذا ؟·· هناك شخص على مقربة منا » ·· فقال : « بل تعالى يا سيدتى ·· انه هجين طيب أعد من أجلنا » ·· فأفرخ روعها وقالت « آه ! » · ثم أسرعت تغذ السير من جديد ، فلم تمض ثانيتان أو ثلاث حتى ارتفع خوار الجمل من جديد ، فقال ابراهيم : « ان البدوى يحمله على الخوار ليدلنا على مكانه »

وصاح ببضع كلمات باللغة العربية ، فأجابه من الظلام صوت أجش قوى · وفى اللحظة التالية بلغا شبحين ملثمين ، أمسكا بزمامى جملين جثما على الرمل، خلف بعض كثبان الرمل التى كانت تحميهم من الرياح ·· وكان على أحد الجملين ما يشبه الهودج ، فاتخذت مسز ارماين مجلسها بداخله ، بينما جلس أحد البدو فى المقدمة ·· وانبعث صوت عصا ، فصاح الحيوان محتجا ، وهو يملأ فراغ الليل بخوار طويل صار فى النهاية أشبه بزئير الأسد ·· وما لبث ان نهض من مجثمه فجأة ، وكف عن الخوار ، ثم انطلق يركض بخطى واسعة · ولم يكن فى وسع مسز ارماين ان تعرف حساب الوقت الذى انقضى ، أو المسافة التى قطعتها ، خلال هذه الرحلة ·· فقد كانت مليئة بالانفعال ، مبهورة بالمغامرة التى لم يكن لها بها عهد من قبل ، مما بعث فيها شعورا عجيبا بالشباب !·· وتحولت



الصحراء المظلمة ـ التى كانت الرياح الباردة تجتاحها ـ ففدت فجأة فى نظرها بمثابة معقل للآمال القوية والرغبات التواقة الى التحقق !٠٠ وكان الأمل المرجو يملؤها ـ لحظة بعد أخرى ـ بدفء يفوق ما سرى اليها من نار المعسكر العظيمة التى أشعلت ترحيبا بنيجل ٠٠ حتى اذا لاح لناظريهـا أخيرا ـ على البعد ـ بريق ضوء خافت ، كأنه نجم ملتصق بالأرض ، خيل اليها ان الصحراء كلهـا تتألق بضياء ساطع يبهر الأنظار ببهائه !

وما من ريب فى ان الضوء كان بعيدا ، لأنه لم يكن يزداد وضوحا لبصرها او تألقـا ـ رغم ان الهجين كان يطوى الصحراء ـ وانما ظل يبدو كعين نائيـة ترمقها بنظرة قاسية ثابتة ، وكأنها تستشف دخيلة نفسها ٠ وسرح فكر مسز ارماين الى عينى بارودى الثاقبتين ، فلما نظرت الى الضوء الأصفر ثانية ،أحست كما لو ان الرجل كان يرقبها فى جمود من حصن بين الرمال ٠٠ حصن منيع لم تكن تستطيع الاقتراب منه ٠

ومن العسير تقدير المسافات والأبعاد فى الصحراء ٠٠ ففى الوقت الذى كانت فيـه مسز ارماين تظن أنها لن تستطيع بلوغ هذا الضوء قط ، اذا به يتسع بغتـة ، ويتفجر أشـكالا من ألسنة اللهب ـ هنا وهناك ـ تبعا لهبـات الرياح المتسللة من الصحراء ، ثم يغدو نارا متأججة ، تكشف عن أشباح غامضة لجمال، ورجال رابضين ، وخيام ، وكلاب للحراسة ، وجياد مقيدة السيقان ٠٠ واذا بها فى وسط مخيم أقيم فى مكان منعزل فى أحضان الرمال ، بعيدا عن اية واحة !

وبرك الهجين ، فاستوت المرأة على قدميها ، ووجدت ابراهيم يقف الى جوارها ٠٠ وظلت مبهورة البصر لحظة ، وهى تقف سـاكنة بلا حراك ، وتضغط قدميها على الرمال التى كانت تتوهج فى الضوء المنبعث من النيران ٠٠ ورأت عيونا ـ عيون البدو الجميلة الشبيهة بعيون الطيور ! ـ تحدجها بنظرات ثابتة ، خلال قلنسواتهم المعتمة المدببة ٠٠ وسمعت « طقطقة » الخشب بين ألسـنة النيران المتأججة، وسط هذا السكون الذى لم يكن يتخلله سوى عزيف الرياح، وذلك الصرير الخافت المنبعث من أضراس الجمال وهى تجتر طعامها ، على حين كانت الكلاب تحوم حولها وتتشمم ساقيها ٠ وقال ابراهيم : « تعالى معى يا سيدتى ! » ٠٠ فتبعته فى حركة آلية وابتعد بها عن النيران ، فاجتازا معا بقعة من الأرض الرملية ، نحو خيمة كبيرة منعزلة عن سائر خيام المعسكر ٠٠ وأخذ قلبها يخفق فى عنف واضطراب ـ كلما ازدادت من الخيمة دنوا ـ وقد خامرها شعور عذراء غريرة !٠٠ فما شعرت منذ أعوام بالشباب يتفجر بين جوانحها كما شعرت به فى تلك الليلة ٠٠ ففى تلك الصحراء المظلمة ، وبين هؤلاء الرجال الافريقيين ، كانت كل معرفتها بشئون الدنيا ، وكل تجاربها مع الرجال فى البلاد المتحضرة ، تبدو عبثا لا نفع لها منه ولا قيمة ٠٠ كأنها نثرت تلك المعرفة وتلك التجـارب

فى الهواء ، وتجردت منها كما تتجرد الأفعى من جلدها ، ثم وقفت هناك فى جهالة جديدة تماثل جهالة الشباب الحائر !

وكانت شريحة من القماش السميك تؤلف بابا للخيمة ، وقد أسدلت باحكام، فمضى ابراهيم نحوها وصاح مناديا . ومرت لحظة لم يتلق فيها جوابا .. وفى خلال تلك اللحظة انفسح الوقت أمام مسز ارماين لتلمح خيمة أخرى أصغر حجما ، أقيمت مع خيمة بارودى - وهى الخيمة الكبيرة ، كما أدركت - بمعزل عن سائر الخيام . واذ سكنت الرياح لحظة ، خيل اليها - وان لم تستوثق - انها قد سمعت من الخيمة الكبيرة صوتا رفيعا يشبه صوت الأوتار المشدودة الى آلة موسيقية لم تكن تعرفها .. وفى اللحظة ذاتها ، رفع باب الخيمة ، وتدفق منه ضوء ساطع ، رأت فى وسطه شبح رجل نظر الى الظلام لحظة ، ثم تراجع الى الخلف ، فأسرعت تلج الخيمة لتجد نفسها واقفة بجوار محمود بارودى !.. واذ ذاك أسدل باب الخيمة ثانية ، فحجب عنها الليل والصحراء معا !

★ ★ ★

◆ وكان بارودى يرتدى ثيابا عربية .. فقد غطى رأسه بعمامة بيضاء موشاة بالقصب ، كما أحيط وجهه باطار ناصع البياض من لون الثلج النقى ، بينما اختفى عنقه الضخم خلف غلائل من القماش الثمين .. وكان يرتدى « قفطانا » طويل الكمين ، من الحرير المقلم المشجر ، ويحيط خصره بحزام عريض من الحرير الهفهاف الفاخر ، ويضع فوق ذلك كله ما يشبه المعطف من قماش قرمزى اللون (جبة) .. وكانت ساقاه بغير جوربين ، كما كانت قدماه فى خفين محليين من الجلد المراكشي القرمزى ، وقد أمسك بيده اليسرى غليونا مفرط الطول ، ذا مبسم من العاج !

وأخذت مسز ارماين تنقل نظراتها بينه وبين خيمته ، وتلك الستائر الحريرية السميكة ذات الألوان المشرقة - التى كانت تخفى قماش الجدران - والى الأبسطة النفيسة التى كانت تغطى رمال الصحراء ، والى المصباح الفضى الكبير المعلق بسلسلة من الفضة الى السقف المحدودب ، والى أكوام الوسائد الحريرية المتعددة الألوان التى تناثرت فوق الأرض ..ومرة أخرى تناهى الى خياشيمها ذلك الشذى الخفيف للعطر القوى الذى كانت تقرنه ببارودى دائما ، ثم أصبحت تقرنه بالشرق كله ، وبكل ما هو شرقى .. لقد نقلها ذلك الهجين السريع - خلال الليل - من عالم الى عالم آخر حقا ، ولكنها أحست بالتعب فجأة .. أحست بأنها تتمنى لو تستلقى فوق هذه الحشيات الحريرية الكبيرة ، وبين تلك الجدران الحريرية الملونة التى حجبت عنها الظلمة العاصفة ، والصحراء الكئيبة الشاسعة ، وان تظل كذلك طويلا .. وأصاب الوسن غريزة الغانية ، تلك الغريزة المترفة

الفاترة ، فاستجاب جسدها كله لهذا الدفء العطرى ، وهذا الجو من الثراء والرفاهية الذى خلقه الرجل الواقف أمامها فى قلب الوحشة وصميم القفار

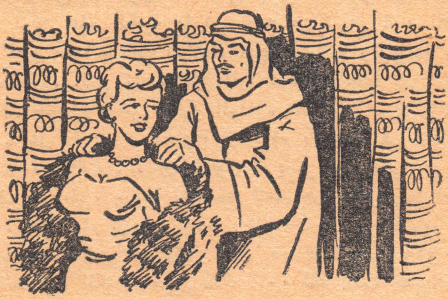
وما لبثت ان تنهدت ، ثم نظرت الى عينيه ٠٠ فقال بتلك اللهجة الساخرة المنغمة ، التى لحظتها منه فى أول لقاء لهما على انفراد : « وكيف حال مستر ارمين ؟ هل خرج يسعى وراء الثعالب ؟ » ٠٠ ولم تدرك قصده ونيته ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يقول لها فى تلك اللحظة ما قد يصفع ـ بخشونة أقسى من ذلك ـ الابتهاج الشهوانى الذى أضفاه عليها هذا التغير المباغت ٠٠ لقد كشفت لها كلماته ، منذ الوهلة الأولى ، ضرورة عودتها فى الحال ، وسريعا ، الى المعسكر ، والى نيجل ٠٠ كما أيقظت فيها المرأة الوسنانة الكامنة فى أعماقها ٠٠ المرأة التى ما زالت تحتفظ بغرائز « السيدة » !٠٠ فقد تبينت هذه « السيدة » ـ كما تبينت حواء عريها وتجردها ـ مبلغ الهوان الذى أصابها باندفاعها السريع أثناء الليل من معسكر الى آخر ٠٠ الهوان الذى تمثل فى انها هى التى بحثت عن الرجل و سعت وراءه ، وأنها سيقت اليه ، دون ان يجشم نفسه عناء الحضور اليها !٠٠ وتورد وجهها تحت الطلاء الذى كان يكسوه ، فاستدارت فى عجلة ، وانحنت تحاول ان تحل أربطة باب الخيمة القماش ٠٠ فلقد اعتزمت ان تخرج الى العراء فتنادى ابراهيم ، ثم تغادر المعسكر على الفور ٠ ولكن يديها كانتا ترتعدان ، فلم تستطع فك الأربطة ، رغم نضالها ومحاولتها وهى منحنية فوقها ٠ ولم تسمع أية حركة خلفها ٠٠ فهل كان باردوى ينتظر هادئا حتى يراها راحلة ؟٠٠ وودت أن تركع على الأبسطة لتتمكن من فك أربطة الباب ، ولكنها ، فى غمرة غضبها العصبى وانفعالها الشديد ، خالت ان الركوع فى هذه الخيمة لن يكون سوى دليل مادى على الهوان !٠٠ ومع ذلك فانها ـ بعد ان ترددت لحظة ـ تهادت على الأرض ، ودفعت يديها تحت القماش فى قوة ،وراحت تتحسس الفراغ ، فيما يشبه الجنون ، بحثا عن الحبال ٠٠ وأمسكت يدها شيئا ، لعله كان حبلا ، أو وتدا ، اذ انها لم تكن تدرى ٠٠ ولكنها راحت تشده وتجذبه بكل ما فيها من قوة !

وفى تلك اللحظة بالذات ، سكنت الرياح فجأة ٠٠ تلك الرياح الليلية التى تهب فوق الصحراء جامحة بغير زمام يقيدها ، فتعصف تارة فى ثورة تكاد تكون ضارية ، وتخمد تارة أخرى فى سكون يكاد يكون تاما شاملا ٠٠ واذ ذاك سمعت صوتا واهنا أثار انتباهها كله بوهنه وخفوته ٠٠ كان ترجيعا للصوت الذى خيل اليها أنها سمعته عندما كانت تنتظر خارج الخيمة ، ولكنها فى هذه المرة لم ترتب فى حقيقته ٠٠ كان ذلك صوت آلة موسيقية ، آلة من نوع ما ، ذات أوتار ، تعزف عليها أصابع مدربة رصينة ٠٠ وتكررت الأنغام ، فتسلل اليها من الخارج لحن شرقى غريب ٠٠ لحن رقيق حزين يحرك المشاعر ٠٠ وأوحى اليها

ذلك بوجود نساء ! فتوترت عضلات يديها ، وتهاوت أصابعها عن أوتاد الخيمة. وراحت تفكر فى الخيمة الأخرى .. الخيمة الصغيرة التى رأتها قائمة بالقرب من خيمة بارودى : فمن ذا الذى كان يقيم فى تلك الخيمة ؟

ومضى اللحن يجرى فى استرسال ، يكاد يشبه شدو طائر صغير ، ينساب من مكان منعزل فى الصحراء . ولكن لم يلبث اللحن ان تلاشى فى جوف الليل ، اذ اشتد هبوب الرياح الليلية من جديد .. فنهضت مسز ارماين من ركوعها ، ولم تعد يداها ترتعدان ، كما لم تعد بها رغبة فى الذهاب . وقالت : « هلا سويت لى بعض الوسائد يا بارودى ، فاننى متعبة من أثر الركوب ؟ »

ولم يكن قد تحرك من حيث كان واقفا منذ ان دخلت الخيمة ، ولكنها لاحظت ان غليونه الطويل قد سقط من يده ، واستقر فوق السجادة .. وسألها فى وجوم : « أين تريدين ان أضعها ؟ » . فأشارت الى احد جوانب الخيمة - وكان أقربها الى الخيمة الصغيرة - وقالت : « هنا ، بجانب هذه السجف الحريرية ، حتى أستطيع ان أسند ظهرى .. اثنتان أو ثلاثة فقط .. نعم ، هذه تكفى ! » .. وفكت أزرار سترتها المصنوعة من الفراء ، وأردفت قائلة : « هلا ساعدتنى ؟ » ، فنزع السترة عنها فى رفق . وجلست ، ثم



خلعت قفازيها ، ورتبت الوسائد خلف ظهرها فى عناية . وكان مسلكها مسلك امرأة تنتوى ان تبقى حيث كانت ، مدة طويلة . وراحت ترهف السمع منصتة عسى ان تسمع الموسيقى ثانية ، ولكن وجهها لم ينم قط عن انها كانت تبذل أى جهد .. كانت نفسها قد عادت اليها .. وكانت « نفسها » هذه امرأة استطاعت فى عالم معين- عالم تحارب فيه النساء غيرهن من النساء ، من أجل الرجال ، فى سذاجة ، بل وفى علانية تامة أحيانا ! - ان تحافظ طويلا على مركزها فى عزم ونجاح ، بل وفى قسوة !

وكان بارودى يرقبها بعينين ملؤهما الجد والاهتمام .. والتقط غليونه من الارض ، ثم جلس متربعا بالقرب من حيث جلست مستندة الى الوسائد .. وازداد هبوب الرياح الليلية قوة ، فلم تعد تسمع صوتا من الخيمة الاخرى . واذ أدركت ان الريح لابد أن تبدد هذه الموسيقى الغريبة الرقيقة ، ولو ظل عازفها المستتر ممعنا فى ادائها ، قالت فى شيء من الجفوة : « وماذا لو عاد زوجى الى المعسكر قبل عودتى الى هناك ؟ » .. فقال : « لن يحدث هذا » . فتساءلت : « وما الذى يدرينا ؟ »

ـ سيحملك الهجين الى هناك فى خمس عشرة دقيقة

ـ ربما كان هناك الآن .. ماذا لو كان هناك ؟

ـ وهل ترغبين فى ان يكون هناك ؟

كان قد نفذ الى فكرها ، وتعمق فى فهم رغبتها .. ذلك ان انغام تلك الموسيقى ، وهذا اللحن الصغير المنبعث من « العود » البدوى المشدود الاوتار ، تحت أصابع مدربة ـ ربما كانت مصبوغة بالحناء ، لون الفرح والسرور ـ قد جعلها مستهترة لا تبالى بالعواقب .. لقد اصبحت تتوق فى تلك اللحظة الى ازمة وانفجار !.. ومع ذلك فان سؤاله هذا جعل شيئا ما فى اعماقها ينكص ويتراجع .. افيمكن ان تكون خائفة من نيجل ؟ أيمكن ان تطاطىء رأسها امام طيبته عندما تتبين هذه الطيبة ما هى عليه من شرور ؟.. لقد غيرها الزواج حقا ، وعلى نحو مبهم غامض ، فأعاد اليها رغباتها ونزواتها ، بل حتى تلك الحشمة المصطنعة ، التى كانت تظن انها تخلصت منها الى الأبد ، منذ زمن بعيد . وكانت أشباح بعض غرائز المرأة « المستقيمة » لا تزال تجاهد بوهن فى أعماقها ـ على ما بدا ـ محاولة ان ترفع رؤوسها فى أعماق هذه المرأة ، التى لم تلبث ان قالت : « ان الامور لا يمكن أن تمضى على هذا النحو .. اننى لا اعرف ما أبغى ، ولكنى لن اسمح لنفسى بأن أعامل كما تخال ان بوسعك ان تعاملنى ! هل تعلم ان فى أوربا رجالا قضوا على أنفسهم من أجلى ؟ هل سمعت ؟ حطموا أنفسهم من أجلى ؟! » .. فقاطعها وهو يبتسم ابتسامة العارف ، قائلا : « أفكنت تحبين ذلك ؟!.. لقد كنت تحبينه كثيرا ، ولكنى لن افعله قط ! » .. واخذ يهز راسه وهو يستطرد قائلا : « اننى على استعداد لأن أمنحك أشياء كثيرة ، ولكنى لست واحدا من أولئك الذين يسميهم الرجل الانجليزى حمقى مأفونين ! »

وكان الجانب العملى فى خلقه ـ وقد بدا واضحا جليا فجأة ـ اشبه بيد باردة مثلجة وضعت على بدنها .. كان أشبه بدواء ناجع للحمى التى انتابتها ، فقد بدا وكأنه يوشك ان يتغلب على مرض طاغ ، هو مرض رغبتها فيه واشتهائها اياه ، الذى أنجب لنفسه رفيقا أبديا تمثل فى غيرتها الجامحة التى

كانت تشمل جسدها كله وروحها كلها !٠٠ وقالت بعد لحظة من التردد ، وهي تسارع من جديد - رغم أنفها - الى استقبال هوانها ومذلتها : « ذلك لأنك لا تميل الى ٠٠ فكل رجل يميل الى امرأة يمكن ان يكون أحمق من اجلها ، حتى ولو كان رجلا شرقيا ! » ٠٠ فقال : « ولماذا حضرت الى هنا اذن ؟٠٠ اننا على مسيرة يومين - في الصحراء - من أبى الهول ! » ٠فأجابت: « لأنه يروق لك ان تلاحق امرأة انجليزية ! انك قاسى الفؤاد ، وهذا الامر يستهويك ! » ٠٠ وفى تلك اللحظة فهمت سر قسوتها نحو نيجل فى وضوح وجلاء ، كما فهمت سر قسوة بارودى حيالها ٠٠ وهكذا كانت تدنو من معرفة قانون التعويض عن خبرة وتجربة !

وضاقت عيناه وقال : « أفكنت تفضلين أن لا ألاحقك ؟ » ٠٠ فلم تحر جوابا ، ولكنه عاد يسألها : « هل كنت تفضلين ان تتركى فى هدوء لحياتك مع مستر ارمين ؟ » ٠٠ فهتفت فى قنوط : « أواه ! لقد سئمت حياتى معه ! من الخير ان لا يكون فى المعسكر عند عودتى الليلة ٠٠ هذا أفضل الى درجة كبيرة ! » ٠٠ فقال فى صوت يدب فيه الازدراء والاستهجان : « واذا وجدته فى المعسكر ٠٠ هل تخبرينه ؟٠٠ انك لا تشبهين أية واحدة من نسائنا ، فهن يعرفن كيف يفعلن ما يردنه ، حتى وهن خلف الابواب والنوافذ المقفلة فى بيوت أزواجهن ٠٠ انهن نساء بارعات ماكرات عندما يمشين فى دروب الحب ! » ٠ وهكذا جعلها تحس كأنها طفلة غريرة ، بل انه وجه لطمة عنيفة الى كبريائها كفانية ناجحة ٠٠ فقالت : « ما ينبغى ان اخبره ، بالطبع ٠٠ ولكن لعل ذلك يكون خيرا لى ، فقد تعبت وضقت ذرعا بحياتى هذه ! »

وعادت الكآبة المروعة تتدفق عليها من جديد ٠٠ تلك الكآبة التى كثيرا ما تصيب النساء اللائى من طرازها وسنها ، والتى كانت تخشاها وتوجس منها شرا ٠٠ فقد كانت راغبة فى أن تعيش - فى السنوات القليلة الباقية - كما تود وتهوى ان تعيش ٠٠ لابد لها من ان تسارع الى الفكاك من سجنها ، والا فلن تجد حرية تنعم بها اذا هى أبطأت فى تحطيم سجنها ، لان العمر الباقى لها أقصر من ان تضيعه فى التردد !٠٠ ولم يكن فى وسعها ان تخبر بارودى بشىء من هذا كله ، ولكن كان من المحتمل ان تجعله يشعر بقوة رغبتها ، بطريقة توقظ فيه قوة مساوية من الرغبة المستجيبة !٠٠ ولعلها لم تستغل حقا كل ما لديها من قوى الفتنة - فى المرات السابقة - لم تستغل تلك القوى التى طال ترويضها وتدريبها فى أتون الحياة المتاجج !

وسكنت العاصفة فوق رمال الصحراء ، فعادت تسمع انغام العود الرقيقة٠٠ كانت تتموج فى أذنيها كشىء لين مرن مثير !٠٠ لابد ان ثمة امرأة كانت فى تلك الخيمة !٠٠ وهى « بيللا دونا » ، ست الحسن ، لابد لها من ان تعود

الى معسكرها على الفور ، وتترك بارودى مع تلك المرأة ! ان العقارب تقتص منها الليلة !٠٠ وقالت : « لماذا تراك حضرت الى هذا المكان ؟ » ٠٠ فأجاب : « لأقضى معك ساعة ! » ٠٠ وكانت السخرية والرصانة - اللتان تبدوان دائما باردتين فى هدوئهما - قد تلاشيا من عينيه ، وحل محلهما بريق لامع بدل هيئته كلها تبديلا ٠٠ اذن فقد كان ، هو الآخر ، ينطوى على ذلك الجنون السماوى !٠٠ التهوس الشبيه بما لدى حمزة !٠٠ أم تراه كان جنونا لا يمت الى السماء بصلة ؟٠٠ ولم تحاول ان تسأله ، لانها لم تعن بأن تعرف !

وهاجت الرياح الليلية من جديد ، فأغرقت أنغام العود الرقيقة الخافتة !

★ ★ ★

❖ اجتازت مسز ارماين فى تلك الليلة - دون ان تفطن - حدا فاصلا بين عالمين مختلفين ٠٠ وقد اجتازت هذا الحد الفاصل عندما خرجت من الخيمة الكبيرة الى رمال الصحراء لتعود أدراجها الى المعسكر المجاور للبحيرة ٠ كانت السماء قد صفت قليلا ، بينما كانت مع بارودى ، فبزغت بعض النجوم على استحياء فوق الخيام والنيران المشتعلة ، ورانت على الصحراء سكينة وصفاء خالص أفعما بشاعرية عميقة ، واتخذا من الصحراء الشاسعة حرما مقدسا لهما !٠٠ وتبدل منظر المعسكر ، فلم يعد خليطا غامضا كدرا من الرجال والحيوانات والخيام - يكشف عن بعضه ضوء نيران مستعرة ، ويخفى بعضه دثار الليل الاسود - وانما كان صورة هادئة مريحة للطمأنينة والدعة ، مليئة بتفصيلات هادئة ٠٠ تفصيلات السوائم وهى تطعم أو تجتر طعامها ، والرجال وهم يدخنون أو ينامون أو يتجمعون سويا ليتحاكوا بقصص لا تفرغ ولا تنتهى ، أو ليلعبوا « الضامة » وهى اللعبة المفضلة عند البدو

ولكن الظلمة الدامسة والعاصفة الهوجاء اجتمعتا معا فى أعماق مسز ارماين ! لذلك أذهلها مرأى هذا المكان الصحراوى ، الذى كان الهدوء الشامل يسوده فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، حين وجدت فيه نقيضا لما يعتمل فى نفسها

وكان بارودى قد خرج قبلها ليتحدث الى ابراهيم ، فرأته وقد تضخم حجمه الى حد غير مألوف وغدا عملاقا مهيبا ، بسبب تلك الثياب الفضفاضة التى كان يرتديها ، وتلك العمامة من القماش الرفيع الفاخر التى أحاطت برأسه ، طيات فوق طيات لا عدد لها ، وقد راح يمشى بخطى واسعة بطيئة ، فيعبر الرمال وينضم الى حاشيته ، التى نهض أفرادها جميعا قائمين عند ما رأوه قادما !٠٠ وظلت هى جامدة فى مكانها لحظة ، فى ظل الخيمة المظلم ، ثم

لفحها الهواء البارد الجميل فجعلها تدرك انها كانت تتاجج بنيران انفعالاتها . وأحاط بها الصفاء الساحر ، فهيأ لها ان تتبين ما كان فى نفسها من اضطراب معتم كثيف الضباب !.. وسرت فيها رعدة قوية وهى تقف فى ذلك المكان.. رعدة لم يختلج لها بدنها فحسب ، وانما كان كيانها كله وطبيعتها كلها يرتعدان ويرتجفان !.. وفى تلك اللحظة ، سمعت - ثانية - ذلك العزف على العود ، ورأت شعاعا ضئيلا من الضوء يتسلل من الخيمة التى لم تدخلها ، فيستلقى على الرمال .. فأحكمت أزرار معطف الفراء الذى كانت ترتديه ، وراحت تلوى القفازين بين يديها ، وهى تنظر صوب الشعاع .. كان صدغاها يدقان بنبض شديد ، وأحست فى ظهرها - تحت كتفيها مباشرة - بصدمة باردة مفاجئة ، أشبه بالبرودة الناشئة عن روح النعناع (المنتول) ، فتلفتت تنظر الى نار المعسكر المتأججة ، وما لبثت أن استرقت الخطى متسللة فوق الرمال حتى وضعت قدمها فوق ذلك الشعاع .. ثم وقفت تنتظر !

وللمرة الاولى ، تبينت انها كانت خائفة من محمود بارودى ، وانها تحجم عن اغضابه كما يحجم الكلب عن اغضاب سيده ! ولكن هل يغضبه ان ترى عازف العود ؟.. انه لم يجشم نفسه مشقة اسكات هذا العزف .. كان يعامل النساء فى تشامخ واستعلاء ، وكان هذا جزءا من سحره وفتنته لهن ، أو لها هى ، على الاقل ! فماذا يهمه لو انها عرفت ان معه امرأة اخرى فى المعسكر ، أو رأت تلك المرأة ؟.. وحتى لو غضب !.. انها تفكر فى غضبه وتعلم انها فى تلك اللحظة على استعداد للمجازفة بالتعرض لهذا الغضب - بل المجازفة بأى شىء - فى سبيل ان ترى المرأة التى كانت فى تلك الخيمة.. واذ راحت تعمل فكرها سريعا ، فى انفعالها العصبى وغيرتها المريرة - التى تضاعفت حرارتها عشر مرات بعد ان اقتربت لحظة رحيلها - استطاعت ان تصور لنفسها ما ينبغى أن تكون عليه تلك المرأة . لعلها على الارجح شركسية فاتنة ، ناصعة البياض ، صغيرة السن ، بل صغيرة السن جدا ، فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ؟! .. أو لعلها عذراء من الفيوم - بلاد العذارى السمراوات الجميلات - ذات حاجبين عريضين ، ووجه بيضاوى ، وعينين سوداوين واسعتين تذيبان القلوب ؟!.. وراح خيالها يرسم ويصور اشكالا من الفتيات الجميلات على صفحة الليل الحالك السواد !

واذ انبعثت من داخل الخيمة نغمة عالية أشبه بالانين ، تقدمت مسز ارماين الى الامام ، ورفعت طرف القماش ، وتطلعت الى الداخل .. فاذا الخيمة - فى داخلها - لا تشبه خيمة بارودى فى شىء .. كان كل ما فيها مجردا من الجمال ، وان بدا كل شىء تقريبا زاهى اللون : كان جدار الخيمة مغطى بنوع من القماش الخشن المخطط ، فى ألوان صفراء وحمراء صارخة ، وقد انتشرت

عليه رسوم بارزة متعاقبة تشبه الورود ، تدور حول حافته المتاخمة للرمال .. وكانت أرض الخيمة من الرمال التى تناثرت فوقهـا قطع من الاكلمة نقشت عليها زهور ضخمة الحجم ، بدت وكأنهـا تلف وتدور فى برية من الاوراق الخضراء الباهتة والصفراء .. وثبتت على الجدران ، اطارات مشوهة الطلاء ، تضم صورا صغيرة : لوحات زيتية بدائية تعج بالالوان الصارخة ، ورسـوم بالطباشير لشخصيات مفزعة كالتى تعمر حلما مروعا ، وصور لرجال فى ثياب رسمية - ذوى أنوف حمراء ووجنات مكتنزة - ورسوم لكلاب وقطط وزواحف، ولوحات ملونة انتزعت من الصحف المصورة .. واختلطت بكل هـذه أشياء أخرى حدست مسز ارماين انها أحجبة وتعاويذ واقية : مصحف ضمه غلاف من الفضة ، وعلق بخيط من الحرير الاصفر .. لفافة صغيرة - أو اثنتان - وشرائح من الورق ، عليها كتابة بالعربية .. سواكان من الخشب فى أنبوبة خشبية مفتوحة من أحد طرفيها .. حذاء مفرد دقيق الحجم ، ربط فى خيط مع قطع من المرجان وبعض الزهور الذابلة !.. مسابح عديدة من الاصداف ، يتخللها خرز ازرق فاقع وأبيض .. قنينة من الميعة المباركة .. عدد من الحلى على شكل الكف - الخميسة (او كف فاطمة كما أسماها المؤلف) - بعضـها كبير الحجم جدا ، وقد صنع من فضة مذهبة ، وسلك مع أحجار وأقراص من مادة حمراء تشبه شمع الختم ، وبعضها صغير ، من الفضة والنحاس ،لايساوى شيئا من القيمة المادية .. وكانت هناك أيضـا قدم حيوان صغير مثبتة فى ماسك من الفضة المطروقة ، كما كان يوجد - فوق منضدة صغيرة من الخشب - مصباح زيتى زرى الشكل ، يتصاعد منه الدخان ، وتحته صندوق كبير من الخشب مرصع بأزرار كبيرة من النحاس الاصفر ، ومصفح بزوايا من النحاس، وقد طلى بلون أخضر لامع .. وبالقرب منه - لصق جدار الخيمة - كانت توجد



حشية من القطن غطيت بأكلمة زاهية اللون ، اعدت كفراش للنوم !
وكان فى الخيمة شخصان ٠٠ وعلى الرغم من أن الانغام الموسيقية الرقيقة أوحت الى مسز ارماين بأنها صادرة عن امرأة ، الا ان العازف لم يكن امرأة، وانما كان شـابا طويلا عريض المنكبين ، ارتدى سترة صفراء فاقعة أشبه بسترات الجنود المراكشيين - من أبناء القبائل - وسراويل واسعة من التيل الابيض ، وخفين أصفرين ، وطربوشا ٠ وكان يلف خصره بمنطقة « شملة » طويلة ضيقة ذات لونين - أحمر وأصفر - تتدلى منها أهداف « شراريب » ! ٠٠ وكان يجلس متربعا على الاكلمة القبيحة الشكل ، ممسكا بين يديه الكبيرتين الشـاحبتين - المرقطتين ببقع زرقاء من « الوشم » والمصبوغتى الانامل بالحناء - بآلة موسيقية صغيرة عجيبة الشـكل ، تتالف من قصعة سلحفاة برية ، وجلد الماعز ، والخشب ، والاوتار الاربعة التى كان ينطقهـا بتلك الانغام الشاكية المتموجة ٠ وكان الشاب ذا شارب ولحية صـغيرة ذات لون أزرق مائل الى السـواد !٠٠ وكانت عيناه نصف مطبقتين ، ورأسه مسندا الى احدى كتفيه ، وفمه منفرجا ، وقد ارتسمت على أساريره تعبيرات تنم عن الرضى العليل الخائر !٠٠ وكان بين آن وآخر ، يترنم بلحن قصير فى صوت مسلوب غير طبيعى ، وهو يهز جسمه الضخم المترهل هزات خفيفة ، بينما كان رأسه يرتعش ، كأنما أصابته نوبة من الفالج !٠٠ وعلى الرغم من منكبيه العريضين ، واطرافه الطويلة ، ولحيته ، فقد لاح فى شخصيته - بوجه عام - تخنث لا سبيل الى وصفه ، وكأنما كانت أعضاء جسمه الضخمة ، التى توحى برجولة كاملة ، تزيد هذا التخنث ظهورا ، بدلا من ان تستره !٠٠ وكانت تجلس - على بعد يسير منه ، وفوق الحشية - فتاة منتصبة الظهر ، كأنها صنم من الأصـنام ، وقد ثنت ساقيها وقدميها وأخفتهما تحت ثيابها الحريرية الفضفاضة !
وأخذت مسز ارماين تنقل بصرها بين الرجل والأنثى ، بتلك اللهفة الضارية التى تعتمل فى صدر المرأة المشتعلة الغيرة ٠٠ فقد فطنت فى التو الى أن الرجل لا يمكن أن يكون عشيقا لهـذه الفتاة ، وانما هو تابع لها ٠٠ ولعـله أحد الأغوات ، خصص لادخال السرور على نفسـها ٠٠ انما كانت هـذه « امرأة » بارودى ، التى سوف تبقى هنا فى الخيمة بجانبه ، بينما ترحل هى - الأوروبية المكبلة بالأغلال - تحت جنح الليل الى بحيرة قارون !٠٠ ولكن هل يمكن أن تكون هـذه « امرأة » بارودى ؟٠٠ هـذه المخلوقة المخضبة ، المثقلة بالحلى ، المتبهرجة ، التى تكاد تشبه الببغاء فى حللها ذات الألوان الصارخة المتعددة ، والتى ظلت جاثمة بلا حراك فوق تلك الأبسطة ، كما تجثم الببغاء فوق أعواد قفصها - دون مبالاة - فكأنها مغفية غلبها النعاس ٠٠ ولعلها فى الواقع كانت يقظى ترقب ما حـولها من طرف خفى ، وقد وضعت سيجارة بين شـفتيها

المصبوغتين ، فوق ذقن وشم عليها رسم أشبه بلحية صغيرة فى لون «النيلة» ؟ •• أفمن المعقول ان يفتتن بارودى بهذا الوجه الذى ربما بدا فتيا تحت كسوته الكثيفة من الأصباغ والطلاء ، ولكنه لم يكن – فى الواقع – يعتبر جميلا فى نظر أى رجل عرف حسان أوروبا وأمريكا والفهن ؟•• هذا الوجه بملامحه السمجة ، وعينيه الكئيبتين الراكدتين ، ووجنتيه المكتنزتين ، وشفتيه الشهوانيتين ؟

أجل •• كان بارودى خليقا بذلك !•• وفيما كانت مسز ارماين تتأمل المنظر – بتلك البصيرة الغريزية التى تحتدم فى نفس المرأة المهتاجة الملتاعة – شعرت بالسحر الذى تنبض به مثل تلك المخلوقة فيجر وراءه رجلا مثل بارودى ، كما يجر « اللنش » السفينة الكبيرة !•• يقينا انها لم تؤت ذرة من العقل ، وانما كان لها جسد اشتمل على ارادة متوارثة عن عدد لا يحصى من أجيال بعد أجيال من « الغوازى » •• ارادة امتاع الرجال !•• جسد حسن التكوين •• بل جميل التكوين حقا ، خلو من ذلك الثقل الذى كان يظهر فى وجهها •• جسد خفيف الحركة ، لدن الاعطاف ، يستطيع أن يتشكل فى مختلف الحركات ، وأن يرقص ، ويتخذ أوضاعا مثيرة ، وينحنى ، ويجلس ساكنا – كما هو شأنه الآن – فى جمود التمثال •• جسد يمكن ان يحسن ارتداء الثياب الفاخرة ذات الألوان الرائعة ، والأقمشة الشفافة المزركشة بالترتر ، والحلى البدائية التى لا تتالق – فكأنها تعكس الروح العصرية القلقة – وانما تبدو ناعسة عميقة ، مثقلة ، أشبه بعيون نساء اللهو الشرقيات !

ولم يكن عازف العود البدوى قد أدرك ان شخصا ما يقف فى باب الخيمة ، فظل يعزف ويغنى ، وهو مسبل الأجفان ، وقد غاب فى نشوة عليلة مليئة بالتوجع والأنين •• أما المرأة الجالسة على الأكلمة الزاهية ، فقد ظلت ساكنة بلا حراك ، وان راحت تحدق فى مسز ارماين ، دون ان يظهر عليها أى غضب ، أو دهشة ، أو فضول •• بل دون ان تختلج جارحة فى أساريرها ! فقد ظل فمها المصبوغ جامدا فى وضع كان يوحى بأنه فم نحت من مادة صلبة ! صدرها فقط هو الذى راح يعلو ويهبط فى حركة منتظمة تحت ثيابها الملونة ، وحليها الثقيلة ، وعقودها المؤلفة من قطع من العملة !

وخطت مسز ارماين الى داخل الخيمة وهى تسدل غطاء الباب خلفها • ولم تكن تدرى ما هى فى سبيل عمله ، ولكنها كانت تطفح بفضول مرير لا قبل لها بمقاومته ، مع رغبة غزيرة فى أن تقحم نفسها فى حياة هذه المرأة ، تلك الحياة التى كانت تختلف اختلافا عجيبا عن حياتها هى ، ومع ذلك فانها كانت تتصل بها بحلقة واحدة ، هى محدود بارودى !•• كانت تمقت هذه المرأة ، ومع ذلك فان مقتها كان ممتزجا باعجاب غامض ، وبرغبة غريبة فى ان تلمس



هذه الدمية المصبوغة التى كانت تمنحه المتعة والسرور ، وبحنين قوى الى ان تتحسس جاذبيتها ، وتسبر أغوار سحرها وفتنتها ، وتتلقى منها درسا فى فنون الشرق العجيبة !٠٠ وما لبثت ان دنت من المرأة حتى وقفت الى جانبها ٠ وامتدت - على الفور - احدى اليدين المصبوغتين حتى بلغت معطفها ، فراحت تتحسس فراءها فى رفق ورقة بالغة ٠٠ ولحقت بها اليد الأخرى ، وما لبث المعطف ان أصبح مرتعا لأصابع حيرى معجبة ، تتحسسه وتربته فى رفق من أعلى الى أسفل ثم من أسفل الى أعلى ٠٠ بينما كانت العينان السوداوان المثقلتان ترقبان فى خشوع تألق تلك البشرة الناعمة النضرة ٠٠ وهكذا التقى فضول مسز ارماين بفضول آخر ، صبيانى !٠٠ وما لبث ان بزغ من سحب الغموض شعاع من الضوء ٠٠ وكان شعاعا ساذجا !

وحيرت هذه السذاجة مسز ارماين وبلبلت خواطرها ، وكأنها كانت تطرد غضبها بعيدا ، وتحميها من لذعات فضولها !٠٠ ولكن هذه السذاجة الصبيانية التى طالعتها من تلك الغريمة العجيبة ، لم تلبث ان أثارت فيها مرارة أشد حدة مما عرفته من قبل ، فاذا بها لا تطيق على جسدها لمسات الاعجاب التى راحت الفتاة تربت بها معطفها !٠٠ اذ كيف تكون مثل هذه المخلوقة سعيدة موفورة السعادة ، بينما هى - بعلمها وتجاربها ومفاتنها المدربة حتى الكمال - تعيش فى فيض من الشقاء ؟!٠٠ وحدقت من عل فى أعماق عينى « الغازية » ، فتهادت اليدان المخضوبتان وابتعدتا عن الفراء فجأة ٠ ورأت مسز ارماين أمامها امرأة لم تعد ساذجة أو غريرة ٠٠ امرأة كانت تفهمها وتستطيع هى ان تفهمها !

وانقطع صوت العزف على العود ، وتلاشت أنغام الأوتار الرقيقة الخافتة ٠ فقد رأى الرجل ما حدث ، واستوى على قدميه وقال شيئا بلغة لم تستطع مسز ارماين ان تفهمها ، فأجابته الفتاة فى صوت بدت فيه السخرية والتهكم ٠ وما

لبثت فجأة ان بدأت تضحك ٠٠ وفى اللحظة نفســها ، دخل بارودى الخيمة ، فنادته الفتاة ، ثم أشارت الى مسز ارماين ، وهى تمعن فى الضحك ، بينما كان يبتسم لها وهو يجيب على حديثها ٠ واذ ذاك جن جنون مسز ارماين ، فقالت فى ضراوة : « ما الذى تقـوله لها ؟ وكيف تجرؤ على أن تتحدث اليهـا عنى ؟ كيف تجرؤ على مخاطبتها فى شأنى ؟ » ٠٠ فهتف فى غير اكتراث : « أف ! انها طفلة صغيرة لا تعرف شيئا ٠٠ لقد تم اعداد الهجين ! »

وعادت الفتاة تتحدث اليه فى سرعة بالغة ، وفى لهجة تنم عن ألفة مجردة عن الحياء ، مما أكرب مسز ارماين وأزعجها ٠٠ ولاح أن شيئا ما قد أثار فى نفس الفتاة روح الفكاهة الصاخبة ، اذ راحت تشير بيديها المخضوبتين ، وهى تتمايل فوق حشيتها فى انطلاق وحشى بربرى ، بينما كان خادمها الضخم المترهل يقف ممسكا بعوده فى احـدى يديه الشاحبتين ، ويمسح بالأخرى على لحيته الزرقاء المائلة للسواد ، ويجيل بصره فى هدوء ، دون ان تفتر شفتاه عن الابتسام !٠٠ واستدارت مسز ارماين ثم أسرعت تغادر الخيمة ٠ أما بارودى فقد تحدث الى الفتاة ثانية ، وشاركها فى مرحها ، ثم تبع مسز ارماين الى الخارج ، فما ان رأته هذه حتى اندفعت نحوه وأمسكت جبته بيديها ٠٠ وكانت يداها ترتعـدان فى عنف ، ثم صاحت قائلة : « كيف جرؤت على احضارى الى هنا ؟ كيف جرؤت على ذلك ؟ »

ــ لقد كنت أبتغيك ! وأنت تعلمين هذا !

ــ ليس هذا صحيحا ٠٠ ــ بل هو حق !

ــ كلا ٠٠ هذا غير صحيح ، فكيف كان يمكن ان تريدنى ، بينما كانت لديك هذه الراقصة ؟

فهز كتفيه فى غير اكتراث ــ تماما كما يفعل الفرنسيون الذين كان يلتقى بهم مذ كان طفلا صغيرا ــ وقال : « انك لا تفهمين رجال الشرق ٠٠ أو تنسين اننى شرقى ! » ٠ فخـامرتها فكرة طارئة وصـاحت : « لعلك متزوج ؟! » ٠ فأجاب ببساطة : « اننى متزوج طبعا ! » ٠٠ وضاقت عيناه ، وبدأ وجهه يتخذ مظهر الصلابة والشراسة ، وقال : « ثم انه ليس من عادتنا ان نناقش هذه الشئون! » ٠٠ فأوجست من غضبه ، وتمتمت : « اننى لم أقصد ٠٠ »

وتخاذلت يداها عن جبته ، ثم أردفت : « ولكن ، أليس من حقى ٠٠ ؟ » ٠ ثم أمسكت عن الاستطراد ٠٠ فماذا كانت جدوى مطالبة مثل هذا الرجل بشىء ؟ ٠٠ وماذا كانت جدوى تبديد أية عاطفة عليه ، سواء أكانت هذه العاطفة رغبة أم غضب ؟٠٠ ما جدوى ذلك كله ؟٠٠ ومع ذلك فما كان فى وسعها ان ترحل دون أى تفاهم معه ٠٠ لم تكن تستطيع ان تنطلق عائدة الى المعسكر بجوار البحيرة ، وتستقر فى أحضان الفضيلة ، وفى الحياة المنزلية مع نيجل !٠٠ كانت

طبيعتها كلها تصيح - ملحة آمرة - فى طلب هذا الرجل المصرى !٠٠ وكانت غرابة أطواره تغويها وتملك عليها مشاعرها ، كما كان تكوينه الجسمانى الرائع يروق لها فى قوة لا تستطيع صدها ٠٠ كان يسيطر عليها بقلة اكتراثه كما كان يسيطر عليها بعاطفته ٠ وكان يفتنها بثرائه ، وقدرته على الاقتناء ، فى براعة تضارع براعة اليهود !٠٠ كانت سخريته تلهبها سياطا ، وازدراؤه للمثل الأخلاقية يتجاوب مع ازدرائها لها ٠٠ وكان علمه الوافر بحقيقتها يبعث فيها الدفء ، والراحة والارتياح !٠٠ بيد ان التفكير فى خيانته لها - بمجرد بعدها عنه - كان يهيج فيها نوعا من الجنون !٠٠ فهتفت تقول : « كيف يمكن أن اراك ثانية ؟ » ٠٠ وتكشف كل ما كانت تحسه نحوه ، عاريا ، فى نبرات صوتها !٠٠ وعادت تقول : « كيف يمكن أن أراك ثانية ؟ » ٠٠ ولكنه وقف ينظر اليها فى صمت ، فأردفت قائلة : « وما الذى سيحدث لى اذا كان نيجل قد اكتشف اننى كنت بعيدة عن المعسكر ؟ »

- سوف ينتحل حمزة عذرا يفسر به غيابك !

- واذا لم يصدق هذا التعليل ؟

- عليك ان تقدمى له غيره ٠٠ فما ينبغى ان تخبريه بالحقيقة قط !

وكان هذا أمرا ألقاه - بلهجته الفاترة - كنير أو عبء على عاتقها ٠ ومضى يقول : « لن يقدر له البتة أن يعرف اننى كنت هنا ، فسوف أرفع خيامى الليلة - بمجرد انصرافك - وأعود أدراجى الى القاهرة ٠٠ فلست أود أن أثير المشاكل مع الانجليز طالما كان الانجليز يحكمون مصر !٠٠ اننى موضع اعتبار الانجليز ورعايتهم ، وهكذا ينبغى ان تستمر الحال ، والا فان أعمالى ومصالحى سوف تتأثر وتعانى الكثير من المتاعب ٠٠ وهذا ما لن يكون قط ٠٠ هل فهمت ؟ » ٠٠ فرنت اليه بطرفها ، دون أن تقول شيئا ٠٠ بينما عاد يتابع القول : « ان لنا ان نفعل كل ما نشاء فى هذا العالم ، على ألا نخسر فى سبيل ذلك شيئا ٠٠ وهكذا كان شأنى فى الحياة دائما ! » ٠٠ ففكرت فى كل ما حاق بها من خسائر منذ أمد بعيد ، عندما فعلت الشىء الذى اشتهته ، وأحست بنفسها مرة ثانية ، أدنى منه مرتبة وأقل شأنا !

وعاد يقول : « وهذا أيضا سوف نفعله ، دون ان نخسر أى شىء من جراء اتيانه ! » ٠٠ فتمتمت : « هذا ؟ ما هو ؟ » ٠٠ فقال : « عودى الى بحيرة قارون الآن !٠٠ ولكن خبرينى ، ألن تحتاجا الى دهبية عما قريب ؟ » ٠٠ فتساءلت : « هب اننا فى حاجة الى واحدة ؟ » ٠٠ فقال : « ستحصلان اذ ذاك على اللولية ! »

- أتعنى انك تنوى الذهاب معنا ؟

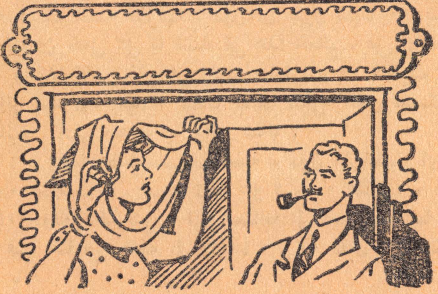
- هل أنت طفلة صغيرة ؟٠٠ اننى سأؤجرها لزوجك بمبلغ يناسب موارده،

حتى تستطيعى أن تعيشى كما ينبغى لك .. سوف أؤجرها بمن عليها من رجالى : بفلاحيها وخدمها وطاهيها !.. ويجب عليك بعد ذلك ان تأخذى زوجك بعيدا ، الى أعالى النيل ، فى هدوء وبغير جلبة أو ضوضاء !

فأحست مسز ارماين بصدمة باردة ، كأنها يد ثلجية ، وقالت مرددة كلامه : « الى أعالى النيل فى هدوء وبغير جلبة أو ضوضاء ؟ » ، فأجاب : « أجل ! » . فعادت تتساءل : « وما الفائدة من هذا التكتم ؟ » . وهنا قال بارودى : « عسى ان يحب النيل بحيث لا يعود منه ثانية ! » .. وراح يتفرس فى عينيها !.. وعندئذ سمعت خوار البعير ، فقال بارودى : « ان جملك متأهب للرحيل ! » .. وسارا متجهين نحو النار المضطرمة حيث كان ابراهيم ينتظرهما . وقبل ان تستقر مسز ارماين فى الهودج ، كان بارودى قد مضى مبتعدا دون ان يضيف كلمة أخرى . فلما نهض الجمل – وهو يزمجر شاكيا فى غمرة الليل – لمحت بارودى يرفع باب خيمة « الغوازى » ويختفى بداخلها !

ولم يكن نيجل قد عاد الى المعسكر القائم بجوار البحيرة ، عندما بلغته مسز ارماين . فأسرعت تنزع ثيابها ، وتأوى الى الفـــراش ، حيث استلقت يقظى ترتعد ، برغم ما كانت تتدثر به من أغطية ثقيلة !.. حتى اذا كان الفجر ، عاد نيجل .. واذ ذاك أغمضت عينيها ، وتظاهرت بالنوم .. ولكنها لم تكف عن الارتعاد قط !

الفصل الخامس والعشرون



• هتف نيجل « روبى ! » .. وكان يقف معها على سطح « اللولية » ، وهو يتطلع الى الكتابة العربية المنقوشة بالذهب

فوق الباب الذى كانا يزمعان المرور تحته .. واستطرد قائلا : « روبى ما معنى هذه الكلمات تماما ؟.. لقد أخبرنا بارودى — فى ذلك اليوم ، ونحن فى الأقصر — بمعناها ، ولكننى نسيت .. انها كانت درسا عن القدر .. شيئا من آيات القرآن .. ألا تذكرينها ؟ » .. فرفعت قناعها فوق حافة قبعتها المصنوعة من القش ، وقالت : « نعم ، دعنى أفكر قليلا ! »

وبدت كما لو كانت تكد ذاكرتها ، وقد ارتسمت أخاديد التفكير فوق جبينها الأملس عادة ، ثم قالت : « يخيل الى أنها كانت : ان قدر أو مصير كل امرىء قد علقناه بعنقه (وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه) أو شيئا قريب الشبه من ذلك ! »

— نعم ، هذه هى الكلمات ! وقد رحنا نناقشها ، فقلت انني لست مؤمنا بالقضاء والقدر

— هل قلت ذلك ؟.. حسنا ، هيا بنا نتم ارتياد ...

فأتم عبارتها قائلا : « منزلنا العائم .. أجل ! » .. وأمسك بذراعها وأردف قائلا : **« اذا كان قدرى معلقا فى عنقى حقا ، فانه قدر سعيد .. قدر استطيع ان أحمله كحلية ثمينة لا كعبء يبهظ كاهلى ! »** .. ومضيا يهبطان الدرج معا ، فاختفيا خلال الباب الصغير الى الظلمات الواقعة وراءه !

وكانت « اللولية » ترسو عند (قنا) ، غير بعيدة عن معبد دندرة .. وكانت قد اقبلت فى النيل الى الجنوب ، قادمة من (أسيوط) ، حيث كان بارودى قد تركها ، عندما فرغ من أعماله هناك ، واستعد للعودة الى القاهرة .. وكان نيجل هو الذى رغب فى أن يلحق بها مع زوجته فى (اسيوط) اذ قال لروبى : « لقد كان معبد دندرة أول معبد رأيناه أنت وأنا معا .. فلنزره ثانية فى وقت فراغنا هذا ، ولنسأل آلهة الجمال ان تبارك رحلتنا ! » .. فهتفت : « هاتور ؟! .. ماذا ؟ هل ارتددت وثنيا عابد أصنام ؟ » .. فانطلق يضحك وهو ينظر

فى عينيها الزرقاوين ثم قال : « أبدا .. ولكنها كانت ربة الجمال المصرية ، ولست أحسب أنها تضن عليك ببركتها ! »

وكانت روبى اذ ذاك تشع بهاء واشراقا ، وقد خلفت وراءها – فى مجاهل ليبيا الموحشة – تلك البرودة التى سرت فى بدنها وجعلتها ترتعد فى تلك الليلة بجوار البحيرة المقدسة !.. وما من ريب فى أنها لايمكن ان تعاودها هنا فى هذا الدفء الذهبى لمصر العليا . وكانت تقول لنفسها انها لا يمكن أن ترتعد ثانية بعد أن فرت من ذلك الطرف الباهت الموحش من اطراف العالم ، حيث كان اليأس يستبد بها !

وحل يوم السفر الى الرحلة النيلية ، فوضعت روبى ونيجل أقدامهما على « اللولية » للمرة الأولى – كصاحبيها – ومرا بأبواب قمرات الخدم سريعا ، ثم انطلقا الى جناحهما !.. وكان ابراهيم يسير وراءهما فى هدوء ، بوجهه الباسم ، على حين كان حمزة يقف جامدا فى أشعة الشمس تحت الحروف الذهبية ، ويتبعهما بنظراته ، دون ان يطرف له جفنان .. وكان « وكر » بارودى قد أعيد تنظيمه وزخرفته ، وزين بالزهور وفروع « الست المستحية » الصغيرة ، كأنما اليوم يوم عيد . وبدت منضدة الكتابة – التى كانت مثقلة من قبل بالأوراق – نظيفة منسقة ، خالية مما كان يثقلها . ولكن كتب بارودى كلها – أو جلها – ظلت فى مواضعها ، وقد تناثرت على الأرض سجاجيد الصلاة الجميلة .. وكان ابراهيم قد وضع بعض أعواد البخور فى حوامل من الفضة ، بينما كانت الزهرية اليابانية المزوقة الرخيصة لاتزال فى مكانها على مائدة قاعة الطعام ، كما ظلت الساعة الصداحة السخيفة ترسل صيحاتها البلهاء تحية لهما !.. وقال نيجل : « الدار الشرقية ! قلما جال بخاطرك ان تصبحى سيدتها فى يوم من الأيام ياروبى ، أليس كذلك ؟ .. الا ما أجمل هذه السجاجيد !.. ولكن يجب أن نتخلص من هذه الزهرية » .. فقالت فى سرعة ،

وفى لهجة أوشكت ان تكون حادة : « لماذا ؟ » .. فنظر اليها مندهشا ، وقال : « ما أظنك تعنين أنك تحبينها ؟.. وفضلا عن ذلك فانها لا تتفق مع الحجرة .. انها نشاز هنا ! »

ـ بالتأكيد .. ولكنها تروق لروح الفكاهة عندى ، مثل هذه الساعة الصداحة المضحكة ! ولعل الأفضل ألا نغير شيئا ، فان « المفارقات » ألذ من ان يغيرها المرء !

ـ انك طفلة بكل ما للكلمة من معنى ! .. حسنا ! هل نجعل من « وكر » بارودى مخدعا لك ؟

فأومأت برأسها مبتسمة ، وقالت : « ولك أن تستخدمه كلما شئت . والآن ، الى غرف النوم ! » .. فقال : « بل الى مزيد من المفارقات والمتناقضات ولكن لا بأس ، فانها تبدو نظيفة أنيقة ! » .. فقالت وفى صوتها العذب لمحة من السخرية : «نظيفة أنيقة ؟! أهذا كل مالديك ؟»

ـ حسنا .. اننى أعنى ...

ـ اعرف ماتعنيه ! هيا بنا !

وراحا يفتحان الأبواب ويطلان داخل تلك الحجرات الصغيرة الفاخرة الزاهية .. **وفيما كانت مسز أرماين تمضى من واحدة الى أخرى ، كانت تحس بذلك الشعور الدافىء الرقيق الذى يتسلل الى فؤاد المرأة وهى تعود الى الجو الذى يلائمها كل الملاءمة ، والذى كانت قد نفيت منه زمنا طويلا !.. انها فى هذا المكان تستطيع أن تعيش فى الجوهر الذى خلقت منه ، ففى هذا المكان كان المال ينفق بغير حساب ليخلق شيئا فريدا !..** وكانت موقنة بأنه ما من دهبية على سطح النيل تضارع اللولية فى كمالها ، ومن ثم فلن يتمالك كل مسافر على النهر نفسه من ان يحسدها !.. وطربت لحظة لهذه الفكرة فى قرارة نفسها ، ولكنها مالبثت ان ذكرت شيئا ، فاذا وجهها يربد ، وشفتاها تتقلصان ، وراحت تجتهد فى أن تطرد من ذهنها تلك الرغبة الطارئة فى ان تحسدها النساء الأخريات !..

اذ لابد من ان تتحاشى ونيجل الجماهير التى تحتشد على النيل فى الربيع .. يجب أن ترسو مركبهما فى الأماكن التى لا يكثر ارتيادها . ألم تردد على مسامعه رغبتها فى «البعد عن الناس» ، وألا ترى شيئا سوى الحياة الوطنية على ضفاف النيل ؟.. ان هاته « النساء الأخريات » يجب ان ينتظرن بعض الوقت لكى يتاح لهن ان يحسدنها .. وهى أيضا يجب ان تنتظر !

وعندئذ كتمت زفرة ضاق بها صدرها وصبرها . ثم فتحت بابا آخر ، وبعد ان ألقت نظرة سريعة الى الداخل ، قالت : « سأتخذ هذه القمرة لنفسى يا نيجل ! » . فقال : « حسنا يا عزيزتى .. ليكن ماتشائين ، ولكن .. دعينا نلق نظرة عليها ! » .. فمكثت لحظة لا تحير حراكا ، وعندئذ أردف قائلا : « لا تكونى أنانية ياروبى ! » .. **وأحست بأصابع تلمس خصرها من الخلف ، وتمسك بها فى نوع من القوة الحانية ، فأغمضت عينيها وحاولت أن تقسر نفسها على الاعتقاد بأنها أصابع بارودى الحديدية !** .. واستطرد نيجل يقول : « والا سأرفعك عن طريقى ! »

وعندما تكلم نيجل ثانية فتحت عينيها .. كان من العبث ان تستمر فى استغراقها ، فما كان لهذا الوهم ان يستمر فى خيالها ! وعندئذ ضغطت على أسنانها فى قوة ، ثم مدت يديها خلفها ، تتحسس أصابعه .. والتقت أيديهما ، وتماسكت ، فتراجعت روبى الى الوراء ، وتركته ينظر بداخل الحجرة .. وما لبث ان قال : «عجبا ! لابد ان تكون هذه قمرة بارودى !» .. فقالت فى غير اكتراث : « ربما .. ولكنى أريدها لسعتها .. الا ترى أنها تبلغ ضعف سعة القمرات الأخرى ؟ » .. فقال : « هو ذلك ، ولكن القمرات الأخرى أكثر منها بهجة وبهاء .. انها قمرة شرقية بحتة ، كما ان الفراش شديد الانخفاض ! » .. وانحنى فوقه يتحسسه ، ثم اردف قائلا : « على انه سرير

وثير ، ولك أن تطمئنى الى بارودى فى ذلك !.. حسنا ، خذيها يا عزيزتى ، وسوف اخد القمرة المجاورة .. وسيكون بوسعنا ان نتحدث بسهولة خلال هذا الحاجز الرقيق ! » .. وتمهل لحظة ، ثم أضاف فى صوت منخفض :

ـ وذلك عندما لا نكون معا !.. والآن لم يبق الا أن نرى حجرة الاستقبال الأخرى ، ثم نذهب الى (دندره) مع حمزة بينما يشرف ابراهيم على الترتيبات الباقية

ـ أجل ، أو .. الا ندع الحجرة الأخرى حتى نعود ثانية ، عندما ياتى الفسق ؟.. فلا أحسبنى أود ان أرى كل شىء دفعة واحدة !

ـ لقد غدوت طفلة تماما ، ادخرى شطرا من سرورك لوقت آخر !.. هل نبدأ الآن رحلتنا الى دندرة ؟

وأجابت وهى تسدل الخمار على وجهها فى عجلة : « نعم » . ثم سارت فى الممر ، مجتازة القبوة التى فى الحاجز ، ومنها الى الشمس الساطعة التى كانت تغمر السطح المخصص للبحارة .. فعلى الرغم من ان النوبيين قد نشروا مظلة (تندة) فوق رؤوسهم ، الا أنهم لم يسدلوا قماشها بحيث يلتقى بجوانب « الدهبية » البيضاء المذهبة .. وكان يحيط بهم بريق ساطع من الضوء ، وفى وسط هذا البريق وقف حمزة ، على بعد قليل من الملاحين ، الذين كانوا رجالا من السود ، طوال القامة أقوياء الأجسام . وكان من الواضح أنهم رجال أحسن انتقاؤهم ، فلم يكن بينهم من هو زرى المظهر ، أو قبيح الشكل ، أو أعور العين ، أو مشوه الوجه بالجدرى !.. وفيما كانت مسز أرماين ترتقى الدرجات الثلاث التى تفصل بين القمرات والسطح ـ وهى تسير مسرعة ، وكأنها تتعجل الوصول الى أشعة الشمس ـ حدجها حمزة بنظر ثابتة ، وكأنها زجر هادىء ولكنه حازم .. كأنما كانت عيناه تقولان لها : « لماذا تفرين من الظلمات هكذا ؟ » .. وأحست مسز أرماين بأنهما تضيفان

الي ذلك : « أنت التى يجب ان تتعلم كيف تحب الظلمات ! » .
وأثرت نظرته فى أعصابها ، بل لقد أثرت فى أطرافها ، فوقفت جامدة بلا حراك عند قمة الدرج ، وراحت تتلفت حواليها ، فى تردد طفيف ، وكأنها تفضل العودة من حيث أتت ! .. فسألها نيجل : « ماذا هناك ياروبى ؟ هل نسيت شيئا ؟ »

— كلا ، كلا ! هل الطريق من هذا الجانب ، أم ينبغى ان نستقل الفلوكة ؟ .. لقد نسيت !

— بل من هذا الجانب .. فقد ربطت اللولية هنا لهذا الغرض .. الينا بالحمير يا حمزة !

وكان يخاطبه فى رفق ، ولكن بتلك اللهجة الآمرة التى اعتاد الانجليزى الشاب ان يخاطب بها اى واحد من الأهالى الوطنيين .. ومضى حمزة فى هدوء وسرعة ، دون ان تتبدل أساريره ، فاجتاز المعبر ، وتسلق الضفة السمراء المنحدرة ، ثم اختفى عن الأنظار ، أشبه بومضة من البياض وسط الذهب !.. فقال نيجل : « ياله من شخص نافع .. هذا ! والآن ياروبى ، هيا بنا ننشد بركات « أفروديت » المصرية .. ولسوف نحصل عليها فى يسر ، فان أفروديت لا تستطيع البتة ان تحول وجهها عنك ! »

وفيما كان حماراهما المتعثران يدنوان من ذلك المعبد المنعزل ،



حيث تحملق « هاتور » الحزينة ــ فى وحدتها ــ الى الساحات التى لم تعد تزدحم بالمصلين المتعبدين ، أخلدت مسز ارماين الى الصمت .. كان الأثر البغيض الذى احسته هنا فى زيارتها الأولى ، يعاودها من جديد ، ولكنها فى زيارتها الأولى كانت متعبة ، وقد أنهكها السفر .. أما الآن فانها قوية ، موفورة الصحة والعافية .. لا ، لن تسمح لنفسها بأن تكون فريسة لأعصابها ! .. **ومع ذلك فعندما أخذ الحماران يسيران فوق الأرض غير الممهدة ، وعندما رأت واجهة المعبد الشاحبة تطالعها فوق الرمال الباهتة اللون ، ووراءها صفحة السماء الأرجوانية ، تذكرت وجه الربة المنحوت ، فنشب فى قلبها فزع كذلك الذى يداخل نفس المؤمن بالخرافات .. ترى لماذا اقترح نيجل ان ننشد بركات أفروديت الحزينة هذه ؟ .. لا ريب أنه ما من بركة يمكن أن تصدر عن هذا الصرح المعتم ، أو عن هذه الآلهة التى اسخطها ما امتهنت به من هجران منذ أمد بعيد ! ..**
وترجلا عن حماريهما ، ثم مضيا الى داخل المعبد الخالى الا من الحارس الذى كان فى لون الشيكولاته ، والذى استقبلهما بابتسامة مرحبة كشفت عن ثناياه المحطمة ، قائلا لهما بالعربية : « نهاركما سعيد ! » . فقال نيجل : « كان يجدر به أن يقول «أسعد الله جميع أيامكما على النيل» ، ياروبى ! » .. فقالت : « انه لا يريد بالسعادة سوى اليوم الذى نمنحه فيه نقودا .. أما فى اى يوم آخر فلا بأس من ان نموت كالكلاب الضالة ، دون ان يهتم أو يبالى ! »

* * *

• **ووقفت** ساكنة فى الساحة الأولى للمعبد ، تتطلع الى وجه « هاتور » التى بدت كما لو كانت تحملق فى الفضاء البعيد ، فى حزن أبدى !.. وما لبثت أن قالت : « أحسبك تعول على السعادة اكثر مما ينبغى يا نيجل ! » .. وكانت

تحس كأن وجه هاتور يدفعها الى هذا القول دفعا : **« اننى اعتقد ان من الخطأ ان يعول المرء على شىء ! »** . فتساءل : « أترين ان يتطلع المرء الى تحقيق رجاء ، كما أتطلع انا الى رحلتنا النيلية مثلا ؟ » ، فأجابت بوجوم : «ربما !» . وتقدمت وئيدا صوب الظلمة المتكاثفة داخل المعبد ، وهى تقول : **« ان المرء لا يعرف البتة ما قد تأتى به الأحداث ! »** . وكان صوتها ينضح بنوع من الاكتئاب العنيف ، فقال نيجل : **« كذلك كل شىء مصيره الى الزوال سريعا ، مهما يكن .. ولكن هذا ليس سببا لكى لا نتقبل السعادة المتاحة لنا ، ونستمتع بها الى الحد الأقصى !..** لماذا تحاولين ان تثيرى اليأس والأسى فى نفسى اليوم ؟ » . فأجابت : « لست أحاول شيئا ، ولكن من الخطر أن يغالى المرء فى الاطمئنان الى سعادة لم تتحقق بعد ! »

وكانت تتكلم كشخص يؤمن بالخرافات ، وان كانت فى الواقع تخاطب نفسها .. كانت فى بادىء الأمر تفكر فى نيجل وتتحدث اليه ، كما لو كانت تنشد خيره ونفعه ، تحدوها الى ذلك شفقة غامضة تمت يقينا الى الفتاة التى كانتها يوما ، وليس الى المرأة التى صارت اليها فى حاضرها .. ثم جثمت على صدرها ظلمة هذا المعبد المنعزل ، وادراكها انه معبد افروديت ــ فقد كانت تفكر فى هاتور دائما على أنها افروديت ــ كما جثما على صدرها عندما زارت المعبد أول مرة .. **فأحست بقصر أجل انتصار المرأة ــ أية امرأة ــ على عالم الرجال .. ذلك القصر البغيض ! .. واحست بما كتب للجمال الجسدى من حياة موجزة ، تذهب فى الايجاز الى درجة فظيعة ! وخيل اليها أنها تسمع حركة « الزمن » وهو يمضى مندفعا ، وتشهد ظلمة « النهاية » تطبق عليها ، كما كانت ظلمة هذا المعبد المنعزل ــ معبد الحب والجمال ــ تزداد حولها تكاثفا !**

وانبعثت من ارتفاع بعيد ، بالقرب من تلك الظلمة المقبضة التى كانت تلف السقف الشامخ فى غياهبها ، أصوات ذات

صريف حاد بشع .. بل مجموعة من الصيحات الغاضبة ، وأخذت أشباح هائلة ذات أجنحة خفاقة تروح وتغدو فى سرعة خاطفة ، خلال تلك الأجمة من الأعمدة الضخمة ، اذ روعت خفافيش «هاتور» ـ الهائلة الأحجام ـ من احلامها وتأملاتها .. وانتشرت فى خياشيم مسز ارماين ، فى بطء واطراد ، رائحة ثقيلة ، كأنها رائحة ماض سحيق دب اليه العفن والتحلل !.. واخذ ضوء النهار يخبو رويدا ، كلما أوغلت هى ونيجل داخل المعبد ، وكأنما كانت تسوقهما ـ رغما عنهما ـ قوة هذه الظلمة ، وتلك الروائح الخفية المتصاعدة من احضان الموت !.. وبلغا اخيرا هيكل دندرة .. « قدس الأقداس » ، حيث كانت تدخر صور وتماثيل آلهة مصر ، وحيث لم يكن يجرؤ على الدخول ـ قديما ـ سوى الملك ، أو كاهنه الأعظم ، وفى عيد رأس السنة فقط !.. فوقفا فى ظلمته المقبضة : **المرأة التى تتوق للعودة الى حياتها الجامحة المفلتة العنان ، والى ماضيها الحافل بالشهوات والفوضى .. والرجل الذى كان يعتقد ـ فى غير زهو أو غرور ـ أن الأقدار قد هيأته لتحرير هذه المرأة من ماضيها !**

واشعل حارس المعبد ـ الذى كان يتبعهما فى هدوء ـ شريطا من المغنيسيوم ، فتواثبت أمام أعينهما نقوش بارزة تصور الملك وهو يقيم الطقوس الدينية ويقدم الذبائح والقرابين ـ وكأنما دبت فيها حياة عابرة غامضة ـ ثم عادت الظلمة تطبق حولهما من جديد .. وخيل الى مسز أرماين أن تلك الرؤيا القصيرة المبتورة ، انما تشبه رؤيا حياتها القصيرة كامرأة جميلة ، وان انقضاض الظلام ثانية ليمحو رؤى المعبد ، يشبه قدوم ظلمة الموت لتسدل عليها ـ هى ـ ستارا ابديا كثيفا لاسبيل الى اختراق حجبه ! »

لقد كانت صادقة فيما أخبرت به ماير ايزاكسون فى حجرة استشاراته ! .. **فهى كلما امعنت فى التفكير ، ازدادت يقينا**

بعدم وجود حياة أخرى .. لم يكن بوسعها أن تتصور حياة الروح ، ولم يكن باستطاعتها أن تتخيل هياكل الموتى العظمية وقد كسيت من جديد ـ فى « بعث » عجيب ـ بذلك اللحم الذى كانت تعبده ، وحلت بها من جديد تلك الحيوية التى تجعل من اللحم والعظام كائنا حيا ، رجــلا أو امرأة ! ..
كانت هذه الحياة الحاضرة هى كل شىء بالنسبة لها .. وكانت تؤمن بأنه اذا خبا ذلك الضوء ـ الذى تعيش فيه ويراها الغير بفضله ـ وتلاشى الى الأبد ، فان « الرؤيا » لن تعود الى الظهور من جديد قط !

وخيل اليها ـ وهى فى هذا المكان الذى كان مقدسا يوما من الأيام ـ انها تغوص لحظة فى أعماق نفسها ، وتتغلغل الى ادق خبايا طبيعتها .. ألم تكن فى لندن ـ قبل ان يدخل نيجل فى حياتها ـ مثل هاتور فى معبدها ، تصغى الى الخطوات المبتعدة عنها ، خطوات أولئك الذين كانوا عبادها والســاجدين فى محرابها ؟.. فلما أتى نيجل ، جاءها برفقته الأمل الضارى فى رفعة المركز ، والثروة الطائلة ، والفوز الحاسم على أعدائها . ولكن هذا الأمل قد تلاشى بغتة ، ومع ذلك فانها فى خلال ارتباطها بنيجل ، قد وقعت على أمل جديد ، ولابد لهذا الأمل الجديد من أن يتحقق قبل أن تحل بجمالها تلك الظلمة المحتومة !.. ان نيجل لن يكون قط وسيلتها الى الغاية التى كانت تنشدها وترجوها ، ومع ذلك فان مصيره يجب ان يكرس لخدمتها .. ان له مصيره ، ولها مصيرها .. ولن يكون مصيرها مركزا دنيويا عظيما ، ولا احتراما رفيعا ، فهى لن تستطيع أن تنال الأول ، وكذلك لن تحظى بالثانى .. فلعلها قد خلقت لأمور أخرى .. لعلها خلقت لتكون سادنة فى معبد فينوس ، وليس لارضاء أى رجل كزوجة شرعية له .. بل ان هــذه الكلمة بالذات ـ «شرعية» ـ تبعث الآن فى دمائها قشعريرة باردة !..
كأنما كان القدر قد كرسها لكل ماهو غير شرعى أو قانونى ،

فعليها اذن أن تستجيب للقدر ولمصيرها ، وأن تتم رسالتها ، فى غير شفقة ، وفى غير خوف ، ولكن فى غير تهور ايضا !.. لقد كان مصيرها فى أن تتحرر من المصيدة التى كانت حبيسة بداخلها .. هكذا أيقنت !

ومع ذلك فهل سيقدر لها أن تتحرر ؟ .. وفى ظلمة محراب هاتور ، وقد استحوذ على حواسها وجه الالهة الجامد ، وما أوحى به الى عقلها المحدود ، الأنانى ، من أفكار حزينة عن الأنوثة المهجورة .. فى ذلك الجو ، عقدت العزم على أن تتحرر ، والا يقف شىء فى سبيلها ، وأن تسحق أية مشاعر او أفكار مثبطة يمكن ان تخامر قلبها أو عقلها !.. ان مصر ، التى خيبت احدى رغباتها ، ثم قتلتها فى أعماقها ، قد منحتها رغبة أخرى ، وقيضت لها فرصة أخيرة ــ فهكذا أدركت ــ للسعادة ، واللذة البشعة وان كانت عارمة !.. انها فى مصر قد ازدهرت ، بعد أن كانت امرأة ذابلة .. وفى مصر جددت قوى فتنتها الجسدية .. فعليها اذن أن تتحرر من المصيدة ، وان تتم رسالتها وتستجيب لمصيرها .. ولسوف تفعل ذلك !.. وأقسمت فى سريرتها على ذلك ، وكأنها تنذر نذرا لأفروديت المصرية فى ظلمة محرابها ! لقد أحضرها نيجل الى هنا ــ أو لم يفعل ؟ ــ كى تبارك هاتور رحلتهما .. ولكنها الآن ، وتحت دافع جامح ، وبعد ان طرحت عنها كل شفقة وشك وخوف وكل شىء خلا الرغبة المتأججة ، راحت تتوسل الى هاتور ان تبارك رحلتها هى .. لا رحلتهما معا ، وانما رحلتها وحدها ! .. **أجل ، توسلت الى ربة الجمال .. الربة الوثنية الموكلة بالحب الجسدى الذى لا يمت الى الروح بصلة ! .. وخيل اليها ــ بما يشبه اليقين ــ ان دعاءها قد استجيب !**

ومع ذلك فان أحدا لم يوجه اليها حديثا ما ، اللهم الا الخفافيش الهائلة التى راحت تصدح لها ــ فى الظلمة ــ من أوكارها العالية .. فهى لم تسمع سوى أصواتها البشعة ، وخفق أجنحتها

الرهيب !.. ثم قال نيجل : « هيا بنا نذهب ياروبى ! لست أدرى السبب ، ولكنى أمقت هذا المكان اليوم ! » .. فَجفلت حين سمعت صوته دانيا منها .. ولكنها سرعان ما سيطرت على مشاعرها ، وأجابت فى هدوء : « أجل ، لننصرف ، فانما يروع وجودنا الخفافيش ! »

وفيما كانا يغادران المكان ، انثنت تنظر الى العمود الذى كانت هاتور تحدق النظر من فوقه ــ وكأنها تبحث عن عبادها ــ وهمست للالهة تحييها مودعة !

★ ★ ★

• **وما** أن صعدا الى ظهر « اللولية » ، حتى أصدر نيجل امره با بحار على الفور . . وكان يبدو قلقا على نحو غير مالوف، وهو يتعجل المسير ! .. وكان ملهوفا وهو يحاطب « الريس » ذا الوجه الجامد الأسارير ، الذى لف رأسه الجميل بشال ، والذى أصغى اليه فى رصانة وهدوء ، ثم أسرع يطوف بسطح البحارة ، يتفقد استعدادات الرحيل ، ويشرف على سحب الحبال ، واخراج المدارى الضخمة التى تساعدهم على الابتعاد عن الشاطىء ، والأشرعه العظيمة التى ستنشر حتى يتسنى لنسيم المساء ــ الذى كان يهب من الشمال ــ أن يدفعهم نحو الجنوب ، رغم مناهضة التيار القوى الجارف . وعندما اضطرب وجه الماء ، وحومت الدوامات حول مقدمة الدهبية ، وعند ما بدا الشاطئان يتسللان مبتعدين ليرتميا فى أحضان ضوء الشمال الوردى ، وانبعث فى الدهبيـة العظيمة ذلك الشعور الغامض بالحياة الذى يهز المركب المتحرك هزا ، طوح نيجل ذراعيه الى السماء ، وانطلق من حنجرته هتاف كان مزيجا من التنهد والصياح المكتوم ! .. وما لبث أن ضحك من نفسه وتحول يبحث عن روبى .. واذا بها وحيدة على السطح العلوى ، تقف بين بعض شجيرات النخيل المغروسة فى أوعية

كبيرة ، وقد وضعت يديها على السياج وحملقت فيه وهو يقترب .. وكانت قد نزعت قبعتها وقناعها ، وأخذ النسيم يداعب خيوط شعرها الشاحب اللامع ، الذى كان يتألق كالذهب فى أشعة الشمس الراحلة ، فاندفع نيجل يثب فوق الدرج ليقف بجوارها ، قائلا : « ها قد أبحرنا ! »

ـ شد ما تبدو فرحا مسرورا ! لقد دعوتنى طفلة ، ولكنك أشبه بغلام مجنون .. مجنون بالسفر والحركة . وان المرء ليظن أن لك .. كلا ، ان ذلك ليس من شيم الغلمان فى شىء !

وتساءل : « ماذا تعنين ؟ » .. فقالت : « كنت أزمع أن أقول ان المرء ليظن أن لك فى (قنا) عدوا ، وانك تفر منه ! » .. فهتف : « منه ؟! انما ينبغى أن تقولى : منها ! » .. فتساءلت بدورها : « منها ؟! » . فبادر قائلا : « من هاتور .. لقد بدا معبد دندرة اليوم عامرا بالأشباح والأرواح ! » .. ونزع قبعته حتى يدع النسيم يصل الى شعره أيضا ، واستطرد قائلا : « وعند ما كنا نقف فى المحراب ، خيل الى أننى أشم رائحة الموت والتعفن .. أواه ! » .. وأربد وجهه لهذه الذكرى ، ثم استأنف كلامه فقال : « وبالصيحات تلك الخفافيش .. كانت تدوى كأنها أرواح منذرة متوعدة ! .. لقد كنت معتوها اذ ذهبت الى مثل هذا المكان التمس البركات لرحلتنا . ولقد عوقبت على هذه الوثنية ! .. ولا عجب ياروبى ، فما أظننى حقا أمت الى الوثنية بصلة ، ولست اظن أن حياة الوثنيين تستهوينى أو تلذ لى ، وهى التى يتشدق بها بعض الناس الآن .. **فلست أرى كيف يمكن أن تكون الحياة القصيرة المرحة ، مرحة على الاطلاق .. كيف يمكن لرجل أن يكون مرحا والظلمات تنبسط أمامه دائما ؟ »**

ـ أية ظلمات ؟!

ـ الموت .. بغير خلود !

وظلت برهة لا تنطق بكلمة . وما لبثت أن سألته : « هل

تنظر الى الموت كمجرد باب يؤدى الى حياة أخرى ؟ » . فأجاب : « بل أومن بأنه كذلك ! وأنت ؟ الا تؤمنين بذلك ؟ » .. فقالت : « بلى ! .. اذن فأنت لا تخاف الموت ؟ » . فهتف : « أولست أخافه .. الآن ؟ انه اذا واتانى الآن اضطرنى الى أن اترك متعا كثيرة ! .. ثم اننى أحب هذه الحياة ، وأجد فيها بهجة وطربا . ومنذا الذى لا يفعل ، متى كانت له صحة كصحتى ؟ .. تحسسى هذه الذراع ! » .. ولكنها لم تتحرك من مكانها ، فتناول يدها وراح يضغط بأصابعها عضلاته ..



وما لبثت أن جذبت يدها وهى تقول : « انها ذراع من حديد ! ولكن العضلات ليست هى الصحة بالمعنى الدقيق .. أليس كذلك ؟ » .. فأجاب : « لا ، بالطبع .. ولكن هل رأيت قط رجلا يفوقنى فى وفرة الصحة ؟! »

وكان يقف بجانبها ، مشرقا ، منتصب القامة ، وقد شعث النسيم شعره الأشقر القصير ، وتألقت عيناه المشبوبتا النظرات — سعادة وهناء .. فبدا بالفعل كاله شاب للصحة والعافية ! ولاح أصغر سنا مما كان حقيقة ! .. فقالت : « آه ! لا انك تبدو على ما يرام .. تماما مثل كثير من الرجال الذين يمارسون الرياضة ويحتفظون بصحتهم » .. فضحك قائلا :

« انك تأبين على المديح الذى أنشده ! .. انظرى الى هذه الصنادل الكبيرة المحملة بالفخار ! ان كل هذه الآلاف من الزهريات الصغيرة ـ أو القلل كما يسميها الوطنيون ـ قد صنعت فى (قنا) . وقد رأيت الرجال يصنعونها ، بل والأولاد أيضا .. ورأيت الصلصال الطرى يدور ويدور حول الأصابع السمراء التى تشكل الفوهة .. آه ما أجمل أن يرى المرء الحياة على جانبى النهر .. ففى كل يوم شىء جديد ، شىء مشوق يثير الاهتمام دائما .. تلك الانسانية وهى تكد وتكدح تحت أشعة الشمس ، وفى الهواء الطلق ! .. **منذا الذى لا يفضل أن يكون فلاحا هنا على أن يكون صانعا فى مدينة انجليزية ؟ .. وها هى ذى الشواديف ! لسوف نراها على طول الطريق الى جنوب النيل ، وسنسمع أناشيد الشادوف القديمة ، التى يهزج بها الفلاحون ، وكأنها تنبعث من تلك الأيام التى كانوا ينحتون فيها أبا الهول فى الصخرة الحية ! .. وسنسمع ذلك الترنيم الوسنان للسواقى ، التى تدور بها الثيران الناعسة حول نفسها فى أشعة الشمس .. وسنرى النساء قادمات صفوفا من القرى الداخلية ، وجرار الماء تستقر فى اتزان عجيب فوق رؤوسهن ..** الا ليتنا نعود الى تلك الأيام التى لم تكن توجد فيها تلك المراكب البخارية ، لنرى النيل أشبه بحلم أبدى ! ولكن لا بأس ! .. على الأقل قد رفضنا جرار بارودى البخارى (اللنش) ، ومن ثم فسنمضى فى رحلتنا مع الرياح ، واذا سكنت الرياح فمع دفعات المدارى القوية اذا لم نرس عند الشاطىء ـ فهذه هى الطريقة الفريدة للسفر على النيل . ولكن بارودى طبعا يستخدم الذهبية كما يستخدم المرء قطار السكك الحديدية فى انجاز أعماله ! »

وكف عن الحديث بغتة ، وكأنما تحول تفكيره نحو مجرى جديد . ثم قال : « أليس من العجيب أن نقيم ـ أنت وأنا ـ فى مركب بارودى ، فى حين اننا لم نره قط مرة ثانية منذ اليوم الذى دعانا فيه لتناول الشاى فوقها ؟ .. لقد خطر ببالي .. »

وأمسك ، فهتفت : « ماذا ؟ »

ــ لقد خطر ببالى انه قد يأتى بالقطار لتوديعنا عند بدء رحلتنــا .

ــ ولماذا يفعل ؟

ــ لم يكن ذلك ضروريا بالطبع ، ومع ذلك فانه كان مظهرا من مظاهر الكياسة بالنسبه اليت

ــ آه ! .. أحسب انه كلما تناقصت مظاهر الكياسة التى تتلقاها الأوروبيات من هؤلاء الشرقيين كان ذلك أفضل !

ــ انك تفكرين فى تلك المرأة الالمانيــــة الفظيعة التى فى (الفيوم) .. ولكن بارودى يلقى تقديرا كبيرا من الانجليز فى مصر ، وقد تبينت ذلك فى القاهرة ، عندما تركتك ومررت بها فى طريقى الى الفيوم .. وهو ينال من الاعتبار فوق ما يحظى به رجل مصرى . فكل انسان يبدو على استعداد لأن يسدى اليه صنيعا ، وهذا هو بعض السبب فيما يلقاه من نجاح فى كل عمل يضطلع به !

ــ أعتقد انه رجل لا بأس به .. ومهما يكن من أمر ففى وسعى ، ما دمنا قد ظفرنا بمركبه الجميلة ــ ان أستغنى عنه وعن كياسته تماما ! .. أين نرسو الليلة ، ومتى ؟

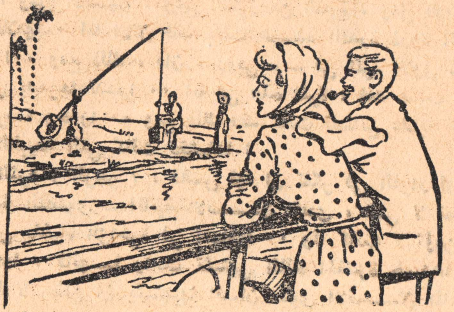
ــ عندما يخيم الظلام ، أما المكان فان « الريس » هو الذى يعرفه . أليس رائعا ان يكون المرء بملء حريته واستقلاله ؟.. أننا نستطيع أن نرسو حيث نحب ونشاء ، فى الأماكن المنعزلة، حيث لا يوجد سياح يزعجوننا !

فقالت وهى تردد صدى تحمسه ، بينما كانت تنظر اليه بعينين تفيضان ابتساما : « أجل .. لنتحاشى السياح ونلق مرسانا فى الأماكن المنعزلة .. أما الآن ، فسوف أهبط الى الطابق الأسفل » .. فتساءل : « لماذا ؟ .. ماذا تراك فاعلة هناك ؟ .. ان الشمس موشكة على الغـــروب ، وينبغى أن نشهد الشفق معا على اللولية للمرة الأولى ! » .. فقالت :

« نادنى اذن عند ما يحين وقته .. ولكنى ذاهبة لأتلقى درسا فى صنع القهوة ، كما يصنعونها هنا .. فكم يسرنى ان أعد قهوتنا بنفسى بعد الغداء ، فضلا عن انه أمر أستطيع ان أشغل نفسى به .. اننى أريد أن أولى كل شىء اهتماما .. كل هذه التوافه فى حياتنا الجديدة العجيبة ! » .. فألقى ذراعه على كتفيها وقال: « بديع ! » .. وضغط بيده على بدنها ، واستطرد قائلا : « ولكن .. يجب أن تأتى لتشهدى الشفق ! » ، فقالت : « نادنى ، وسوف أحضر ! »

وفيما كانت تهبط الدرج ، انحنى نيجل فوق السياج ، يسألها : « ومن الذى سيلقنك درسك فى صنع القهوة ؟ » .. فأجابت : « انه حمزة ! » .. ثم اختفت عن نظره

الفصل السادس والعشرون



◆ « اننا على طول الطريق الى جنوب النيل سنسمع اناشيد الشادوف القديمة » .. هكذا قال لها نيجل ، عندما نشرت « اللولية » قلوعها وابحرت من (قنا) !

وكانت مسز ارماين ، وهى تنزل الى حيث تلقى حمزة ، تسمع اصوات الرجال المرتفعة ، وهى تنشد بجوار الشواديف .. كانت تنبعث من كلتا

صفتى النيل : قوية رنانة من الضفة الشرقية ، وخافتة بعيدة من الضفة الغربية ، ثم لا يلبث ان يغمرهما معا ذلك الفيض الذهبى المنهمر من الشمس الغاربة .. ومع ذلك فقد كانت كل الاصوات - حتى هذه الاصوات البعيدة - تتناهى الى سمعها عاليا ، وكأن فى خفوتها قوة وعنفا !.. وذكرت صوت ذلك الفلاح الذى كان يصيح بها فى بساتين البرتقال ، وكيف فكرت لحظة فى الفرار قبل أن تجد نفسها حبيسة ما شاهدته !.. كما انها الآن فى سجن آخر !.. وحتى اذ ذاك ، فقد أطبقت عليها أيد قاسية لا تلين ، وكانت صيحة الفلاح الاخيرة تتهدج فى انتصار وحشى .. ولقد ذكرت « عايدة » فى ذلك اليوم ، كما عادت تذكرها الآن !.. لقد كانت تعتقد - وهى بعد فى ميعة الصبا - ان العاطفة التى دمرتها انما كانت أعتى عاطفة فى حياتها .. كانت لوثة أصابت أحاسيسها ، وهذيان حمى اجتاحت جسدها .. وكانت تخال ان هذه الفورة لن تتكرر مع شخص آخر !.. ولكن ما أقل ما كانت تعرفه عن نفسها أو عن الحياة ! وما أقل ما كانت تعرفه عن ضراوة القوى المضطرمة فى سن النضوج !.. ان تلك العاطفة التى مرت بها فى أيام شبابها لأشبه بشبح هزيل اذا قيست بهذا الذئب الكاسر الذى أضحى يحيا بين جوانحها الآن !.. انها فى تلك الايام - أيام الشباب - لم تكن قد استكملت قدرتها على الشعور ، وعلى الاشتهاء ، وعلى التقزز من الغيرة ، وعلى الاختبال ازاء أى وهم يهدد أحلامها . أما الآن فقد بلغت هذه القدرة ذروة النمو ، وغدت عملاقا رهيبا !.. ومع ذلك ، فان « روبى » - فى المرة الاولى - تركت ذلك الشبح الهزيل يدمرها تدميرا .. أما فى هذه المرة ، فقد عقدت العزم على ان تكون أشد حرصا وحذرا .. ومع ذلك فقد كانت تعانى عذابا أليما من جراء طبيعتها .. الطبيعة التى كانت تخشاها !

لقد رمت النرد (الزهر) ، فليس لها ان تفكر فى الفرار أو المقاومة . وكانت الأنانية القصوى - أنانية الانسان المادى ، التى لا تماثلها انانية أخرى - تنبض بالحياة الزاخرة فى أعماقها .. ولما كانت لا تؤمن بأية حياة مستقبلة لروحها ، فانها راحت تشتهى اللذة الحاضرة لجسدها الصاخب الصياح ، كما لا يمكن ان يشتهيها انسان سوى الانسان المادى المفرط ! وكانت تعتقد انها لن تفوز بشىء البتة ، اذا فشلت فى الظفر بما تتوق اليه وهى محتفظة بوهج أيامها الذهبية . اذ ان كل شىء لن يلبث ان ينتهى بالنسبة اليها ، وستفغر الهوة السوداء فاها لتتلقاها ، فلا تلبث ان تتلاشى فيها الى الأبد !

كانت امرأة قانطة يائسة تحت قناع من الهدوء البسام ، عندما نشرت « اللولية » أشرعتها وانسابت على صفحة الماء ، فى المساء الذهبى !.. على ان

مسز ارماين لم تكد تهبط الدرجات القلائل ، وتنتهى الى تلك المقصورة الجميلة التى اتخذتها مخدعا لها ، حتى خامرها نوع من الارتياح كاد أن يكون جذلا وغبطة ، اذ بعث فيها ما توفر فى « اللولية » من وسائل الراحة والرفاهية ، شجاعة وقوة ، فاذا بها تغدو قادرة على التطلع الى المستقبل فى امل ورجاء ، واذا نفسها تهر راضية مرضية ، كهرير القط الشابع الهانىء !٠٠وسارت فى الممر الى حجرة النافورة والكرة المذهبة ، ولكن النافورة لم تكن تعمل فى ذلك اليوم ، وكانت الكرة الصغيرة تطفو فوق سطح الماء فى الحوض الرخامى (الفسقية) وكأنها كائن فقد الحياة !٠٠ وخامر مسز ارماين شعور طفيف من خيبة الامل ، ولكنها ما لبثت أن تذكرت انهم كانوا يمخرون عباب النهر ، ولعل النافورة لا تعمل الا اذا كانت « الدهبية » واقفة ٠ وكان الوحش الفظيع ـ الذى يشبه تنينا له رأس كلب ، والذى راته فى زيارتها الاولى ـ يتطلع نحوها من فوق الرف الذى كان يستقر فوقه ، فاحست كانه يحييها ويرحب بمقدمها !٠٠ وكانت حواجز « المشربية » مسدلة فوق النوافذ ، ولكن البابين المنزلقين المؤديين الى الشرفة كانا مفتوحين ، يفسحان الطريق لضوء المساء وخرير الماء والاصوات الاخرى على طول ضفتى النهر

واتخذت مسز ارماين مجلسها فوق الاريكة ، وفى اللحظة التالية مباشرة لحق بها حمزة ٠٠ فقالت له فى صوتها البطىء المتراخى : « هل سترينى كيف تصنع القهوة التركية يا حمزة ؟ » ٠ فأجاب : « اجل » ٠٠ وعادت تسأله : « واين نصنعها ؟ » ٠٠ فاشار الى الشرفة المرتفعة فى مؤخرة « الدهبية » وقال : « هناك » ٠٠ وتجلى عليها الامتعاض ، ولكنها نهضت من مكانها فى بطء وتبعته الى الخارج ٠٠ وكانت المظلة قد نشرت بحيث تخفى السطح العلوى للدهبية عن العيان ، فلما رات ذلك ، انجابت سحب الامتعاض عن وجهها ، وجلست لتتلقى درسها ، وقد لاحت فى عينيها وحول شفتيها لمحة مشرقة من اللهفة والانتباه البالغين !٠٠ وكان حمزة قد احضر موقدا من النحاس بقوائم من الحديد ، تحميه من الريح ستار من قماش الاشرعة ، وقد وضعت على الخشب المصقول ـ ملاصقة له ـ آنية براقة بيد من خشب ، تحوى بعض الماء ، ووعاء من النحاس به البن الطازج المحمص والمطحون ، و « كنكتان » صغيرتان من النحاس الاحمر بيدين طويلتين ، وقدحان للقهوة ، واناء صغير به السكر الناعم ، وبعض لفافات الورق التى تحوى عيدان المصطكى (المستكة) والعنبر وحب الهال (الحبهان) ٠٠ فما كادت مسز ارماين تجلس بجوار الموقد ، حتى شرع حمزة ـ الذى بدا من أساريره كما لو كان وحيدا ـ يؤدى مهمته فى بطء وتأنق ، ودقة تثير الاعجاب ٠ فقد جلس القرفصاء وهو يثنى ساقيه السمراوين الطويلتين تحت جسده الشبيه بعصا من الغاب ، ثم

صب الماء فى احدى (الكنكتين) النحاسيتين ، ووضعها فوق الموقد ، ثم استغرق فى حلم عميق ، وقد استقرت عيناه المليئتان بالاسرار والالغاز - واللتان كانتا تستوعبان كل شيء ولا تعكسان شيئا - على الجمر المتقد .. وكانت مسز ارماين تجلس بلا حراك وهى ترقبه ، ولكنه لم ينظر نحوها قط .. كان فى شرود ذهنه وجمود وجهه اشبه بالحيوان !.. وبعد قليل صدرت عن (الكنكة) همهمة خافتة ، وعندئذ مد حمزة يده اليها فرفعها من فوق الموقد ، وتناول وعاء البن من فوق الارض ، ووضع بعضا منه فى الماء ،وراح يقلبه بملعقة من الفضة كان قد اخرجها من بين طيات منشفة من التيل مطفقة فى عناية ، ثم وضع « الكنكة » ثانية فوق الموقد . وفتح - بعد ذلك - لفافة الورق التى كانت تحوى العنبر ، فوضع مقدار قراط منه فى « الكنكة » الثانية ، ثم وضعها هى الاخرى فوق الموقد .. وبدات القهوة تغلى ، فاشعل عودا من المصطكى و (بخر) بدخانه قدحى القهوة الصغيرين ، ثم تناول « الكنكة » الاولى فصب ما فيها من القهوة الشدية فى « الكنكة » الثانية التى تحوى العنبر الذائب ، وتركها تغلى قليلا حتى فارت ، وما لبث ان صبها فى القدحين ، فبدا سطحها دسما كالقشدة ، وانبعث منها ، مع رائحة القهوة الزكية الساخنة ، رائحة العنبر المثيرة !.. واضاف اليها قليلا من حب الهال، واخيرا رفع بصره متطلعا الى مسز ارماين ، فقالت : « هل تم صنعها ؟ اذن.. اذن ، هل اضع السكر فيها ؟ » .. فاجابها وهو يحدجها بنظرات ثابتة : « نعم » .

ومدت يدها ، ولكنها لم تبلغ وعاء السكر .. اذ انبعث - وهى تفعل ذلك - صوت من فوق راسيهما يهتف : « روبى ! روبى ! » .. فاجابته قائلة : « اهبط الى هنا ! » .

- ولكنى اريدك على ان تصعدى لترى الغروب والشفق معى

فعادت تناديه : « اهبط الى هنا اولا » . فهتف : « حسنا » .. وكان اعداد القهوة قد تم ، فنهض حمزة من جلسته المريحة ، ورفع الموقد ومضى مبتعدا فى خفة ، وهو يحمله فى يسر وقلة اكتراث ، كما لو انه كان مصنوعا من ورق الكرتون ، وليس له وزن يذكر .. وبعد لحظة كان نجل يفد على حجرة النافورة المعتمة ، وهو يصيح : « أين أنت ؟.. آه ! هناك ! يجب الا يفوتنا اول غروب للشمس نشهده معا ! » .. فقالت وهى تبتسم : « القهوة ! » . فخرج الى الشرفة ، وعندئذ قدمت له احد القدحين الصغيرين.. فسالها : « هل صنعتها بنفسك ؟ » .. فاجابت : « لا ، ولكنى ساصنعها غدا .. لقد أرانى حمزة كيف تصنع ! » .. فتناول القدح ، وما لبث ان قال : « ان لها عبرا زكيا ، مثيرا كعطور الجنة ! . لابد انك أنت التى صنعتها ! » .. فقالت فى رقة بالغة : « اشربها اذن وانت على هذا الاعتقاد،



ايها الانسان المضحك ! »

فراح يرشف من قدحه ، وحدت حذوه . وما لبث ان هتف : « عظيمة ، عظيمة جدا .. ولكن ما الذى وضع فيها ليكسبها هذه النكهة اللذيذة الخاصة يا روبى ؟ » .. فاجابت : « آه ! هذا هو سرى ! » .. ومضت ترشف قدحها الصغير ، ثم قالت : « انها بديعة بدرجة تفوق التصور ! » .. واشارت الى لفافات الورق التى لم يرفعها حمزة بعد ، واستطردت : « ان اعدادها يكاد يشبه بعض الطقوس المقدسة ! فنحن نضع القليل من هذه اللفافة ، والقليل من تلك .. ثم نعرض الاقداح لشذى عود مشتعل من اعواد المصطكى هذه.. وأخيرا جدا ، عندما تفور القهوة وتزبد ، ننثر عليها السكر الناعم .. وهذه هى النتيجة ! » .. فقال بارتياح : « بديعة جدا ! »

ثم وضع قدحه فارغا ، وقال وهو يشير خلال السياج الى الامواج الصفراء وهى تتراجع خلفهم : « آه ! انظرى الى هذا الضياء ! هل فرغت ؟ » . فاجابت : « تماما » . واذ ذاك قال : « اذن فهيا بنا الى السطح .. ايتها القهوجية ! » .. وكانا وحيدين تماما ، فاحاطها بذراعه ، اذ وقفا ، وقال : « كل ما تمنحينيه يبدو مختلفا عن غيره من الاشياء .. مختلفا ، وافضل بكثير ! » .. فقالت : « ذلك لان مخيلتك رفيقة بى .. رفيقة بى أكثر مما ينبغى ، فانت مجنون بى ! » .. فهتف : « هل انا كذلك حقا ؟ » .. وراح يحدق النظر فى عينيها ، وغدت عيناه الحانيتان الشغوفتان ثاقبتين لحظة ،وهو يقول : « وانت يا روبى ؟ » .. فتساءلت : « انا ؟ » .. وتابع حديثه قائلا: « افيمكن ان تجنى بى يوما ما ؟ »

وبدا مرحه برهة وقد حجبته غمامة رقيقة زاحفة من الشك والارتياب ، وكأنما كان نيجل يقارن حالة قلبها بحالة قلبه ، وكما لو ان هذه المقارنة كانت قد بدأت - بدأت فقط ! - تقلقه وتكربه على نحو مبهم !.. وادركت ما كان يحس به وقتئذ ، فمالت عليه ، وجعلت بدنها يسترخى قليلا فى وهن ،

ثم قالت : « لست أريد ذلك » . فتساءل : « ولم لا ؟ » . وكانت الغمامة قد شرعت تتبدد . بينما اجابت روبى : « لانني لا أريد أن أتألم .. أريد أن أكون سعيدة فى هذه الفترة القصيرة التى بقيت لى كى أسعد ! »

– ولماذا تقولين « الفترة القصيرة » ؟

– انني لم أعد شابة بعد .. وقد عانيت الكفاية فى حياتى !

– ولكن معى ؟ كيف يمكن ان تعانى معى ؟.. الا تثقين بى ثقة كاملة حتى الان ؟

– ليس الامر كذلك ، ولكن .. من الخطر على اية امرأة أن تجن باى رجل! .. فمن الحماقة ان يفرط الانسان فى حبه !

وكانت تتكلم فى صدق واخلاص لا يخطئهما الفهم .. فقد كانت تفكر فى بارودى ! وقال نيجل : « فى بعض الاحيان فقط .. عندما يحب المرء شخصا متخاذلا او غير مخلص . اما نحن .. فلسنا فى حاجة الى ان نحسب الثمن ، ونتردد ! » .. وانفرجت شفتاها تهمان بالاجابة ، ولكنها تركته يغلقهما !.. وفيما كان يقبلها ، راحت تصغى الى أصوات رجال الشواديف المنبعثة دواما من ضفتى النهر .. وكانت هذه الاصوات قد ازدادت ارتفاعا وهما على السطح العلوى . وكان الغروب فى تلك الأمسية ذا شفق فى لون الذهب الخالص ، وقد ابت السماء الصافية – كما كانت تبدو – ان تحمل لونا غير لون الذهب، كما اعرضت التلال عن ان تتلقى منحة أخرى غير منحة من الذهب !..وهكذا امتدت أمام مسز ارماين مشـاهد مختلفة – كلها من الذهب – تكاد ان تكون وحشية .. وكانت الاصوات تصيح من خـلال الذهب ، منبعثة من الضفتين اللتين كانتا تتحولان الى سواد .. فالذهب فى مصر دائما يسلم المراكب فى النيل – كما يسلم ضفتى النهر ، واشجار النخيل التى تتوجهمـا احيانا ، ومساكن القرى الوطنية – الى سواد !.. وهكذا كان الشأن هذا المساء . الا ان نيجل لم ير ولم يفكر الا فى الذهب وحده .. اذ قال : « ها نحن اخيرا نبحر فى غمرة الذهب .. وهذا يذكرنى الآن بصورة احبها ، ويجعلنى افكر فيها » .. فتساءلت : « اية صورة ؟ » . واجاب : « صورة رسمتها ريشـة « وات » ، وتسمى « التقدم » ، فان فيها تالقا رائعا .. واذكر اننى كنت أتحدث عنها الى ماير ايزاكسون فى الليلة التى قدمته اليك فيها »

وكانت تقف متكئة الى السياج ، فى الجانب الأيمن من السفينة . فما ان سمعت ذلك ، حتى رفعت ذراعيها عن السياج ، ووقفت منتصبة القامة لحظة، ثم جلست على مقعد من القش المجـدول على هيئة خلية النحـل ، وارتكزت بظهرها الى مسند المقعد الذى كان يئز تحتها وكانه يحتج عليها .. وقالت : « الى ماير ايزاكسون ؟.. وما الذى قلته عنها ؟ .. » .. فاستدار نحوها ،

واستند الى السياج ، ثم اخذ ينظر اليها وقد توارت قليلا فى جلستها ، وقال : « كنا نتكلم عن التقدم ٠٠ فان تلك الصورة ليست الا رمزا ، بطبيعة الحال ٠٠ رمزا للتقدم الروحى للعالم ، ولكل واحد منا ! وأذكر اننى اخبرت ايزاكسون كيف اننى اومن ايمانا راسخا بانتصار الخير فى العالم ، وفى الفرد ! » ٠٠ فتساءلت : « وماذا قال ؟ » ٠٠ فأجاب : « ايزاكسون ؟٠٠ لست اقطع بانه اقتنع بوجهة نظرى تماما »

ـ انه فى رايى رجل متشكك شديد الارتياب الى حد ما !

ـ ربما كان يريد دليلا أكثر رسوخا من الذى أريده ٠٠ دليلا يمكنك ان تشيرى اليه وتقولى : « اسمع ! اننى اعتمد على هذا دليلا لى ! »

ـ انه اضيق منك افقا وأشد تزمتا ٠٠ بكثير !

ـ آه يا روبى !٠٠ لست أعلم عنه هذا !

ـ بل ، انه لكذلك ٠٠ فهو رجل رائع الحذق ، يثير الاهتمام الى حد بعيد ٠٠ ولكنه ، ولعل ذلك لم يخطر بباله ، ضيق الأفق ، شديد التزمت ٠٠ انه يرى الامور ببصيرة نفاذة خارقة ، ولكن فى حيز ضيق جدا !٠٠ وهو لا يحب ان يؤمن بوجود شىء هام ، مادام هذا الشىء لا يقع فى مجال رؤيته ! ولكنك لست من ذلك فى شىء

ـ انه يفوقنى ذكاء وحذقا ألف مرة !

ـ نعم ٠٠ انه من الحذق والذكاء بحيث لا يطمئن الى شىء ، ولا يثق فى احد ٠٠ فهو مثلا لايمكن مطلقا ان يثق فى امراة مثلى !

فهم نيجل بالاحتجاج فى حمية وتوفز ، هاتفا : « اوه يا روبى ! » ٠٠ ولكنها قاطعته بهدوء ، قائلة : « اجل ٠٠ انه لا يثق البتة بى ، وسيظل الى نهاية العمر يحكم على بالماضى ٠٠ انه خليق بأن يلصق بى بطاقة يكتب عليها : « احذروا هذه المراة ! » ٠٠ وان أشد أعمالى براءة ، وأعظم محاولاتى الذاتية للاعراب عن حقيقة نفسى وما فيها من خير وطيبة ، لن تقابل منه ـ رغم ذكائه ـ الا باساءة التأويل !٠٠ صدقنى يا نيجل ، فنحن النساء ندرك هذه الامور ! » ٠٠ فتساءل : « اذن ، فلا بد انك تبغضين ايزاكسون أشد البغض ؟! »

ـ بالعكس ٠٠ اننى أحبه ! ـ لست افهم

ـ اننى لا انشد فيه شيئا من الاشياء السامية التى ٠٠ حسنا ٠٠ التى انشدها فيك ، لاننى لا أستطيع البتة ان أحفل به ٠٠ ولو قدر له ان يخادعنى ، بل لو عن له ان يبغضنى أكثر مما يفعل ألف مرة ، لما ساءنى ذلك ، لاننى لا أملك ان أحفل به قط ! »

فهتف قائلا : « افتظنين ان ايزاكسون يكرهك ؟ » ٠٠ وكان قد نسى ذهب

الشمس الغاربة ، وذهب النهر السائل ، ولم يعد يرى غيرها ، أو يفكر الا فيما كانت تقوله او تفكر فيه .. وناشدته قائلة : « اصدقنى القول يا نيجل :هل تظنه يحبنى ؟ » .. فأجاب : « انه لا يعـرفك .. ولو عرفك ... » . فقاطعته : « لو عرفنى لما غير ذلك من الامر شيئا ! » .. ولكنه قال معارضا : « بل احسبه يغيره .. كل التغيير ! » .. وابتسمت وهى تهز رأسـها ، وقالت : « سأظل دائما احمل بطاقتى : « احذروا هذه المرأة » ! .. ولكن ماذا يهمنى ؟ اننى لست متزوجة منه ، ولو اننى كنت زوجته .. آه ! اذن لكنت أتعس امرأة على وجه الارض .. الآن ! » . فجلس بالقرب منها على مقعد آخر من القش ، وسـألها : « روبى .. لماذا قلت « الآن » بهـذه اللهجة ؟ » .. فأجابت بلهجة فيها تلطف بدا متكلفا : « آه ! لاننى اعيش الآن فى جو خلو من عدم الثقة ، مما افسدنى تماما ! »

واحس بأن فى أعماقه وهجا قويا ذهبيا ، كوهج الشمس فى الغروب .. لقد نسيت أخيرا موقفهما الاليم فى الحديقة !.. لقد ظل يناضل لـكى ينسى قلبها هذا المشهد ، حتى نجح .. وقال بتلك البسـاطة الباردة التى يتميز بها الرجل الانجليزى : « اننى مسرور .. مسرور . ليت ايزاكسون يعرف !» .. فأحست بأنها تعبس ، وان لم تختلج عضلة واحدة فى جبينها . بينمـا استأنف نيجل حديثه قائلا : « اننى لم أخبرك .. لقد كتبت الى ايزاكسون منذ ايام » .. فهتفت : « هل فعلت حقا ؟ » .. والتقت يداها فى حجرها ، فتماسكت أصابعهما !

ـ أجل ، لقد ارسلت اليه خطابا حافلا .. واخبرته باننا سنقوم برحلةالى جنوب النيـــل ، فى مركب بارودى .. وكيف انك تلوحين فى ابدع حال ، وكيف اننـــا نعيش فى فيض غزير من السعادة ! كما أخبرته باننا سنتحاشى السياح جميعا ، ونعيش لنفسينا فى الاماكن الهادئة التى لا توجد بها سفن ولا « دهبيات » اخرى .. واخبرته كذلك كيف اننى أتمتع بصحة هائلة !

ـ آه ! أحسبك كتبت له ذلك بوصفه طبيبا عظيما !

وافترقت اصابعها ، وتشبثت بمسندى المقعد ، بينمـا كان نيجل يقول : « كلا ، ولكنى وجدت نفسى منطلقا ، ميالا للثرثرة ، عندما كنت أكتب اليه ، فذكرت ذلك مع غيره ! » .. فتساءلت : « وماذا كان غيره ؟ » . ومالت الى الامام قليلا ، وكأنها تريد ان تشهد الغروب بوضوح أكثر ، ولكنها ما لبثت ان راحت تتطلع اليه ، وهو يقول مجيبا : « آه ، لقد افهمته حقيقة مابينك وبينى ، وتحدثت اليـه عن الدهبية ، وانها عجيبة من العجـائب .. وعن بارودى ، وكيف نجح ابراهيم فى اقناع بارودى بفكرة تأجيرها لنـا » .. فتمتمت : « هو ذلك ! » .. واذ ذاك قال : « ما أكثر صرير هذه المقاعد !..

ان مقعدك يرسل صريرا منتظما ! » .. فنهضت من مجلسها ، فسألها : « ما اراك ستهبطين ؟! »
ـ كلا .. لنتمش قليلا ! ـ كما تشائين
وانضم اليها ، فشرعا يتمشيان فى بطء ذهابا وجيئة ، بينما اخذ الذهب يخبو فى السماء ، ويخبو فوق النهر .. وأخلدت الى الصمت ، ولعلها أوحت اليه برغبتها فى السكون ، لانه لم ينبس بكلمة حتى اختفى الغسق ، وبدا عالم الماء ، والسهول الخضراء ، والصحراء ، والتلال الجرداء ، شاحبة باهتة فى تلك الآونة التى تسبق ظهور الشفق الاحمر .. واخيرا قال : « ماذا بك يا روبى ؟ ما الذى تفكرين فيه بهذا الاهتمام ؟ » .. فقالت : « لست ادرى » ، ثم نظرت اليه فى امعان ، وبدا عليها انها حزمت امرها ، ثم قالت : « أجل ، اننى افكر جديا »
ـ هل قلت شيئا أغضبك ؟.. هل تكدرت من كتابتى لايزاكسون وحديثى له عن سعادتنا ؟
ـ كلا ، لم أغضب لذلك .. ولكنه يذهب بروعتها بعض الشىء ، بطريقة ما، فيما يبدو لى !.. ولكن ، ان الرجال لا يفهمون مثل هذه الاشياء ، ولذلك فمن العبث التحدث عنها !
ـ ولكنى أحب ان افهم كل شىء .. ان ايزاكسون صديقى ، كما ترين.. افليس من الطبيعى ان اطلعه على ما نحن فيه من سعادة ؟
ـ آه ، بلى .. أظن ذلك .. لا بأس يا نيجل ، فماذا فى ذلك ؟
ـ هل كرهت كتابتى اليه ؟
ـ اننى حمقاء يا نيجل .. هذه هى الحقيقة ! اننى خائفة من كل شىء ، ومن كل انسان !
ـ خائفة ؟.. انك يقينا لست خائفة من ايزاكسون ؟
ـ بل أؤكد لك اننى خائفة من كل انسان !

★ ★ ★

◆ ووقفت بجوار السياج ، وراحت تنظر ناحية الغرب ، واستطردت تقول : « ان السعادة بالنسبة لى تبدو شيئا هشا فى وسع كل امرىء ان يحطمه .. وللرجال ـ ومعذرة لهذا القول ـ ايد غليظة عادة ! » . فاتكأ على السياج بجوارها ، وهو يستدير بكليته نحوها ، وقال : « ما احسبك تعنين انك تظنين ايزاكسون قادرا على ان يحطم سعادتنا يوما ، حتى ولو اراد ؟ »
ـ ولم لا ؟ ـ الا تفهميننى البتة ؟
وكان صوته يتهدج فى تاثر عميق ، وهو يتابع كلامه ، قائلا : « اتظنين ان

اى رجل أوتى ذرة من الرجولة يسمح لأحد - ولو كان أعز أصدقائه - بأن يتدخل بينه وبين المرأة التى أحبها والتى اصبحت زوجة له ؟.. هل تظنين اننى يمكن ان أسمح لأى انسان - رجلا كان أو امرأة - بأن يتدخل بينك وبينى ؟ » . فتساءلت : « هل أنت موقن بأنك لن تفعل ؟ » .. فأجاب بشيء من الحدة : « اية مأساة فى ان يفقد المرء الثقة بالحب ، كما تفعلين ! » .. فقالت : « انك لم تجرب الحياة التى عشتها أنا ! » .. وكانت هى الاخرى تتكلم فى حدة ، كما تجلى فى عينيها عنف وهى تستطرد : « انك لم تعش اعواما برمتها محوطا بالغبن والازدراء .. بل ان صديقك الدكتور ايزاكسون يحتقرنى فى اعماق سريرته !.. اننى أعرف ذلك ، ولست ازعم ان لدى سببا حقيقيا لهذه العقيدة .. سببا يمكن أن يجد اذنا واعية من الرجل .. ولكن النساء لا يحتجن لمثل هذه الاسباب لتبرير هواجسهن ! »

- ومع ذلك فانك تقولين انك تميلين الى ايزاكسون ؟!

- اننى أميل اليه حقا ، الى حد ما .. أو على الاقل هذا ماكنت أظنه ، حتى أخبرتنى بأنك كتبت اليه لتحدثه عنا وعن حياتنا على النيل

فقال وهو يزداد منها دنوا : « آه ، اننى لن أفهم النساء قط .. يا له من سبب للكراهية نحو رجل يبعد عنا مئات الاميال ! » .. فهتفت : « مئات الاميال ؟ نعم ! وماذا لو دفعه خطابك الى الحضور الينا ؟.. هب انه استقر فى رأسه ان يسرع ليرى بنفسه ما اذا كان ما كتبته اليه صحيحا ! »

- روبى ! ما اشد ضراوتك فى افتراضاتك هذه !

- انها ليست ضارية بالقدر الذى تظنه .. فالدكتور ايزاكسون هو بالذات الرجل الخليق بأن يفعل مثل هذا الشيء !

فقال : « حسنا .. وحتى لو فعل ؟ » .. فقاطعته قائلة « أتود ان يفعل ؟ » .. فتردد لحظة ، ولم يجب ، فعادت تقول : « انك تريده على أن يفعل حقا ! » .. قالت ذلك فى مرارة ، ثم أضافت هاتفة : « لقد كنت أظننى كافية لك ! »

- ليس الامر كذلك يا روبى .. انه ليس كذلك على الاطلاق ، ولكنى أعترف باننى أود فعلا ان يرى ايزاكسون بنفسه مبلغ ما نجده من السعادة معا !

- هل قلت ذلك فى خطابك ؟

- كلا ، لم أقل عنه كلمة ، ولكنى فكرت فيه مليا عندما كنت أكتب .. ألم يكن ذلك التفكير أمرا طبيعيا ؟.. لقد كان ايزاكسون مستودع أسرارى تقريبا - وليس تماما ، اذ لم يكن ثمة انسان يلم بأسرارى كلها - فيما يتعلق بشعورى ونواياى نحوك قبل زواجنا !

- ومع ذلك فلو انه استطاع أن يمنع هذا الزواج ، لمنعه فعلا !

ـ أولهذا السبب ، اذا صح ، لا تحبين ان يرى بنفسه سعادتنا سويا ؟
ـ لست اريده هنا .. ولست اريد أى انسـان ، فانني احس بانه قد يحاول ان يفرق بيننا ، حتى فى سعادتنا الراهنة !
ـ له ان يحاول ذلك الى يوم القيامة ، فلن يلقى ذرة من النجاح .. ولكنك لست منصفة له !
ـ وهو لن يكون منصفا لى يوما من الايام .. آه ! ها هو ذا الشفق يأتى اخيرا !

وراحا يرقبان الشفق فى صمت وهو ينشر سحره على التلال الغربية ،وعلى السماء الخالية من السحب ، ناحية الغرب .. كان يوحى بالسلام وبالعزلة النائية ، وكان يوحى بالاشـياء التى صفت ورقت ، والتى تطهرت ، والتى تحولت الى نقاء عجيب ، ولكنه ليس نقاء جامدا باردا !.. فلما لفظ الشفق انفاسه الاخيرة بين احضان الليل الذى اقبل يمشى على استحياء ، احس نيجل كانه قد طهره هو الآخر من اختلاط مشاعره وافكاره ، وكان الامور قد استقامت فيما بينه وبين نفسه .. وقال : « ان هذا يجعلنى احس كاننى فهمت كل شىء للحظة واحدة .. روبى ! لا تدعينا نتعرض لشىء من المصاعب ، او نثير لأنفسنا شيئا من المصاعب هنا .. ان لدينا فرصة ذهبية للسلام .. اليس كذلك ؟.. ولسوف نكون اسوأ من المجانين اذا لم نغتنم هذه الفرصة لأنفسنا .. ولكننا سنغتنمهـا ! اننى افهم ان حياتك الماضـية قد جعلتك ترتابين فى الناس ، واعتقد اننى افهم مخاوفك حق الفهم كذلك .. ولكنها الآن ـ فيما يختص بى ـ لا تنهض على اساس ، فما من انسان فوق البسيطة يستطيع ان يتدخل بيننا يوما ما .. ان شخصا واحدا فقط هو الذى يستطيع ان يحطم اتحادنا !

فتساءلت : « من ؟ » .. وكان جوابه : « انت نفسك !.. صه ! لقـد بدا الملاحون فى الغناء ، واعتقد اننا سنرسو عند البر ! »

★ ★ ★

◆ وفى تلك الليلة ، بينما كانت مسز ارماين ترقد يقظى فى القمرة التى كانت مخدع بارودى ، والتى كانت ـ على نقيض سـائر قمرات النوم فى « اللولية » ـ قاتمـة الالوان تتميز بطابعهـا الشرقى .. وراحت تفكر فى الحديث الذى جرى قبيل الغروب ، فتبينت انها ينبغى ان تمسك اعصابهـا بقبضة من حديد ، وان تقيم حارسا قويا على طباعها الحادة . اذ انها ـ دون ان تتعمد حقا ـ تركت نفسها تنطلق كالجواد الجامح .. فقـدت جزءا من ضبط النفس الذى كانت تتميز به .. لم تفقده كله ، لانها ـ كعادتها كلما

قالت شيئا من الحقيقة ـ جعلت ذلك الجزء يفيد قضيتها كما كان فى وسع الكذب ان يفيدها !.. ولكنها بحديثهـــا ذاك عن ماير ايزاكسون قد أتاحت لنفسها أن تتبين تماما انها انما كانت خائفة منه ، أو انها قد تصبح خائفة منه ، فى المستقبل ! لماذا كتب له نيجل الآن بالذات ؟.. لماذا استرعى انتباه ايزاكسون اليهما والى حياتهما فى هذا الوقت بالذات !.. ان ذلك يبدو كما لو انه ..

وهنا جذبت عنان نفسها بغتة ، فى حدة طارئة .. انها لن تجعل من نفسها حمقاء تتعلق بالخرافات والاوهام ! .. لقد كان من الطبيعى تماما ان يكتب نيجل الى صديقه .. ومع ذلك فانها كانت تتمنى فى حرارة لو ان ايزاكسون لم يكن صـديقه ، وان هاتين العينين ، عينى الطبيب الثاقبتين ـ اللتين كانتا تلمان بحالة العقل والجسد للمراة او الرجل بنظرة واحدة ثابتة مشرقة ـ لم تقعا عليها قط .. ولقد أصبح أشد ما تتمناه الآن ـ فى قرارة نفسها ـ هو الا تقعا عليها مرة ثانية قط !

الفصل السابع والعشرون



• فى منزل ميدان كليفلاند ، وفى صباح يوم من أيام يناير الأخيرة ، راح ماير ايزاكسون يقرأ خطاب نيجل :

« فيللا اندرود ـ الاقصر ، مصر العليا ـ ٢١ يناير

« عزيزى ايزاكسون : هاك أخيرا خطابا منى .. الخطاب

الأول الذى أجلس لأكتبه اليك منذ تلك الرقعة التى أخبرتك فيها بزواجى .. وقد تلقيت خطابك الرفيق جوابا عليها ، وأريته لروبى التى اغتبطت به بقدر ما اغتبطت به انا ، اذ أنها أحبتك منذ اللحظة الأولى ، وكانت — فيما أعلم — تود دائما أن توثق معرفتها بك منذ ان ذهبت للترويح عنها فى وحدتها بلندن .. وسوف تتاح لها هذه الفرصه يوما ما ، أما الآن فاننا على وشك أن نقطع اتصالاتنا بكل انسان ، وان نسلم نفسينا الى النيل فى رحله نحو الجنوب .. لعل هذا يدهشك ، ولعلك كنت تتصورنى منصرفا بكليتى الى العمل الشاق فى (الفيوم) مع رجالى السمر .. حسنا ، اننى لا أقل اهتماما وعناية بالعمل هناك عما كنت دائما . ولو انك رأيتنى منذ أيام قليلة ماضـية ، ورأيت الوحل يبلغ ركبتى ، والزيت والسواد يلطخاننى ، فأبدو أشبه بوقاد ، لعلمت صدق ما أقول !..

ولقد كانت زوجتى معى فى الفيوم ، وقد اخشوشنت كبنات (اسبرطة) ، وطردت وصيفتها الفرنسية ، لتكون حرة تماما ، وأصبحت تعيش تحت الخيام ، وتركب الابل ، وتأكل حيثما اتفق .. وبالاجمال ، غدت تستطيب حياه البدو الرحل فى البرارى والقفار !.. انها ألفت هذه الحياة ، وان كانت تنتقد بين آن وآخر ما اعتادته من أسباب الرفاهية ، بطبيعة الأمر . ولكنها لم تشك قط !.. انها تبدو الآن فى ذروة بهائها ورونقها — أصغر بأعوام كثيرة مما كانت عندما رأيتها فى لنـدن ! — ولا تطيق سماع كلمة عن احضار وصيفه أخرى لها ، بالرغم من ان الحصول على وصيفة ميسور فى هذه الأيام !.. والواقع اننى شعرت بانه لا ينبغى لى ان أبقيها طويلا فى تلك الجهات الموحشة — وهى بعد فى أول عهدها بها — رغم أنها كانت قانعة كل القناعة ، راغبة فى البقاء هناك ، عازفة عن ابعادى عن عملى .. وحدست انها تواقة ولا بد الى رؤية بعض عجائب مصر ، فانتهينا الى العزم على القيام برحلة فى « دهبية » الى جنوب

النيل ، وها نحن الآن على وشك الرحيل .. وحبذا لو رأيت مركبنا « اللوليه » ، فهى قطعة من الجمال الكامل . وبغض النظر عن بعض التفاصيل الضئيلة ــ التى لم يتسع وقتى لعرضها ــ فانها خليقة بان تروق لك وتبهجك كثيرا : فحجرات النوم قطعة من باريس ، فى حين ان حجرات الجلوس أشبه بحجرات قصر شوقى .. ولسوف تقول : « ان باريس والشرق لا يجتمعان » . فليكن ! ولكن ما أروع أن تسبح فى الخيال أثناء النهار ، ثم تغوص فى الرفاهية العصرية الحديثه خلال الليل !.. اليس كذلك ؟ .. وخصوصا بعد الفيوم !.. ثم أن لدينا نافورة على ظهر المركب ، ناهيك عن سجاجيد الصلاة الفاخرة التى تعد بالعشرات ، والتى تفوق كل ما وقع عليه بصرى منها فى أسواق القاهرة .. ذلك اننا لم نستأجر هذه الدهبية من « كوك » ، وانما استأجرناها من أحد أصحاب الملايين المصريين ، ويدعى محمود بارودى .. وهو من أبناء الاسكندرية ، وكنا قد التقينا به أثناء سفرنا ، فتصادف أن كان يريد مستأجرا لمركبه ، فى ذات الوقت ألذى كنا ننشد فيه مركبا !.. وماكان فى الحق طامعا فى نقودى ــ رغم أننى دفعت له ما كنت سأدفعه الى « كوك » أجرا لمركب من الدرجة الأولى ــ ولكنه لم يشأ ان يترك ملاحيه وخدمه عاطلين عن العمل ، اذ يقول ان البطالة مفسدة لهم ، لذلك كان يبحث عن أمريكى ثرى ــ ككل شخص هنا تقريبا ــ عندما سمع مصادفة من احد خدمنا ــ وهو فتى من الطراز الأول يدعى ابراهيم ــ اننا نريد مركبا جيدة . وهكذا تمت الصفقة بيننا !.. أما خططنا المقبلة ، فما زالت غير واضحة :

فنحن نريد أن نبتعد عن طريق المراكب التى تقوم برحلات سياحية منتظمة ، لنخلو بنفسينا فى الأماكن الجميلة غير المطروقة ــ على طول ضفتى النهر ــ وأن نزور المعابد والمقابر فى هدوء ، وان نتغلغل فى صميم حياة الوطنيين .. نريد ، فى الواقع ، أن

ننغمس فى ماء النيل حتى أذقاننا !.. وليس فى وسعى أن أصف لك كيف اننا نتطلع معا الى هذه الرحلة فى أمل ورجاء ، وكل ما أستطيع قوله هو أننا سعيدان يا ايزاكسون !.. فمن العسير ، بل من المحال ، الا يحس الانسان بالسعادة هنا ، فى هذا المناخ ، وهذا الهواء ، وهذا الصفاء .. الصفاء الذى كثيرا ما أفكر فى أنه يشبه تألق الاخلاص وبهاءه ! **واظن اننا أسعد من معظم الناس هنا .. اننى واثق من ذلك بالنسبة لنفسى ، على أية حال !.. بل اننى لا اغالى اذا قلت أننا أسعد من أى انسان آخر هنا ، وانى لاقولها بصوت عال ، دون خجل او تورع ، ودون أن تساورنى أية مخاوف خرافية من المستقبل !..** ان الشمس تنسكب فوقى وانا أكتب لك الآن ، كما اننى اسمع أصوات الملاحين وهم ينشدون ويهزجون .. وهانذا أرى زوجتى فى الحديقة ، تمشى الهوينا متجهة الى ضفة النهر .. ليس ذلك فقط ، وانما أمامى أيضا تلك الرحلة اتطلع اليها وانعم بها منذ الآن !.. نسيت أن أخبرك بأننى فى اطيب حال ، وما كنت قط من قبل — طول حياتى — فى مثل هذه الصحة الرائعة . ويقال أن الرجل المكتمل الصحة لايحس ببدنه ولا ينتبه اليه ، ولكن الذى أدريه هو أننى كلما استيقظت فى الصباح ، قلت لنفسى : « انك فى أعظم حال ، أيها الفتى العجوز ! » .. واعتقد انالشعورية تعنى اكثر من اللاشعورية بكثير ! فهلا تظن ذلك ؟.. فليست بى هنا حاجة الى علمك ، ومهارتك .. لا حاجة لى بهما على الاطلاق ! ترى هل يوجد مرضى فى لندن حقا ؟ وهل عيادتك مكتظة بهم ؟ .. اننى لا اكاد افكر فى هذا ، الا كما أفكر فى ظلمة لندن فى هذه الأيام ! .. آه ! يالى من وحش أنانى !.. لاريب انك تكره منى هذا الشعور ، أليس كذلك ؟.. ولكن ما أجمل أن يكون المرء سعيدا ! .. وعندما أكون سعيدا فاننى اشعر دائما بأنى « أنفذ » القانون ! فاذا شئت أن « تنفذ » القانون ، فخير لك أن تأتى الى مصر !

ولكن ينبغى أن تحضر « المرآة » معك الى أشعة الشمس !.. وليس فى وسعى أن أقول أكثر من ذلك ، بل اننى لست فى حاجة الى المزيد من القول .. وانك لتفهم ذلك الآن !.. هل تذكر عودتنا الى منزلك سيرا على الأقدام بعد الحفلة الموسيقية فى تلك الليلة ، وكيف اننى قلت « شدما أود أن أذهب الى النور .. النور الحقيقى ؟ » .. حسنا ، اننى الآن فى غمرته ، وكم أود لو أن بوسعك - وبوسع كل انسان آخر - ان يأتى اليه أيضا !.. أرجو ان تغفر لى أنانيتى ، وان تكتب لى بهذا العنوان اذا ما وجدت فسحة من الوقت .. تعال الى النيل عندما تأخذ الأجازة المقبلة .. وتقبل تحيتنا معا ! صديقاك : « ن.أ. » و « ر.أ. »

« لقد وقعت نيابة عنها ، فانها لاتزال فى الحديقة ، وسألحق بها على التو ! »

* * *

• **خطاب** ينبض بالنجاح .. خطاب ينطق فى دهاء - وفى كل سطر من سطوره - برسالة خفية ، فيقول له : « لقد كنت مخطئا ! » .. خطاب يفيض بنشوة النصر ، ولكنه مع ذلك خلو من الزهو القاسى الذى يبعثه النصر فى بعض النفوس .. أهو حقا خطاب الى صديق صدوق ، ليغتبط بما جاء فيه ؟ .. لقد ظل ماير ايزاكسون طويلا ممسكا بالخطاب بين يديه ، وهو غافل عن الشاى الذى بقى فى مكانه بالقرب منه ، دون أن يمسه . وكان اليوم معتما عبوسا .. كان يوما ساكن الهواء ، غير قارس البرد ، ولكنه أحد أيام السنة الوليدة .. الأيام الأولى التى لا تبشر بالخير . ومع ذلك ، الم يكن يمسك بالشمس المشرقة بين يديه ؟.. كان من العجيب حقا أنها لم تدفئه ، وانما خيل اليه انها كانت تضيف ظلالا جديدة الى ظلمة لندن المعتمة !

مسز ارماين بلا وصيفة ؟!.. لقد بدا له هذا الحادث التافه – مجرد طرد وصيفة – بارزا ، يكاد يقفز من خطاب صديقه ، دون أن يعرف سببا لذلك .. **انه يعرف نساء الطبقة الراقية جيدا ، ويعرف ان المرأة العادية منهن تفضل أن تعيش بغير أمل فى دخول الجنة على أن تعيش بغير وصيفة !.. لابد أن تكون مسز ارماين قد تغيرت حقا منذ ان كانت مسز تشبستو .. فهل من الممكن ان تكون قد تغيرت الى هذا الحد ؟..** وهل من الميسور لمن تقدمت بهم السن ان يتغيروا من أساسهم ، اذا ما وقعوا تحت تأثير حماسى خارجى ؟!

وظل ايزاكسون ، طوال ذلك اليوم ، يفكر وينعم الفكر فى هذه المسألة .. لقد كان نيجل يقرع بابا ، فهل من الممكن أن يكون هذا الباب قد فتح له .. أو هل سيفتح له يوما ؟.. لقد كان يخال انه سيفتح له ، ولعله الآن يظنه قد فتح بالفعل ... لقد كان نيجل وزوجته فى طريقهما معا الى « الأماكن الجميلة غير المطروقة ، على طول ضفتى النيل » ، وكانا « أسعد من معظم الناس » .. بل أسعد من معظم الناس فى بلاد الذهب !.. ومع ذلك فقد ولد غلامان للورد هارويتش ، فحرم نيجل من الميراث !.. لقد راح ايزاكسون يتساءل – حين اطلع على هذا النبأ – عن الأثر الذى سيحدثه فى الزوجين المقيمين على شاطىء النيل : كيف تحتمله هذه المرأة الجشعة ؟.. الظاهر أنها احتملته على خير وجه ، فان نيجل لم يشر الى هذا الأمر بكلمة .. وهناك رحيل تلك الوصيفة .. مسز ارماين بلا وصيفة ؟! لقد جلس ايزاكسون فى تلك الليلة يعيد قراءة خطاب نيجل ، فاذا بهذه الواقعة التافهة – فى ظاهرها – تكاد تثب من الخطاب وتواجهه وحدها ! .. ما الذى كانت تعنيه هذه التضحية الغريبة ؟.. وما الذى عجل بها واستحث وقوعها ؟.. « لقد طردت وصيفتها الفرنسية ، لتكون حرة تماما » .. حرة لأى شيء ؟ .. ولماذا تريد هذه الحرية ؟



واشعل الطبيب سيجارا ، واضطجع فى مقعده المريح ذى المسندين ، ثم راح يدرس هذا الخطاب المرح كما يدرس الشرطى رسم المنزل الذى ارتكبت فيه احدى الجرائم .. فلما انتهى من تدخين السيجار ، وضع الخطاب جانبا ، ولكنه ظل هنيهة لا يجد رغبة فى الذهاب الى فراشه .. كان عقله كله بعيدا ، على النيل !.. انه لم ير النيل قط ، فهل يذهب لرؤيته توا ؟ هذه السنة ، بل هذا الربيع ؟ .. لقد ذكر نزهته على ظهر الجواد ذات صباح ، وكان هواء لندن يبدو راكدا كليلا ، بل يكاد يبدو خانقا !.. لقد حمله هذا الهواء - يومذاك - على أن يتمنى السفر بعيدا ، بعيدا جدا ، الى بلاد يستطيع ان يكون فيها « على سجيته » .. واذ ذاك تخيل بلدا بعيدا ، حيث تنشر الأساطير طياتها اللامعة .. **وكان وقتئذ يتوق الى الأحداث، حتى ولو كانت أحداثا رهيبة ، هائلة ، مروعة .. المهم أن تكون احداثا غير عادية أو مألوفة ! .. كان يتوق الى باعث شديد يوقظ قواه الخفية الى ذروة نشاطها .. فهل يذهب الى النيل قريبا .. فى هذا الربيع ؟**

ونظر الى الخطاب ثانية .. ومن جديد عاد يقرأ تلك الكلمات التى تبدو خالية من المعنى : « لقد طردت وصيفتها الفرنسية لتكون حرة تماما ! »

ترى هل يذهب ماير ايزاكسون الى مصر ، وهل يسعى الى الزوجين ؟.. وكيف يستقبلانه ؟.. وما سر الغموض والأحـــداث الرهيبة التى لم تلبث أن اكتنفت حيـــاة ارماين ؟ .. هل تكون ثمة جريمة تنفذ فى الخفاء ؟ .. ومن مدبرها وبطلها ؟ .. ومن الصديق الذى يظهر على غير توقع ـ بعد أن يكون القدر قد جمع كل خيوط الموقف فى عقدة عسيرة ـ لينقذ الزوج ؟ .. وهل يستطيع أن ينقذه حقا ، او .. ؟

ان الأحداث لا تلبث أن تتطور فتشـتد حدة وخطورة ، ويلفها الغموض من كل جانب ، حتى لا يتمالك القارىء أن يجد نفسه نهبا لهذه الأسئلة ، ولعشرات من الاسئلة الأخرى . وهو كالتائه فى الظلمات ، حتى يرسل المؤلف ـ ببراعة فنية سمت به الى قمة الفن القصصى الحديث ـ أضــواء تبدد الدياجير ، وتكشف عن مصائر أهم أبطال القصة :

الزوج .. والزوجة .. والعشيق ..والصديق !

كل هذا تطالعك به ((مطبوعات كتابى)) ، فى الجزء الثالث والأخير من هذه القصة الجبارة ، الذى يصــدر به عـــدد منتصف يونيــو المقبــل

لاتهمل فى اقتناء هذه القصّة

فمنذ صدرت بالانجليزية فى عام ١٩٠٩، وجعلت اسم مصر على كل لسان، وترجمت الى جميع اللغات الحية، لم يجرؤ أحد على ترجمتها الى اللغة العربية، نظرا لطولها، وخشية انصراف القارئ العربى عن متابعة أجزائها، بعد أن عوده الناشرون أن يقتضبوا اكبر الأعمال الأدبية وأضخمها فى جزء واحد هزيل!.. لكن "مطبوعات كتابى" التى تؤمن برسالتها التى أخذتها على عاتقها، وهى تقديم الترجمة "الكاملة الأمينة" لشوامخ الكتب العالمية كما وضعها مؤلفوها، بالحرف الواحد - كما هى الحال فى جميع البلاد المتحضرة - لم تحجم عن الاضطلاع بهذه المهمة العسيرة، خدمة للقارئ العربى الذى كان "مجنيا عليه"..

فلا تهمل فى اقتناء هذا الجزء من القصة الذى بين يديك، واطلب الجزء الأول - إذا كان قد فاتك - من ادارة كتابى (بعمارة الجندول، ١٤٠ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة) كى تتابع ماجرى من الأحداث بين السائحة الانجليزية الشقراء "مزنتشبستو"؛ وعملاقها المصرى الأسمر "البارودى"!

